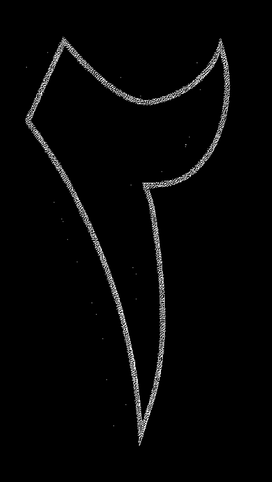
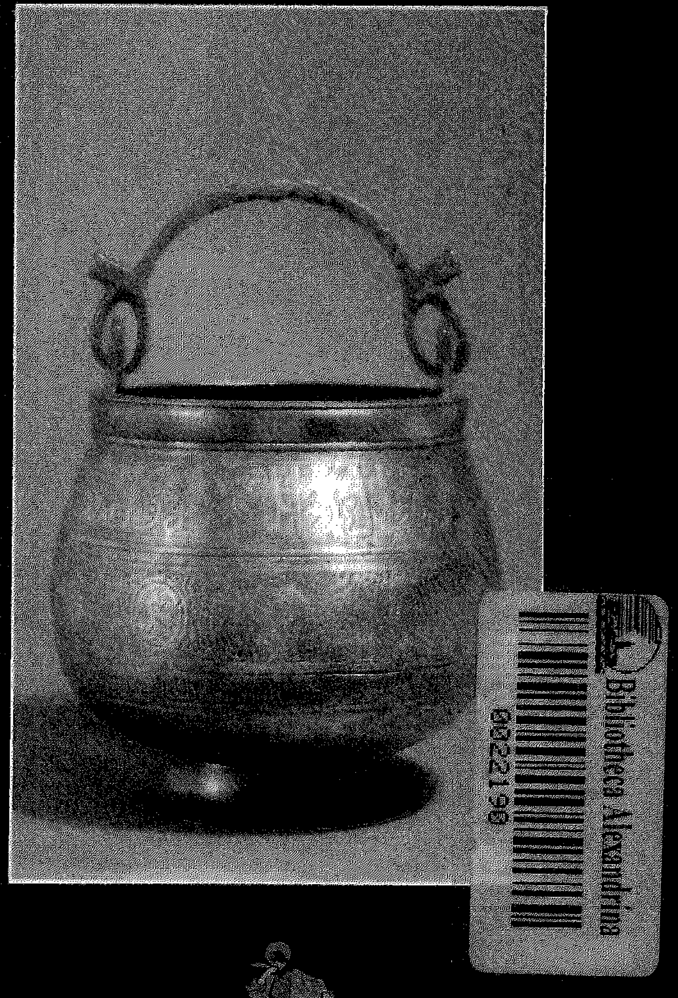
عارف تامر

تاريخ الإسماعيلية



من الغرب الى المشرق





الغلاف: مرجل فارسي نحاسي ذو نقوش كوفية
تمثل البروج الاثني عشر. يعود تاريخه إلى
القرن الثالث عشر ميلادي.
(بإذن خاص من المتحف البريطاني)





تاريخ الإسماعيلية - ٢ -

من المغرب الى المشرق

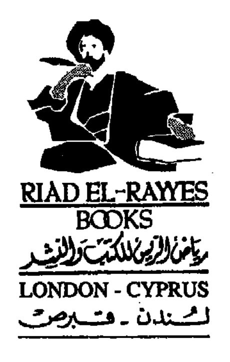


عارف تامر

تاريخ الإسماعيلية

٢

من المغرب الى المشرق



RIAD EL-RAYYES
BOOKS
رياض الريس للكتب والنشر
LONDON - CYPRUS
لندن - قبرص

THE ISMAILI HISTORY – 2 –

From West to East

BY

AREF TAMER

First Published in the United Kingdom in 1991

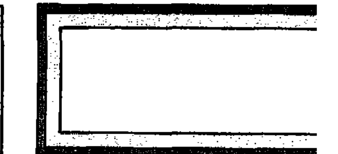
56 Knightsbridge
London SW1X 7NJ
U.K.

CYPRUS: P.O.Box: 7038 - Limassol

British Library Cataloguing in Publication Data
Tamer, Aref
The Ismaili History
From West to East
I. Title
297.20422

ISBN for the complete collection of 4 volumes
1855130599
ISBN for this volume 1855130696
Vol 1 – ISBN 1855130645
Vol 3 – ISBN 1855130742
Vol 4 – ISBN 1855130793

الطبعة الأولى: تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٩١



محتويات الكتاب



بنـاء الدولـة
الفاطِمّيّة



القائم بأمر الله

ولد الإمام «القائم بأمر الله» سنة ٢٧٨ هـ. في مدينة «الأئمة المستورين» سلمية ـ في سورية، وفي ربوعها أبصر النور، وشبَّ وترعرع وعاصر وشاهد ثورة «القرامطة» الذين خرجوا على دعوة آبائه وأجداده، وحملوا لواء الثورة التي استهدفت القضاء على كل ما له صلة بهذه الدعوة.

حمل القائم بأمر الله منذ صغره صورة واضحة عن جور العباسيين وظلمهم، عندما كانوا يطاردون ويقتلون أبناء عمومته «العلويين» أينما وجدوا، ودون أي ذنب، من جهة ثانية وبالرغم من صغر سنه شارك أباه عبد الله المهدي أفراحه وآلامه. فكان رفيقه، وأمين سره، وابنه المطيع، وتلميذه الذي يتلقى منه العلوم، والنصائح، والتوجيهات ودروس السياسة، والإدارة، والقيادة، والاضطلاع بشؤون الحكم. وكان أيضاً الرفيق الأمين لعبد الله المهدي في رحلته من «سلمية» إلى «سجلماسة» في المغرب الأقصى عبر فلسطين، ومصر، وليبيا، وتونس، وهي الرحلة العجيبة الشاقة التي تغنى بها الرواة، والأدباء، وأفردوا لها الصفحات الطوال مشيدين ببراعة المهدي، وحسن تصرفه، ورجولته وقوة أعصابه «وقد أتينا على ذكرها في الجزء الأول من هذا الكتاب».

وتحمَّل وهو الشاب الطري العود آلام الغربة.. وكان أصعب ما عرض له في رحلته خبر المأساة الكبرى عندما أقدم القرامطة على قتل أفراد أسرته عن بكرة أبيهم في سلمية، كما تلقى برجولة، وقوة أعصاب، وصبر هجمات اللصوص وغاراتهم وهو في الطريق إلى

المغرب، ويضاف إلى كل هذا رجولته، وتحمله المصائب وخاصة عندما وقع في أسر «اليسع بن مدرار» في سجلماسة كما ذكرنا.

كان عبد الله المهدي يردد في كل مناسبة، ويعلن في مجالسه إعجابه بالقائم بأمر الله ـ وبالصفات التي يتحلّى بها، لذلك محضه ثقته منذ صغره، وأناط به أعظم مسؤولية في الدولة وهي قيادة الجيوش، وفتح الأمصار، وتأديب العصاة، والخارجين، وإخماد الثورات، والفتن التي كانت تهدد وجود الدولة، وأمنها، واستقرارها حتى إذا توفي أبوه سنة ٣٢٣ هـ انتقلت إليه الإمامة والخلافة.

لقب بأبي القاسم، وتوفي في مدينة «المهديَّة» ودفن فيها سنة ٣٣٤ هـ، فتكون المدة التي عاشها في سلمية سبعة عشر عاماً، والفترة التي قضاها في المغرب ولياً للعهد خمسة وعشرين عاماً، أمّا مدة خلافته فكانت إثنـي عشر عاماً، يعني أن حياته امتدت أربعة وخمسين عاماً.

المصادر التاريخية عن طفولته ونشأته في سلمية قليلة ونادرة.. فهذه المصادر أغفلت ذكر الذين تولوا تربيته وتعليمه كعادتها في إغفال كل ما يتعلق بهذه الأسرة التي كانت تعيش في سرية تامة، وتقية عجيبة، وهي تنتحل الأسماء والصفات وتختفي عن عيون الناس تهرباً من عيون العباسيين وملاحقاتهم...

لقد مرّ معنا أن المهدي الخليفة الفاطمي الأول عهد إلى القائم بأمر الله بولاية العهد، وذلك بعد أن أرسى قواعد دولته الفاطمية في المغرب، وأعطاه مسؤولية القيادة العليا للجيوش الفاطمية، ووجهه في المهمات الصعبة الشاقة بعد أن أصبح واثقاً من أنه جدير بالثقة، وبأنه يمتلك من المعرفة، والرجولة، وبعد النظر، والخبرة بإدارة الأقاليم ومعاملة الناس، والاتصال بهم، ومسايرة القبائل، والشعوب، والضعفاء، والمحرومين ما يكفل له النجاح في كل مهمة يعهد إليه بها.

تزوج «القائم بأمر الله» بعد عشر سنوات من وصوله إلى المغرب فتاة تنحدر من أسرة أمراء قبيلة «كتامة» المعروفة بآل عمّار، وهـذه الأسرة لعبت دوراً بارزاً على مسرح ـ الأحداث في تاريخ المغرب، فكانت درع الفاطميين، والركن الذي قامت عليه دولتهم. وعندما نعلم أن من هذه الأسرة يتحدَّر «الأمير جعفر بن فلاح» القـائد الفاطمي الذي فتح بلاد الشام بعهد الخليفة الفاطمي الرابع «المعز

لدين الله»، وبعض أبناء «عمّار» الذين تسلّم عدد منهم القيادات في الجيش الفاطمي، وآخرون كانوا قضاة يعملون للعلم وللأدب ومنهم: «علي بن عمّار» مؤسس المكتبة الفاطمية الكبرى في طرابلس ـ الشام التي لم يكن لها نظير في مكتبات العالم، والتي نهب الصليبيون محتوياتها كافة، ونقلوها إلى أوروبا عندما استولوا على هذه المدينة، أجل... عندما نعلم ذلك... ندرك أن «القائم بأمر الله» توخّى من هذا الزواج زيادة في النفوذ، وإقامة قاعدة شعبيّة بين القبائل المغربيّة يعتمد على مناصرتها، ويستند إليها عند حدوث المفاجآت، أو بلغة أصح إيجاد أقرباء له يحملون السلاح ذوداً عنه، وعن ملكه. وهناك مصادر تاريخية أخرى ذكرت أن القائم بأمر الله قد تزوج فتاة من أسرة الأدارسة المعروفة التي تنتمي إلى «الحسن بن علي بن أبي طالب» وكان مؤسسها «إدريس الأول» قد أقام دولته في شمالي أفريقيا سنة ١٦٩ هـ. كما ذكرنا.

قال عنه المستشرق «برنس مامور»:

«كان رجلاً غامضاً عميقاً لا يسبر غوره، ولا يحاط بمداه، يأخذ بالقوة والحزم في الحوادث الطارئة واستطلاع الأمور، وكان داهية له نظرة فاحصة تصل إلى أعماق السرائر، وخفايا النفوس، وشجاعاً لا يلين، وكان عارفاً وذا خبرة باختيار الرجال، واصطفاء الأصدقاء، وبالإضافة إلى كل ذلك كان صبوراً، وطيب القلب، يحب عمل الخير، والإحسان، وفياً للشعب، يحب إنصافه، وإسعاده، وخاصة الطبقة الفقيرة العاملة، وكان محباً للحروب وللمغامرات، يباشرها بنفسه، وينازل الأبطال في الميادين، وعرف عنه سعة حيلته في أساليب القتال، واستعمال الخديعة في بعض الأحيان».

أمّا العلوم والآداب فلقد عرف عنه اهتمامه بهما وعطفه على الأدباء والشعراء واتصاله بهم، ولا غرابة في ذلك فالقائم بأمر الله كان شاعراً. ويتضح ذلك في قصيدة نظمها وخاطب فيها أهل المشرق، وهي القصيدة التي ردّ عليها الشاعر «الصولي» بتكليف من أعداء الفاطميين.

يقول القائم بأمر الله:

أيا أهل شرق الله زالت حلومكم   أم إصدّعت من قلة الفهم والأدب

صلاتكم مع من.... وحجكم بمن وغزوكم فيمن أُجيبوا بلا كذب
صلاتكم والحج والغـزو ويلكم بشراب خمرٍ عاكفين على الريب
ألم ترني بعثُ الرفاهـة بالسرى وقمت بأمر الله حقاً وقد وجب
صبرتُ وفي الصبر النجاح وربما تعجَّل ذو رأي فأخطأ ولم يصب
إلى أن أراد الله إعـزاز دينه فقمتُ بأمر الله قومة محتسب
وناديت أهل الغرب دعوة واثق بربٍّ كريم من تولَّاه لم يخب
فجاؤوا سراعاً نحو أصيد ماجدٍ يبادونه بالطوع من جملة العرب
وسرت بخيل الله تلقاء أرضكم وقد لاح وجه الموت من خلل الحجب
وأردفتها خيلاً عتـاقاً يقـودها رجالٌ كأمثالِ الليوث لها جنب
شعـارهُمُ جدي ودعـوتهم أبي وقولهُمُ قولي على النأي والقرب
فكان بحمد الله ما قد عرفتمُ وفزتُ بسهم الفلح والنصر والغلب
وذلـك دأبي مـا بقيت ودأبكم فدونكمُ حربـاً تضرَّم كـاللهب

العودة إلى الأحلام الفاطمية

في الجزء الأول (الدعوة والعقيدة)، ذكرنا ما فيه الكفاية عن تطلعـات الفاطميين وأحلامهم في امتلاك مصر، وضمها إلى دولتهم المغربية، فمصر كانت هدفهم، ومهوى أفئدتهم، وتطلعاتهم منذ أن كانوا في مدينة سلمية ـ في سورية ـ وقد مرَّ معنا أنهم خصصوا لها خيرة دعاتهم، وأغزرهم علماً وأدباً، وزودوهم بالتعاليم والأفكار، وكانت الخطة امتلاكها، وجعلها القاعدة الرئيسية لدولتهم المرتقبة، ونقطة للعبور إلى المشرق والمغرب واضعين أمام أنظارهم ثروتها الطبيعية، وموقعها الجغرافي البري والبحري بحيث يمكن النفاذ من أيٍ منهما إلى بلاد وممالك أخرى أكثر غنى وثروة.

وبالنسبة للقائم بأمر الله، فقد كـان يحزُّ في نفسـه، أن تفشل الحملات الثلاث التي أرسلها الخليفة الأول «عبـد الله المهدي» لافتتاح مصر، والتي اشترك باثنتين منهـا، فضلاً عمـا أحدثتـه الحملات الثلاث في بنية الدولة من فراغ، وما أوجدته في النفوس من انهيار، وعدم ثقة وخاصة بالنسبة للنفقات التي أثقلت كاهل الدولة، وقرَّبتها من حافة الإفلاس، والانهيار الاقتصادي، وهي في مستهل حياتها.

لهذا... فإنه ومنذ اليوم الذي تسلَّم فيه شؤون الخلافة... فكَّر

بمصر، وضرورة الزحف عليها واحتلالها، فعهد إلى القائد الكتامي المجرَّب «ميسور الفتى» وكان موضع ثقته، بالزحف على رأس جيش كبير إلى «برقة» والتمركز فيها، بانتظار الأوامر الجديدة، وممَّا شجعه على هذه الخطوة المعلومات التي وصلت إليه من دعاته في العراق، التي تؤكد: بأن العباسيين أصبحوا في وضع لا يسمح لهم بإرسال أية جيوش إلى البلدان البعيدة التابعة لهم، وذلك بسبب سوء الأحوال العامة، واضطراب المناطق، والمقاطعات التي كانت تتأهب للخلاص، وللاستقلال، فبعد ذهاب أفريقيا الشمالية والأندلس من أيديهم، يأتي دور مصر، ويستقل الحمدانيون بالموصل، ويقتربون من حلب، ويشن البيزنطيون غاراتهم العنيفة على المدن المتاخمة لحدودهم، ويصبح الخليفة العباسي، آلة صماء يتلاعب بها رجال البلاط، وأكثرهم كان من ذوي الأطماع، ومن الذين سخّروا أنفسهم لخدمة العناصر الغريبة الدخيلة، ففي ذلك العهد كادت البصرة أن تقع في يد ابن رائق، وخوزستان في يد البريدي، والأهواز، والري، وأصفهان في يد بني بويه، وكرمان في يد محمد بن إلياس، ومصر والشام في يد محمد بن طغج، وخراسان، وما وراء النهر في يد نصر بن أحمد الساماني، وطبرستان، وجرجان في يد الديلم، والبحرين، واليمامة في يد القرامطة الذين أقلقوا عامة الدولة العباسيّة بغزواتهم المستمرة على بعض مدن الشام حتى على بغداد وما يجاورها.

أجل... أدرك القائم بأمر الله، وهو في مستهل عهده بأن امتلاك مصر ضرورة للدولة الفاطمية، فمصر كانت منذ القديم الأرض الصالحة لتقبل الدعوات الشيعية... إنها بلاد آمنة، وشعبها ميَّال بطبيعته إلى الهدوء والأمن والاستقرار، وهكذا مواردها فإنها خصبة وفيَّاضة، أمَّا موقعها فجدير بأن يكون قاعدة لدولة كبرى.

ومن الجدير بالذكر: أن الفاطميين في حملاتهم الثلاث التي أرسلوها إلى مصر... كانوا يجندون مع الجيش المحارب بعض الدعاة المجربين الذين تفوقوا في مدارس الدعوة، وهؤلاء كانوا يرتدون ثياب ضباط الجيش، وعندما يقتربون من المدن، يتسلّلون إليها، ويبدأون بالدعاية، والتودد إلى الشعب، وترغيبه بالدولة الفاطمية، وإعطاء فكرة عن برنامجها وأساليبها في حكم البلاد، وتطبيق المبادىء

السامية القائمة على العدالة والحرية والإخاء والمساواة، واستمرَّ هذا الغزو الدعائي لمصر خاصة، حتى جاء عهد الخليفة الفاطمي الرابع «المعز لدين الله» فتمَّ في خلاله قطف الثمار ـ وجني مازرعته الأيدي. ولكن لا بد من التساؤل... هل صدقت الأحلام، وهل تمكن القائم بأمر الله من تحقيق ما رسمه؟

إن الأحداث العنيفة، والانتفاضات، والثورات التي انبثقت بعد وفاة عبدالله المهدي في المناطق القريبة والبعيدة على السواء، قلبت المواقف والحسابات رأساً على عقب، وذلك حين استيقظ أعداء الفاطميين من سباتهم، وهرعوا لتنفيذ مخططهم، ويبدو أنهم كانوا ينامون على الرماد الذي يعلو النار وذلك في حياة عبدالله المهدي، منتظرين الفرصة السانحة. وبعد وفاته اعتقدوا أن الخليفة الثاني القائم بأمر الله بالرغم مما وهب من عبقرية وذكاء ورجولة، فإنه لن يثبت في المجال، وسينوء تحت حمل الحكم الثقيل، ويتوقف عن إكمال الشوط، فهو دون المهدي تدبيراً ومرونة وبعد نظر. وهذا ما جعل القائم بأمر الله يجمد كل هجوم على مصر، ويصدر أوامره إلى القائد «ميسور» طالباً إليه العودة من «برقة» مع جيوشه إلى «المهدية» لأن هذه الجيوش ستكون أمام واجب الدفاع عن الدولة ضد الثورات الداخلية.

طلائع الثورات، أول الغيث

أوردنا في الجزء الأول، لمحة عن ثورة موسى بن أبي العافية، هذا الثائر الإدريسي القاسي العنيف الطامع بالملك، والمتردد في اتخاذ الرأي، والذي لم يتوقف عند حد من الحدود... فهو تارة يعلن الولاء للفاطميين، ويسير مع قوادهم في الأقاليم يدلهم على مواقع الأعداء والثائرين أو الخارجين على أوامر الدولة العليا لقاء وعد بتوليته منصباً أو أجراً، أو إمارة صغيرة يحكمها في إحدى الجهات، وتارة أخرى يتوجه إلى الأندلس متسكعاً على أبواب أصحابها الأمويين، طالباً منهم العون لاسترجاع بلاده المحتلة من الأعداء معاهداً على الثبات، والإخلاص، والخضوع، والدخول في الطاعة، والمناداة بهم في المجالس، والمساجد. ومما يجب أن يذكر: أنه لم ينتصر مرة في عهد المهدي بل أصيبت حركاته بالفشل والخذلان، وعند الضربة

القاصمة، فرَّ من ساحات القتال، ولجأ إلى جهة مجهولة، متخفياً عن الأنظار.. ولكن ما كاد الخليفة المهدي يغيب عن الوجود حتى خرج من مخبئه متسللاً إلى قلب البلاد، وهناك جمع جموعه، وأخذ ينفخ في بوق الثورة والعصيان، محرضاً الناس على خلع طاعة القائم بأمر الله داعياً الناس إلى الالتحاق، والتجند بجيشه للمشاركة باسترجاع الكرامة المغربية من الأعداء الغرباء الحاكمين.

وليس غريباً أن يفتح له الخليفة الأموي «عبد الرحمن الناصر» أبواب خزائنه، ويمده بالاحتياجات والمتطلبات كافة، فنزل في مدينة «فاس» بادئ ذي بدء، واتخذها قاعدة عسكرية، ومنها انطلق إلى جهات أخرى، وقبل انطلاقه دعا «أحمد بن بكر بن عبد الرحمن الجزامي» للتعاون معه، فاستجاب له، وقام بمهاجمة والي «فاس» «حامد بن حمدان» المعين من قبل الفاطميين، فقتله، وقدَّم رأسه إلى «موسى بن أبي العافية» الذي أرسله بدوره إلى «الناصر الأموي» في قرطبة، وقد اعتبرت هذه الهجمة، الانتفاضة الأولى في عهد «القائم بأمر الله» أو أول الغيث.

أجل... انطلق موسى إلى البلدان المجاورة، فانتزعها الواحدة تلو الأخرى، وبسط نفوذه عليها، وكان يجند منها الجنود، ويضمها إلى جيشه الزاحف الذي كان يتلقى المعونات المالية، والغذائية، والعتاد باستمرار من «قرطبة» عاصمة دولة الأمويين كما ذكرنا، وبعد أن فرغ من احتلال المنطقة المحيطة بفاس بكاملها، توجه إلى الريف، وبلاد «غمارة» وكانت هذه البلدان تحكم من قبل الأدارسة الموالين للفاطميين، وكان لهم فيها قوى كبيرة، فأنذرهم بالتخلي عن الفاطميين، والانضمام إليه، وعندما رفضوا طلبه أعلن عليهم الحرب، وبعد سلسلة من المعارك تمكن من احتلال مواطنهم، وإخضاعهم إلى نفوذه....

هذه الانتصارات السريعة... بل هذه المفاجآت المذهلة، وغير المنتظرة، وما رافقها من جرائم وحشية، وأعمال بربرية كان جيش «موسى بن أبي العافية» يقترفها في المدن والقرى التي دخلها حركت القائم بأمر الله، وجعلته يقرر بأن هذه الثورة الكبرى التي يمولها الأمويون أصبحت تهدد الدولة الفاطمية مباشرة، ولا بد من القضاء التام عليها مهما كانت النتائج، ولهذا أعدَّ جيشاً كبيراً، وأضاف إليه

القوى التي استقدمها من «برقة» وكنا ذكرنا أنه قد أعدّها لغزو الديار المصرية، فعيَّن على هذا الجيش «ميسور الفتى» من زعماء كتامة، ومن القواد الكبار الذين عرفوا بإخلاصهم للفاطميين، وسعة نظرهم، ودراياتهم، وإقدامهم. فزحف إلى فاس وطوَّقها، ثم أنذر حاميتها بالاستسلام ولكنها أبت الإستجابة للنداء. فأحكم عليها الحصار الذي دام سبعة أشهر، وعندما علم موسى بالأمر، ارتدَّ مع جيشه، وجاء إلى فاسٍ رامياً فك الحصار عنها ولكنه لم يتمكن، لأن «ميسور» دخلها عنوةً، وألقى القبض على حاكمها «أحمد بن بكر» وكبله بالحديد، وأرسله إلى القائم بأمر الله، وكان آنئذٍ في المهدية سنة ٣٢٣ هـ.

أما موسى فبعد أن خاض جيشه عدداً من المعارك مع ميسور، وجد أن لا قدرة له على الوقوف بوجه هذا الجيش الفاطمي الكبير الذي يقوده قائد عرف بعنفه، وسعة تدبيره، وواسع حيلته، فترك فاس، وسار إلى «ناكور» وهي حاضرة قبيلة «صنهاجة» وتقع في المغرب الأقصى على الساحل، فتمكن من احتلالها، وقتل كل من كان فيها من الموالين للدولة الفاطمية....

إن هذه الأعمال اعتبرها المطلعون مقدمة لانهيار موسى وخذلانه، لا سيما بعد أن ثبت تعطشه للدماء، وولعه بالفتك، والقتل، وتدمير المدن، والعبث بكل شيء دون رادع من ضمير... أو خوفٍ من عقاب، وكل هذا جعل الناس يتنبأون له بنهاية عاجلة.

وصلت هذه الأخبار المزعجة، والجرائم ا لوحشية التي ارتكبها موسى إلى أسماع الخليفة القائم بأمر الله بسرعة، فأمر على الفور بتشكيل جيش آخر عهد بقيادته إلى «صندل الفتى» الكتامي وهو ابن عم «ميسور» وقيل بل شقيقه، ثم أعطاه الأوامر المشـددة بضرورة استرداد «ناكور» والقضاء على ثورة موسى مهما كلف الأمر، فامتثل صندل للأمر، وغادر المهدية سنة ٣٢٣ هـ. وعندما وصل إلى «ناكور» وجد أن السلطة الفاطمية قد زالت عن المدينة، وما يجاورها كلياً، فعجَّل بدخولها، وعيَّن حاكماً عليها أحد رجاله المسمَّى «مرمازو»، وبعد أن وطَّد الأمن في ربوعها، وأزال كل أثر لموسى عنها، يمَّم شطر «فاس» وكان موسى قد عاد إليها ثانيةً بعد أن تمكن من إعداد جيش كبير بمساعدة الأمويين الذين فتحوا خزائنهم ثانيةً، وأغدقوا عليه

المساعدات الوفيرة، وفي تلك الفترة بالذات أخذت الأحداث تتفاعل، وتتخذ أشكالاً مختلفة حاملةً للقائم بأمر الله المتاعب الجديـدة، والعثرات المفاجئة. فقد قامت ثورة أخرى من جانب ثانٍ، وبرزت أكثر عنفاً وقوة وكان يقودها «محمد بن خزر الزناتي» بتمويلٍ من «الناصر الأموي» أيضاً... فكان أول عملٍ قام به احتلال مدينتي «تاهرت» و «وهران» والانطلاق باتجاه المغرب الأوسط، وكانت هذه الخطوة جزءاً من مخطط يرمي إلى الاستيلاء على كامل المغرب الأقصى، وتحقيق «أحلام «الزناتيين» بإقامة دولتهم الكبرى.

إنَّ بعض المؤرخين يؤكدون: بأن ثورة الزناتيين جاءت في تلك الفترة لتكون رديفاً لثورة موسى، أو للتخفيف عن «موسى بن أبي العافية» وربما لتفسح المجال أمامه للتقدم، والاستيلاء على المزيد من البلدان، وذلك بعد أن يصبح القسم الأكبر من الجيش الفاطمي منشغلاً بقتال جيوش الزناتيين، وقد ثبت أن الثورتين كانتا على اتصال دائم يتبادلان المشورة، والتفاهم على الخطط الحربية، وتحركات الجيوش في المناطق والبلدان.

وأخيراً، أدرك القائم بأمر الله أنه أصبح أمام خطرٍ داهم، وأن هناك خطة لتطويق قاعدة ملكه بدأت بعيدة ثم أخذت تقتّرب رويداً رويداً، ولم يغب عن باله في تلك الساعات الحرجة، أن أقلَّ انسحاب لجيوشه من منطقة فاس سيشجّع موسى على العودة إليها، وإضرام النـار في أرجائها، كما أن الاحتفاظ بهذه الأعداد من الجيوش لحماية منطقة فاس، سيمكن الزناتيين من جهة أخرى من التمادي في فتوحاتهم، والانقضاض على مواقع جديدة، وهذا ما جعله يتحرك بسـرعة، ويحضر إلى فاس بنفسه، حيث عقد سلسلة من الإجتماعات مع أصحاب الحل والربط في المدينة، وفي نهاية المطاف، وعلى ضـوء الأحداث توصل إلى اتفاق قضى بتوقيع معاهده صلح لقاء دفع عشرة آلاف دينار في العام لخزينة الدولة الفاطمية، على أن تبقى الخطبة باسم الفاطميين، وكذلك العملات التي تحمل شعار دولتهم، وبعد أن تمَّ له ذلك عاد إلى قاعدة ملكه «المهديَّة»، وأعطى أوامره إلى «ميسور» بالتحرك، ومغادرة منطقة فاس إلى حيث يوجـد موسى، لتـأديبه والقضاء عليه مهما كانت النتائج والتضحيات. ولم يصدر القائم بأمر الله هذه الأوامر إلَّا بعد أن علم بأن موسى قد وقَّع معاهدة مع

الخليفة الأموي «الناصر» يقضي بالدعوة له على منابر المساجد في كل بلد، أو قرية يدخـل إليها، أو يتم تحريرها، وخاصة ما كان منها خاضعاً لحكم الأدارسة.

بعد ذلك وصل ميسور إلى حيث يخيم موسى وجيوشه الجرّارة، فقد ذكر أنه كان يتأهب للزحف على «تلمسان» وهناك تصدى له ميسور بجيوشه، ودارت المعارك العنيفة بين الجيشين، سجالاً لعدة أيام، وقد بذل كل منهما في خلالها كل ما عنده من أساليب الحرب، وفنون القتال، وتشاء الظروف في تلك الأيام الحرجة أن تساعد الفاطميين على تخطي العقبات، فتهرع أعداد كبيرة من قوات الأدارسة إلى الانضمام إليهم تخلصاً وانتقاماً من موسى وجرائمه الشائنة، وبهذا تمَّ لميسور السيطرة على ميادين القتال، وتحقيق انتصارات سريعة وحاسمة. ولم يطل الوقت أمام ميسور فقد قبض على أحد أولاد موسى الـذي كان يقود إحدى الكتائب، فكبّله وأرسله إلى المهديّة، وبعد ذلك توالت الانتصارات، وفي المعركة الأخيرة تركت جيوش موسى الميادين، وولّت الأدبار أمام جيوش الفاطميين الظافرة، فلحق بها ميسور وأعمل فيها السيف، وما زال يتبعها، ويسد عليها منافذ الطرق، والهرب حتى انقسمت إلى شراذم منعزلة عن بعضها البعض في السهول والجبال.

أمَّا موسى فقد لاذ بالصحراء، واختفت آثاره، فهذه الضربة الأخيرة أخمدت صوته وصوت ثورته التي شغلت الدولة الفاطمية عـدة سنوات، وكلفتها العديد من الضحايا، والأموال.

وبعد أن تمَّ لميسور تحقيق هذه الانتصارات أرسل للقائم بأمر الله كتاباً يخبره فيه بما حققه، فأرسل إليه أمراً بأن يولي «الأدارسة» الذين عاونوه، وساروا في ركابه لقتال موسى على الأجزاء التي تمَّ تحريرها من المغرب الأقصى، وأن يمنحهم الصلاحيات التامة للحكم، وأن يقرهم على الجهات كافة التي يتعهدون بحمايتها مع إعطائهم كل ما يمكن من المساعدات.

وهكذا أعاد الخليفة القائم بأمر الله لهذه الأسرة بعض نفوذها، وحقوقها واعتبارها، وقد ظهر واضحاً أن هذه الأسـرة التزمت بالمبادىء الفاطمية، وظلّت على ولائها تـدعو للخليفـة على منـابر المساجد، وتطيع أوامره، وترجع إليه في القضايا العليا، وكان يقودها

في تلك الفترة «الحسن بن أبي العيش» وهذا الإدريسي الشجاع قاد واشترك في الحرب إلى جانب ميسور وتمكن من دخول «تلمسان» سنة ٣٢٥ هـ ومنها توجه إلى مدينة «أصيلة» حيث احتلها، وما يجاورها، وفيها أعلن الخطبة باسم الخليفة الفاطمي الثاني «القائم بأمر الله». أمَّا القائد ميسور فعاد إلى القيروان، وفي طريقه عرَّج على شطر أفريقيا فاستولى على «أرشكول» وهي قاعدتها المهمة، وولَّى عليها «يحيى بن إبراهيم» ثم انتقل إلى «وهران» فاستولى عليها، وأعادها إلى الحظيرة الفاطمية، وقبل أن يصل إلى القيروان عرَّج على «تاهرت» فقضى على ثورة «أبي القاسم بن مصَّالة» وبعد ذلك دخل القيروان، وهو رافع الرأس، يجرّ أذيال النصر.

إن ثورة «موسى بن أبي العافية» العنيفة التي شغلت القائم بأمر الله وهو في مستهل عهده كلفت الدولة الفاطمية من النفقات، والضحايا ما لا يحصى. فهذه الثورة التي تميزت بعنفها كادت تنتصر في نهاية المطاف، لولا أنّ قائدها لم يرتكب الأخطاء ويستبيح الدماء، ويستحلّ الحرمات. وهذا هو سبب نقمة الناس عليه وتخلي جنوده عنه في المعارك الحاسمة... ومن جهة ثانية يجب أن لا يغرب عن بالنا أن الدعاية في الحروب، واستعمال اللين والطيب والأخلاق الحميدة مع المواطنين الذين يقعون تحت الاحتلال، هو من أكبر الانتصارات التي يحققها الفاتحون إذا نجحوا في حمل جيوشهم على التحلي بها. وقد كنا ذكرنا بأن الفاطميين اعتمدوا الدعاية، وركزوا عليها أكثر من اعتمادهم على السيف. نقول هذا ونحن على يقين بأنهم لم ينتصروا على «موسى بن أبي العافية» إلاَّ بعد أن أقنعوا الأدارسة بضرورة التعاون معهم للقضاء على ثورة تناصبهم العداء، وتقف بوجههم، وتحول بينهم وبين العودة إلى ممتلكاتهم... من جهة ثانية... نرى أنهم وضعوا أمام الناس صورة عن الفظائع التي يرتكبها موسى... وهكذا نجحت الدعاية، وتفرّق العديد من أصحابه عنه، وتمكن ميسور من الوصول إلى غاياته وأهدافه.

ثورة الخوارج.

أبو يزيد مخلَّد بن كيداد

يعتبر «أبو يزيد مخلَّد بن كيداد» اليفرني القائد الفعلي لثورة الخوارج التي اندلعت بوجه الفاطميين، كما يعتبر المؤسس الأول

للحركة الدينية الخارجية في شمالي أفريقيا. ينتسب إلى قبيلة «زناتة» المغربية، ويتحدَّر من أسرة متوسطة الحال، لم يسبق لها الظهور على المسرح العام. أمه جارية من قبيلة «هوّارة» تزوجها والده في السودان، وأتى بها إلى «توزر» فولدت له «مخلَّد» الذي عرف فيما بعد ـ بأبي يزيد الخارجي. ومن الجدير بالذكر أنه لم يتمكن من الظهور على مسرح الأحداث إلاَّ عندما قاد الثورة الكبرى ضد الدولة الفاطمية بعهد الخليفتين «القائم بأمر الله» و «المنصور بالله»، وهذا ما سنتحدث عنه الآن:

نشأ أبو يزيد في «توزر» واعتنق مذهب «الخوارج» القديم المعروف، ثم أضاف إليه أفكاراً ـ وتعاليم جديدة تختلف بمضمونها عن مذهب الخوارج الأساسي، وتفوقها عنفاً وشدة وضراوة. فمذهب أبي يزيد كان يدعو، علاوة على الكفر بتعاليم الشيعة، واستباحة أموالهم، ودمائهم، والخروج على طاعة خلفائهم، كان يدعو إلى الكفر بكافة المذاهب، وعدم الإيمان إلاَّ بالقوة وحدها. وقد تكون هذه التعاليم خاصة بطبقة معينة من المسؤولين وقادة الحركة، أمَّا الأتباع والعامة فكانوا يعتنقون مبادىء أقرب إلى الإيمان والإســلام وفق تعاليم مرسومة حيكت بعناية.

بعد أن شبَّ أبو يزيد وترعرع، انتقل إلى «تاهرت» ففتح مدرسة لتعليم الصبيان القراءة والكتابة. وبعد مدة غادرها إلى «نفوس»، وهناك اشترى مزرعة صغيرة، وفتح فيها مدرسة من جديد لتعليم الأولاد وكان يرمي من وراء ذلك إلى ايجاد جيل من الشباب يؤمن بمبادئه، ويحمل السلاح عن عقيدة وإيمان، ويسير في الأقاليم بقصد الفتح والقتل والتدمير، وإقامة دولة «الخوارج» المقرّرة.

في سنة ٣١٦هـ. أعلن أبو يزيد ثورته، بعد أن أتَمَّ الإستعدادات، ونظَّم الجيوش ودرَّبها، وأوجد لها السلاح والعتاد، والمعاش، ثم هبط من جبال «أوراس» يدعو الناس إلى مذهبه، والدخول في طاعته، وتسمَّى «شيخ المؤمنين».. أمَّا الناس فكـانوا ينـادونه «صــاحب الحمار» لأنه كان يركب حماراً في رحلاته، وتنقلاته بين المـدن، والقرى... ومن الجدير بالذكر أنه عندما وثق من قوته، وكفاءة جيوشه، بل عندما دان له الفقهاء، والعلماء ودانت له الجماهير الغفيرة، ورؤساء القبائل، توجّه إلى القيروان كمرحلة أولى، فدخلها

دون قتال، وخطب في مساجدها، وبشرّ أهلها بالخير ودعاهم إلى مذهبه، والثورة على الفاطميين الدخلاء، في وقتٍ كانت، جيوش «القائم بأمر الله» تقاتل في المغربين الأوسط والأقصى كما ذكرنا لاستعادة الأمن، وتوطيد النظام والاستقرار الذي عكر صفوه «ابن العافية» و «الخزر الزناتي»، وقد ذكرنا ما فيه الكفاية عنهما.

اندلع لهيب ثورة «أبي يزيد» فسار الناس وراءه بحماس شديد، واندفاع عجيب، وخاصة «البربر» الذين رأى بعضهم فيه منقذاً أرسله الله لتخليصهم من براثن الدخلاء الغرباء، والغزاة الأجانب المحتلين. فهبطوا معه إلى «القيروان». وفي «القيروان» أعطى أوامره بالانكشاف عن المدنية، والمرابطة على أبوابها، ثم وضع خطة تقضي بزرع بذور الفتنة بين سكان المدينة، ممَّا يجعلهم يتنابذون، ويتقاتلون ثم يسفكون دماء بعضهم البعض، وبهذا يصبح بمنجاة من أقوالهم، وألسنتهم فلا تلحقه تهمة، أو تلصق به سمعة سيئة، وفي أواخر سنة ٣١٦ هـ، استفحل أمره، وعظم شأنه في قبائل «البربر» خاصة في منطقة «نفوس» والمغرب الأقصى، وفي هذا الوقت أيضاً اتخذ قراراً يقضي بشن هجوم على قبيلة «كتامة» الموالية للفاطميين، والقضاء على تحركاتها، ودعمها العسكري لجيوش القائم بأمر الله، ولم تكن «كتامة» قادرة في تلك الفترة على مجابهته، أو الوقوف في وجهه، فاندفع في هجومه السريع، واستولى على «بجاية» و «مرمجنة».

وعندما حاولت «كتامة» التصدي له، اقتحم صفوفها بعنف وتمكن من الإيقاع بها، والتنكيل بشبابها، وشيوخها. وبعد ذلك دخل «سبته» واستولى على «الإربس» ـ وكان وهو في طريقه ينهب المدن، ويخربها، ويعيث فساداً، ويستبيح الأموال والدماء، ويقتل الكثيرين دونما رحمة أو شفقة، كما كان يبيح للجند التصرف بالغنائم والأسلاب. والحرية بفعل ما يريدونه عندما يدخلون المدن فاتحين، وهذا ما شجع الكثيرين وخاصة ذوي الأطماع على الدخول في جيشه سعياً وراء المكاسب وطمعاً بالأرباح....

ولمَّا كان «الإربس» يعتبر الباب أو المدخل إلى العاصمة «المهديّة» فإن سكانها انتابهم الهلع. وخافوا على مصيرهم، ووقوعهم بين يدي رجل ظالم لا يعرف قلبه الرحمة. ومن جهة ثانية فإنهم فقدوا كل أمل لهم بالحياة بعد الانتصارات الحاسمة التي حققها أبو يزيد، والتي

توقفت على بعد خمسة عشر ميلاً عن العاصمة الفاطمية «المهدية»، وكل هذا جدَّد الخوف، والقلق، وأجبر سكان العاصمة على النزوح نحو «طرابلس الغرب» و «صقلية» و «مصر» و «بلاد الرّوم»، لدرجة أنه لم يبق في المهدية إلا الخليفة القائم بأمر الله، وحامية للدفاع أدرك القائم بأمر الله، وهو في موقعه هذا بأنه يمرُّ في أخطر اللحظات المصيرية، وأن دولته أصبحت في مهب الرياح، وهل هناك حالة أخطر من عدو تدق جيوشه أبواب العاصمة، ومن سكان يهرعون للفرار أمام الغزاة؟ من جهة أخرى، فإن الحملات العسكرية التي أرسلها للوقوف بوجه الغزاة لم تستطع الصمود، كما كان من المستحيل عليه استدعاء جيوشه البعيدة التي تحارب في أطراف المغرب الأقصى، لأن مثل هذا التدبير ربما جرّ الدولة إلى كارثة، وقد لا يصل هذا الجيش إلّا وتكون الدولة قد سقطت. ولم يستسلم القائم بأمر الله للأقدار، وإنما أخذ يفكّر، ويطيل التفكير، وأخيراً خرج بفكرة إرسال كتاب إلى «زيري بن مناد» زعيم قبيلة «صنهاجة» الذي كان قد دخل في طاعته... يناديه أن يخف إليه، وأن يبادر إلى إنقاذ الموقف قبل حلول الكارثة الكبرى. وكانت المهدية لا تزال على حالها، فحاميتها أخذت الموقف الدفاعي ببسالة، وتضحية بقيادة القائم بأمر الله، ممَّا اضطرَّ أبو يزيد إلى الانكفاء إلى القيروان.

وصل الكتاب إلى «زيري بن مناد» فأصدر أوامره على الفور بتعبئة جيوشه، وزحف باتجاه القيروان دونما توقف، وعندما أصبح على مقربة من ساحات القتال أمر أبا يزيد بالاستسلام، فلم يرد إليه، وعندئذٍ باشره القتال، ودارت رحى معارك طاحنة لم يشهد المغرب مثل عنفها، وضراوتها. وعلم أبو يزيد منذ اللحظة الأولى بأن الخلل قد تسرّب إلى قلب جيشه، وأن تحقيق الانتصارات بعد هذا أصبح ضرباً من المستحيل، كما أدرك بأن سبب كل هذا هو «الدعاة» الذين بثهم الفاطميون في قلب جيشه، فهؤلاء تمكنوا من التأثير على عدد من القواد والجنود، كما أنهم ألّبوا الجيش على أبي يزيد ممَّا جعل العديد من أفراد هذا الجيش يبادرون إلى الالتحاق بالجيش الفاطمي خالعين طاعة أبي يزيد، نابذين أوامره. ومن الثابت أنه لم يبق تحت طاعته في المعركة الأخيرة سوى قبيلتي «هوَّارة» و «بني كملان».

بعد هذه المعارك العنيفة، اضطرَّ أبو يزيد إلى الاعتصام في مدينة

«القيروان» ولكن زيري ضيَّق عليه قبل أن يتمكن من اتخاذ الخطوات للاعتصام، ممَّا جعله في موقف حرج، ففرَّ إلى الصحراء مع عدد كبير من جيشه الذي هلك أكثره جوعاً وعطشاً..

كان زيري بن مناد من القواد الماهرين الذين أدركوا منذ أن تلقى نداء الخليفة الفاطمي، أن عليه أن يعقد صلحاً مع قبيلة «كتامة» وأن يذكرها بأن واجبها يقضي بتجنيد خيرة رجالها للثأر للقائد الفاطمي (الكتامي) المشهور الذي قتله «أبو يزيد» في معركة «وادي الملح» وهي التي سقط على ساحتها الآلاف من الفاطميين ولكن هل توقف أبو يزيد عند هذا الحد؟

الأمويون يشددون هماتهم

التاريخ لم يبرىء ذمة الأمويين من إيغار الثورات التي قامت في المغرب في عهد الخليفتين الفاطميين عبد الله المهدي، والقائم بأمر الله، كما لم تبرىء ذمتهم خاصة من مساعدة أبي يزيد الخارجي على القيام بثورته، وإمداده بالأموال والمعونات بهدف إزالة الدولة الفاطمية. فخطة الأمويين كما ذكرنا كانت تهدف إلى إسقاط الدولة الفاطمية، وإذا لم يكن ذلك، فعلى الأقل إشغالهم في الداخل بثورات ومؤامرات تحول بينهم وبين التطلع إلى أبعد من حدودهم وخاصة إلى الأندلس.

ومهما يكن من أمر.. فإن أبا يزيد من جهة لم يدخر وسعاً في إقامة أطيب العلاقات بدولة الأمويين في قرطبة، فالرسائل بينه وبين «الناصر» كانت متبادلة وودية، وكانت الوفود والرسل إلى العاصمة الأندلسية ذاهبة آيبة دون انقطاع تنقل الأخبار، وتحمل البشائر.. وبيانات التأييد، وعلامات الخضوع والطاعة. وأرسل أبو يزيد في نهاية المطاف إلى قرطبة وفداً على رأسه ولده «أيوب»، فاستقبله «الناصر» الأموي استقبالاً حماسياً، وأحاطه بالتكريم، وأنزله في قصر الضيافة الملكي معززاً مكرماً.

وبعد أن أقام مدة عاد محملاً بالهدايا، والتحف، والأموال. ولكن ـ هذا الوفد لم يكن الأول ولا الآخر، فقد ذكرنا أن وفوداً عديدة كانت قد سبقته وهي تهدف إلى غاية واحدة، هي تمتين العلاقات، والحصول على التوجيهات. علماً بأن الناصر الأموي أرسل سنة

٣٢٣ هـ. قائده «قاسم بن محمد» إلى «عدوة المغرب» لمحاربة الأدارسة الذين انضووا تحت لواء الفاطميين، عندما تمكن القائم بأمر الله من القضاءعلى ثورة «موسى بن أبي العافية» فاجتاز قاسم هذا البحر ونزل في «سبتة» فلمَّا علم به «أبو العيش بن عمر بن إدريس» خاف على نفسه، فأسرع إلى إعلان الطاعة، وأرسل على الفور ولده «محمد» إلى قرطبة حيث دخل في طاعته، ثم وقَّع معه معاهدة تلزم الأدارسة بالخضوع، والولاء، وإعلان الخطبة في المساجد باسم الخليفة الأموي.

وللدلالة على حرص الأمويين على إثارة الفتن، والقلاقل والثورات في قلب الدولة الفاطمية فإن الناصر عندما بلغه وفاة أبي العيش كتب إلى ولده معزياً، وطلب إليه الحضور لمقابلته، فلبّىٰ، وهناك خلع عليه، وعلى أعضاء الوفد المرافق، وعندما عاد توجه إلى محاربة ابن عمه «عيسى بن قنون» الذي كان قد جنَّد جيشاً من «كتامة» و «صنهاجة» واحتلّ بعض بلدان الأدارسة. فنشب قتالٌ انهزم في نهايته عيسى غير أن ابن عمه لحق به وقتله، ولم يسلم من أصحابه سوى سبعة أشخاص تفرقوا في أنحاء البلاد.

بعد هذه الأحداث هل بالإمكان القول: إن ثورة أبي يزيد الخارجي قد انتهت؟ وهل تمكن القائم بأمر الله من وضع حد للثورات الأخرى التي لم تتوقف ساعة واحدة طيلة إثني عشر عاماً التي قضاها على مقعد الخلافة؟

في الحقيقة: كانت أعواماً مشحونة بالأحداث، والاضطرابات، فالقائم بأمر الله لم يذق طعم الراحة، ولم تترك له الثورات الداخلية سبيلاً لتحقيق ما كان يصبو إليه.

... إن القائم بأمر الله مات وثورة أبي يزيد لما ينطفىء أوارها، فهذه الثورة بعد أن أخمد نارها «زيري بن مناد» الصنهاجي عادت من جديد ولكن بشكل أقوى، وكان أبو يزيد قد لجأ إلى الجبال بعد المعارك الأخيرة.. وهناك أخذ يحث القبائل على الانتساب إلى جيشه داعياً إياها هذه المرة باسم الدين إلى الجهاد.

وأخيراً مات القائم بأمر الله، وطلائع جيش أبي يزيد على بعد خطوات من المهدية... وهذا ما سوف نفصله في الصفحات التالية

عند البدء بكتابة تاريخ الخليفة الفاطمي الثالث الإمام «المنصور بالله».

القائم بأمر الله وصقلية

ذكرنا في الجزء الأول أن الفاطميين أدخلوا في حسابهم منذ أن وطأت أقدامهم أرض المغرب بأن صراعهم مع الروم سوف يكون شاقاً، وطويل الأمد، وأن حروبهم ستكون معارك بحرية في عرض البحار، أو على مقربة من المدن الساحلية، أو الثغور، ولهذا قدروا أهمية البحر، وفاعلية الأساطيل، فأقاموا القواعد البحرية، ونقاط المراقبة على الشواطىء، ووجهوا عنايتهم إلى «صقلية» فحرصوا عليها حرصهم على المهدية، ولم يكتفوا بذلك، بل جعلوها العاصمة الثانية لدولتهم.

وكنا ذكرنا أن عبد الله المهدي استقدم الخبراء من كل مكان، وشرع ببناءالسفن الحديثة، وضمها إلى الأسطول الذي ورثه عن «الأغالبة» وقيل إن عدد قطعاته بلغت في عهد القائم بأمر الله مئتي سفينة، وقيل أكثر...

وكان من أقوى الأساطيل التي عرفتها الدول الإسلامية في تلك الأيام، وكل هذا شجع القائم بأمر الله على مهاجمة بلاد الروم الساحلية، والرد على تحركاتهم المعادية... ففي سنة ٣٢٣ هـ أمر القائم بأمر الله أمير البحر بالهجوم على بلاد الروم، فأغار على «جنوا» واستولى عليها، وعندما وصل إلى «سردينيا» تمكن من إغراق سفن الروم الراسية في المرفأ، وغنم بعضها، وضمها إلى أسطوله الفاطمي، ومن هناك توجه إلى «قرسقة» فحاصرها ودخلها، وبعد قضاء فترة فيها عاد إلى صقلية. ومما يجب ذكره أن أمير البحر في صقلية كانت لديه أوامر عليا تقضي بأن لا يهادن، ولا يفاوض، ولا يتوقف. وأن يعتبر نفسه في حرب مستمرة مع الروم.

لقد كانت هذه المواقف الهجومية العدائية من قبل الفاطميين سبباً في حمل الروم على اللجوء إلى الأمويين في الأندلس، وبالفعل عقدوا معهم أكثر من معاهدة للتعاون في سبيل إيقاف المد الفاطمي عند حد من الحدود، وقد اعتبر بعض المؤرخين إقدام الأمويين على هذه الخطوة لطخة عار في تاريخهم.

نظرة إلى مصر

عند العودة إلى الحديث عن مصر نقول: إن الخليفة الفاطمي الثاني «القائم بأمر الله» لم يتمكن من احتلال مصر، وقد مرَّ معنا أنه جهَّز جيشاً كبيراً، وأرسله إلى برقة للتمركز فيها بانتظار الفرصة التي تسنح له بالغزو، ولكنه لم يلبث أن استرجع هذا الجيش عندما تـأزمت الأحوال الـداخلية، وانـدلعت الثورات، وكـانت الأحوال الاقتصادية لا تسمح للدولة الفاطمية بنفقات جديدة تضاف إلى النفقـات المطلوبـة لثورات «ابن أبي العـافيـة» و «الـزنـاتيـين» و «الخوارج» تلك الثورات التي جعلت خزينة الدولة تنوء تحت عجز ثقيل يصل إلى حد ما يشبه الإفلاس.

كانت مصر في تلك الفترة تخضع إلى «محمد بن الإخشيد» وكان مرتبطاً بالمظهر بالدولة العباسية، فكتب إليه القائم بأمر الله كتاباً أظهر فيه رغبته بالتقرب منه، وبالتعاون معه، ويُروى أن الإخشيد تريث في الردّ عليه، ولكن العباسيين علموا بما يخطط لهم الفاطميون، وبما يدبرونه في الخفاء لإيجاد علاقات طيبة مع الإخشيديين، وهذا ما دفعهم إلى إرسال القائد العباسي «محمد بن رائق» مع الأوامر العليا إليه، وتفويضه بالقضاء على التحركات المعادية كافة، وما كاد يصل مصر، ويباشر مهمته حتى أعلن الإخشيد الثورة الشعبية على العباسيين، وقطع الخطبة التي كانت تلقى باسم الخليفة في المساجد، وأمر بالاستعاضة عنها بذكر اسم الخليفة الفاطمي القائم بأمر الله، ولكن هذا لم يستمر طويلاً، لأن العباسيين اتبعوا سياسة اللين، والمجاملة، وإغداق الأموال والعطايا على الإخشيد، حتى أعاد كل شيء إلى سابق عهده... وهذا هو كتاب القائم بأمر الله إلى الإخشيد بنصه الحرفي:

قد خاطبتك في كتابي المشتمل على هذه الرقعة، بما لم يحز في عقد الدين، وما جرى به الرسم من أنصار يُستجلبون، وضمنت رقعتي ما لم يطلع عليه أحد من كتابي وذوي المكانة عندي، وأرجو أن تردك صحة عزيمتك، وحسن رأيك إلى ما أدعوك إليه، فقد شهد الله على ميلي إليك، وإيثاري لك، ورغبتي في مشاطرتك ما حوته يميني، واحتوى عليه ملكي، وليس يتوجه لك العذر في التخلف عن إجابتي لأنك قد استغرقت مجهودك في مناصحة قوم لا يرون إحسانك، ولا يشكرون إخلاصك، ويخلفون وعدك، ويخفرون ذمتك، ولم يعتقد من أحد حسن المكافأة، ولا جميل المجازاة، وليس لك أن

تعدل عن منهج نصحك، وإيثار من آثرك إلى من يجهل موضعك ويضيع حسن سعيك.

وأنا أعلم أن طول العادة في طاعتهم قد كره إليك العدول عنهم، فإن لم تجد من نفسك معونة على اتباع الحق، ولزوم الصدق، فإنني أرضى منك بالمودة، والأمر، والطاعة حتى تقيمني مقام رئيس من أهلك تسكن إليه في أمرك، وتعول عليه بمثل ذلك، وإذا تدبرت هذا الأمر علمت أن الذي يحملني على التطأطؤ لك - وقبول - الميسور منك، إنما هو الرغبة فيك، وأنت حقيق بحسن مجازاتي على ما بذلته، والله يريك حسن الإختيار في جميع أمرك، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الخليفة الفاطمي الثالث الإمام المنصور بالله الثالث عشر

اسمه اسماعيل، لقبه «المنصور بالله» كنيته «أبو طاهر» وكان يغتبط عندما ينادونه «إسماعيل» تيمناً بجده الأكبر... ولد في مدينة «القيروان» سنة ٣٠٢ هـ. وليس في «المهدية» كما ذكر. تولّى الخلافة والإمامة بعد وفاة والده - «القائم بأمر الله» سنة ٣٣٤ هـ، وكان في الثانية والثلاثين، ومات في «المنصورية» سنة ٣٤١ هـ فيكون قد عاش تسعة وثلاثين عاماً، أمضى منها سبعة أعوام على مقعد الخلافة الفاطمية.

ورد اسمه في التاريخ محاطاً بهالة من المدح والإطراء. فقيل عنه إنه كان شاباً وسيماً، يمتلك القوة، والرجولة، والبراعة في القتال، وفي عمليات الكر والفر... طموحاً.. عالي الهمة، عزيز النفس.. شعاره في الحياة.. الصدق، والصراحة، والوفاء، والثقة بالنفس.. . كل هذا إلى جانب ثقافة واسعة، وفصاحة مرموقة، وكان شاعراً رقيقاً، وفيلسوفاً، وعالماً بالنجوم، وخطيباً مفوهاً يرتجل الكلمات، وعبارات الحماسة التي تقربه من قلوب الناس، ومن المحاربين الذين سيطر على مشاعرهم أثناء حروبه، وامتلك محبتهم بفصاحته، وبيانه، وقوة منطقه، وكان يباشر الحروب بنفسه، ويقود الجنود إلى ساحات القتال، ويعطي الخطط الصائبة في الميادين، ولم يعرف عنه أنه خسر معركة، أو انهزم أمام فارس، كما أنه لم يسمح لقائد من قواده أن يتقدم عليه، أو يتسلم قيادة أثناء وجوده.

لم يذكر التاريخ إلا القليل جداً عن طفولته وشبابه. وكل ما عرف عنه أنه عاش في كنف والده.. «القائمبأمر الله»، وعاصر الأحداث، والثورات التي اندلعت في أنحاء الدولة. فكان كثيراً ما يلحُّ على والده بالسماح له بالخروج لخوض المعارك، ولكن الوالد البار كان يخاف عليه من اندفاعه الشديد، ومن حماسه الذي لا يقف عند حد، ولهذا وقف بوجه تطلعاته، وطموحه.

ومن المعروف عنه، أنه كتم خبر وفاة والده «القائم بأمر الله» عن كل الناس مدة ثلاثة أعوام خوفاً من ردة فعل، وحتى لا تؤثر الصدمة على أفراد الجيش الذي كان يحارب في الأقاليم الثائرة البعيدة. إن

المصادر الإسماعيلية أكدّت: بأنه دفن والده «القائم بأمر الله» في فناء القصر سراً، وظل في مقام الرئاسة كولي للعهد وذلك طيلة ثلاثة أعوام، وعندما تمكن من القضاء على ثورة «الخوارج» وإعادة الأمور إلى طبيعتها أعلن الحقيقة على الشعب.

«الدولة الفاطمية بعد القائم بأمرالله»

ذكرنا في الصفحات السابقة المزيد عن ثورة أبي يزيد الخارجي التي اندلعت في عهد الخليفة الثاني القائم بأمر الله، وقد ذكرنا كيف دقّ هذا الثائر العنيد الجبار أبواب عاصمة الدولة الفاطمية «المهدية».

والجدير بالذكر إن ثورة الخوارج لم تكن كباقي الثورات الأخرى التي قامت في شمالي أفريقيا.. إنها الثورة التي كانت تهبُّ مرة في جهة ثم تخمد لتعود إلى الظهور في منطقة أخرى وهي أشدّ عنفاً واندفاعاً. والحقيقة... فهذه الثورة لم يألفها أهل تلك البلاد، لأنها من الغرابة بمكان، فتارة كانت تنبعث في أطراف المغرب الأقصى، ثم لا تلبث أن تنطفىء لتهب من جديد في مناطق «كتامة» و «صنهاجة».. وأحياناً في الصحراء.. في رقادة أو القيروان أو سوسة أو على أبواب المهدية وأخيراً في الجبال حيث القلاع، والمعاقل، والحصون، وهكذا دواليك، وكل هذا أوجد جواً مكفهراً مليئاً بالتشابك والتعقيد، بالنسبة للخليفة القائم بأمر الله، أو للقواد الذين يحاربون تحت رايته، ناهيك عن أن الأدارسة في المغرب الأقصى كانت أحوالهم غير مستقرة، وغير مطمئنة. فالبلاد الخاضعة لهم كان يتقاسمها عدد من الأمراء منهم من يوالي الفاطميين مرة ثم يعود إلى أحضان الأمويين مرّة أخرى ، وهذا فضلاً عن تحركات الزناتيين، وثورتهم المعادية التي اندلعت بقيادة «محمد بن خزر» وهذه كانت تشكل سنداً أو رديفاً لثورة الخوارج، وأهم من كل ما ذكرناه ذلك الوضع الذي كان يحتم على عددٍ كبير من جنود الكتاميين والصنهاجيين البقاء في المدن الرئيسية للحفاظ عليها من الغارات والهجمات، ولعل كل هذا كان من الخطط المدبرة التي سهر عليها، ونفذها بدقة وعناية الأمويون في الأندلس.

كان المغرب، أو البلاد التي تحكمها الدولة الفاطمية في ذلك العهد

كالأتون تغلي مراجله، فليس فيها منطقة أو جهة تنعم بـالهدوء والاستقرار حتى «المهدية» عاصمـة الدولـة فكانت واقعـة تحت الحصار، ومهددة بالسقوط، ومن الواضح أن القائم بأمر الله مات وعاصمة دولته مطوقة، وإذا لم يكن الأمر كما ذكر، فعلى الأقل كانت جيوش أبي يزيد على مقربة منها، وكان بالإضافة إلى ذلك يمتلك القدرة لاحتلالها بسهولة، ولكن حتى الآن لم يذكر التاريخ سبباً لتقاعسه، وقد اعتبر الخبراء ذلك التقاعس خطأً عسكرياً، وقع فيه هذا الثائر العنيد. وممّا يجب أن يذكر بأن كل هذا كان سبباً رئيسياً حرّك الخليفة المنصور بالله، ودفعه للخروج بنفسه لمباشرة القتال حاملاً صفة «ولي العهد» معلناً بأن خروجه، وتسلمه شؤون القيادة تمَّ بأمر الخليفة «القائم بأمر الله» المريض، فعاهد الله والشعب ألا يعود إلى عاصمة ملكه «المهدية» إلاَّ بعد أن يستأصل الداء العضال، ولهذا اختار لمعاونته أقوى المحاربين والقواد من كتامة وصنهاجة فنظّمـهم في ألوية، وكتائب، وقسمهم إلى فرق، وأقام عليهم القواد الشباب المتحمسين الذين يتحلون بالمعنوية والإيمان والثقة، وكان إقدامه على تسلم القيادة باعثاً لإذكـاء الحماسة في صفوف الجند الذين أكبروا شجاعته وإقدامه وتضحيته بنفسه، ومن جهة ثانية، فقد ترك لزيري بن مناد مهمة التصدي لحرب الزناتيين، وإطفاء لهيب ثورتهم الكبرى في المغـرب الأقصى، وهكذا انقسم الجيش الفاطمي الواحد إلى جيشين ، وبدأت العمليات العسكرية على نطاق واسع، وخاصة لدى جيش المنصور بالله، الذي أوجد الأساليب الحديثة وطبّقها في العمليات العسكرية، وحضّ على النظام والطاعة، وتنفيذ الخطط الحربية بدقة، كما منع الفوضى والاستقلال بالرأي لدى القواد، وحارب الأساليب العشائرية القديمة التي كانت سائدة، والتي كانت سبب تراجع الجيوش الفاطمية في أكثر المعارك الأخيرة.

فالمنصور بالله المحارب الجريء أدرك منذ اللحظة الأولى أن الجيوش الفاطمية لا يمكن لها تحقيق أي انتصار، أو إحراز أي تقدم في الميادين إلا بعد أن تنزع عن الجيش الصفات القبيلية، وأساليب القتال القديمة، ومن هنا انطلق إلى تنظيم جيشه وتقسيمه إلى كتائب للهجوم، وأخرى للدفاع، وبعضها للاستطلاع، واضعاً نصب عينيه نظام الجيوش المتحضرة الحديثة المحاربة، وكل هذا كان يقابله

جيش للعدو تسيطر عليه روح الفوضى والعشائرية، والإقليمية، فلا خطط عسكرية محكمة ولا نظام، ولا طاعة.. لا كتائب ولا ألوية، ولا قواد مسؤولين، بل جيش كثيف من عناصر مختلفة يؤلف بينها حب الغزو، والنهب، والاستيلاء على المغانم، والأسلاب... جيش يأتمر بأمر رجل واحد مهمته السيطرة على البلدان وتسلم زمام زعامة دينية، وقتل الآمنين، والسرقة والنهب، والعيث فساداً في كل مكان. وهذا ما سهل اندحاره في المعارك، وبدد شمله.

«الخليفة المحارب»

دخل رجل من قبيلة «كتامة» على الخليفة الفاطمي الثالث المنصور بالله، وكان في إحدى قاعات قصره المنيف في مدينة المهدية يلاعب سلحفاة فقال:

يا مولاي... رأيت أبا يزيد الخارجي صاحب الحمار يضرب برمحه باب المدينة الغربي، فاستغرق المنصور في الضحك وقال:

أو قد فعلها..؟ إنه لن يعود ثانيةً، وسوف أعلق جثته على الباب الغربي، وفي المكان نفسه الذي دقَّ فيه رمحه... فاذهب وبشر كل من تراه عينك...

ثم عاد لملاعبة السلحفاة، وكأن شيئاً لم يحدث. مات والده القائم بأمر الله، وهو يرسل نظراته الأخيرة إليه... مات وآثار الحزن تطغى على قسمات وجهه، ذلك الوجه الذي لم يكن يوماً إلا ضاحكاً مستبشراً... مات وعيناه المعلقتان به تودان أن لا تتحولا عنه، لكي تعبرا له عما يختلج في داخله من الأسى لهذا الفراق المبكر... مات وهو يعلم أن دولته الفاطمية التي كرس حياته لها، وسهر على بناء قواعدها، وأمنها، واستقرارها، أصبحت على شفير الهاوية. فالثورات تهب في أرجائها، والانتفاضات تعصف في بنيانها، والعواصف والأنواء تكاد أو كادت تزعزع أركانها، وتدك معالمها.

مناطق عديدة انفصلت عنها، واستقلّت، وبلدان، ومدن كبرى وصغرى انضمت إلى الثائرين، ورفعت أعلامهم، وقبائل عديدة استسلمت للثائرين دونما قتال خوفاً من السيوف المسلطة على الرقاب، وبعد أن فقدت كل أمل بالحماية، وبإرسال الإمدادات، والمعونات، وبين هذا وذاك أو بين عشية وضحاها، أصبحت خزائن الدولة خالية خاوية، فلا موارد، ولا ضرائب تدفع للدولة، والجيش

المحارب أخذ يشكو ويتظلّم من قلة الموارد والمعاش. وأنّى له أن يحصل على شيء من هذا، وعاصمة الدولة الفاطمية تطوقها خيول المغيرين، وتدق أبوابها رماح الثائرين.

كل هذه المشاهد والهواجس عرضت أمام القائم بأمر الله، وهو على سريره، وفي ساعاته الأخيرة، وممّا زاد في آلامه معرفته أن أمور الدولة ستؤول تلقائياً إلى ولـده، وولي عهده، «المنصـور بالله» ، والمنصور لا يزال في سن الشباب، لم تعركه الأيام، ولم يسبق له أن تمرّس على أساليب الحكم، وإدارة شؤون الدولة، أو عرف السياسة كما لم يتسنّ له أن خاض غمار الحروب، أو قاد الجيوش في الميادين أو خبر أسرار القتال. فماذا يستطيع أن يفعل وهو أمام الأحداث الرهيبة العاتية، وكيف سيخرج من هذه الأزمات المتلاحقة، ويجابه القوى الجبارة التي انبثقت من كل جهة مهددة منذرة؟

المعركة الأولى

اتخذ أبو يزيد الخارجي من مدينة «القيروان». عاصمة لثورته، وقاعدة حربية وميداناً للتدريب وللتعبئة. فكان يغير منها على المدن والقرى الأخرى في المغرب الأوسط.. وسبق أن ذكرنا أنه احتلها في عهد الخليفة الفاطمي الثاني القائم بأمر الله، وبالنسبة إليه فقد جعل مكان إقامته مدينة «رقادة » التي تبعد عن القيروان أربعة عشر ميلاً.. ولعلّ أبا يزيد استطاب الإقامة في هذه المدينة الصغيرة الجميلة ذات البساتين النضرة والمياه العذبة، والهواء العليل، وقد ذكر بأنه ليس هناك أكثر اعتدالاً من مناخها، ولا أطيب تربة منها. أما جيوشه الجرارة فقد نصب لها الخيام، خارج أسوار المدينة، وذلك لصيانتها من الوقوع تحت الحصار، وكان أبو يزيد وهو في مقره يعتبر بأن الدولة الفاطمية أصبحت في طريقها إلى الانهيار، وإنه لن يقوم لها قائمة بعد الآن، وكان استخفافه بارزاً عندما علم باستلام المنصور بالله قيادة الجيوش الفاطمية، فارتاب في نجـاحه في المكان الذي فشل فيه والده القائم بأمر الله، وهكذا استسلم للراحة وللأمان، واكتفى بإرسال الإمدادات إلى «الزناتيين» وإقامة الاتصال بهم، وتوحيد الأهداف، ومرامي القتال. وكنا قد ذكرنا أن الزناتيين كانوا يقاتلون «زيري بن مناد» أمير صنهاجة في أطراف المغرب الأقصى، ولم يكن يدور بخلده أن المنصور بالله قد أعدَّ حملة كبرى

من محاربي «كتامة» و «صنهاجة» للانقضاض عليه، وأخذه على حين غرة.

قام المنصور بالله بدراسة أوضاع جيش أبي يزيد من مختلف الجوانب، فأدخل في حسابه قوة هذا الجيش وكثافته واستعداده، وعرف أن هزيمته قد لا تتم بسرعة إلا إذا فوجىء بجيش منظم يقوم بعملية حربية خاطفة مفاجئة تهدد كيانه، وتزعزع وجوده، وتسد عليه منافذ الهرب، وتقعده عن خوض معركة ثانية. وبالفعل ظل المنصور مدة تقارب الثلاثة أشهر، وهو يعد جيشه، ويرتبه، ويمرنه على أساليب القتال الحديثة، وعلى حرب الإنقضاض والمباغتة، وعندما أنجز كافة الإستعدادات بحذر وسرية تامين أمر جيشه بالإنطلاق من «المهدية» باتجاه «القيروان» عند غروب الشمس، وفي الهزيع الأخير من الليل، وصلت طلائع جيشه إلى مشارف القيروان، فأعطى أوامره بأن ينال الجند قسطاً من الراحة، وأن يتزودوا بكل ما يحتاجونه استعداداً لمعركة تدوم النهار بطوله، وبعد انقضاء فترة راحة دامت حتى الفجر... أعطى أوامره للجيش بالإنقضاض على معسكر أبي يزيد ، وكان هذا الجيش مستسلماً للنوم يحلم بأن النصر قد تحقق أوكاد، فلم يشعر إلّا والخيول المغيرة تنقض على المخيمات لتدوس بحوافرها النائمين، واشتعلت النار بالمخيمات، فأخذ الخوارج ينهضون لإطفاء النيران، بل إن بعضهم لم يتمكن من النهوض أو الخروج للوقوف بوجه الجيوش التي راحت تدك معاقلهم. أما أبو يزيد فكان في رقادة يغط في نومه غير حاسب أي حساب لمثل هذه المفاجأة الغريبة. فالأخبار كانت تأتي إليه بأن المنصور بالله في المهدية يقيم بقرب والده القائم بأمر الله، وإنهما عاجزان عن القيام بأي عمل عسكري خاصة. فليس لديهما سوى حامية صغيرة أعدّاها للدفاع عن المدينة.

أجل.. انقضّت جيوش المنصور بالله على خيام جيش أبي يزيد المنتشرة في سهول القيروان... انقضّت كالعقبان، وكالبرق الخاطف، فذهب بعضها طعماً للنيران، بينما الفرق الأخرى من جيش المنصور بالله رابطت في الأطراف، وسدت منافذ الهرب، وخرج أخيراً أبو يزيد من مخبئه مع حامية رقادة، وقصده إنقاذ الموقف، والتصدي للمغيرين، ولكن المنصور بالله أعدَّ قوة خصصها للإقامة

والترحيب به على أبواب المدينة الجميلة، ولما أدرك أن زمام الأمور قد أفلت من يده، أسلم ساقيه للريح، وولّى هارباً مع بعض قواده، وأركان حربه، وجعل وجهة سيره «سوسة» المدينة الواقعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وكان قد احتلها ورفع أعلامه على شرفات مبانيها.

هذه المعركة التي انجلت ضحى اليوم تحدث عنها المؤرخون بإعجاب، فوصفها بعضهم بأنها من المعارك الخالدة في تاريخ المغرب، فهي التي فتحت صفحة اليأس والهروب في حياة أبي يزيد، وجعلته في حالة من القلق واليأس - والارتباك، لا سيما بعد أن علم بأن عدد الضحايا من جيشه في معركة القيروان تجاوز العشرات من الألوف.

أمَّا المنصور بالله، فإنه دخل القيروان ورقادة وأمَّن أهلها، وقبض على كل أعوان أبي يزيد، ثم أخذ يعيد تنظيم جيشه، ويوزع الأسلحة والخيول والعتاد التي غنمها على أفراد الجيش الظافر استعداداً للمعارك المقبلة.

«صدى الانتصارات»

عمَّت أخبار معركة «القيروان» أفريقيا الشمالية بسرعة، وتناقل الناس أخبار الانتصار السريع الذي حققه المنصور بالله، فعمَّ الفرح والاطمئنان أوساط كتامة وصنهاجة خاصة، ولكنه خلق حالة من الخوف والهلع في صفوف الزناتيين، ومن يسير بركابهم، بينما هرع الفريق المتردد الذي كان قد اتخذ خطة الحياد من الأحداث، إلى الانضمام إلى الخليفة المنصور بالله، وإعلان الولاء والطاعة، أما «زيري بن مناد» زعيم صنهاجة وقائدها الذي كان يخوض حرباً مريرة ضد الزناتيين، ومن يعاونهم في المغرب الأقصى، وخاصة الأدارسة، فقد تلقى أخبار المعركة بسرور بالغ بعث فيه القوة، والشجاعة، والأمل، والرجاء، بأن الانتصار الأخير سيكون للمنصور بالله. وبالنسبة للحرب بين صنهاجة وزناتة، فإنها كانت حرب سجالٍ طويلة الأمد، أو قل حرب كر وفرَّ والدليل أن أحداً من الفريقين لم يستطع تحقيق أي انتصار حاسم مضافاً إلى كل ذلك إنها الحرب التي أنهكت خزانة الدولتين الفاطمية، والأموية، وأوردتهما مورد الإفلاس بسبب استنزافها أكثر الأموال الاحتياطية.

ومهما يكن من أمر.. فإن بلاد الأدارسة في المغرب الأقصى كانت منقسمة على نفسها، ويحكمها أفراد من هذه الأسـرة، وأكثرهم خضع لنفوذ الأمويين، وخاصة بعد أن ساءت أحوال الدولة الفاطمية، ولم يكن «زيري بن مناد» بقادر على التحكم، أو فرض سيطرته عليهم لأنهم كانوا يعيشون حياة غـير مستقرة تخضـع للظروف وللمفاجآت، أو بلغة أصح لميزان السعود، والنحوس، فهم تارة بين أيدي الفاطميين يرفعون أعلامهم، وينادون باسمهم، وتارة تحت سلطة الأمويين يحملون شعاراتهم، ويتلقون المساعدات منهم، ولكن واقع الأحوال يدل على أن ذلك الوضع لم يكن مقدراً له الإستمرار طويلاً خاصةً بعد ظهور المنصور بالله بهذه القوة العسكرية الجبارة التي قلبت الموازين. وكان من الطبيعي أن يدخل الرعب والرهبة إلى قلوب الأدارسة، وأن يجعلهم يحسبون للمستقبل، ولعلاقاتهم مع الفاطميين ألف حساب، وليس غريباً بعد ذلك أن يبادر بعضهم إلى الاتصال سراً بالفاطميـين، وإعلان النـدم، والمطالبـة بالإسـراع بتخليصهم من حالتهم التي يعيشونها..

«تدابير منصورية» في صقلية

هذه الجزيرة الكبرى المهمة، التي عرفت في التاريخ بأنها إحدى قواعد الإمبراطورية الرومانية، والتي اشتهرت بأنها ظلت تحت حكم الرومان حتى فتحها «الأغالبة» سنة ٢١٢ هـ. على يد «أسد بن الفرات» قاضي «القيروان»، وذلك في عهد المأمون العباسي، بجيش قدر عدده بتسعمائة فارس وعشرة آلاف راجل... هذه الجزيرة التي تعتبـر أهم جزر البحـر الأبيض المتوسط، والتي وصفت بكثـرة خيراتها، ومناخها وجمـالها، وبعـدد مدنهـا الثلاث والعشـرين، وبحصونها، وقلاعها، وجبالها، وبعاصمتها «بلو»... هذه الجزيرة بعد وفاة الخليفة الفاطمي الثاني القائم بأمر الله، عادت تنفض عن جفونها غبار الهدوء والاستقرار. فالعناصر والطوائف المختلفة فيها أخذت بالتأهب، وإعداد نفسها للثورة، وخاصة بعد الأنباء التي تسربت إلى مجتمعاتها عن ضعف الدولة الفاطمية، وقيام الثورات العنيفة في جميع أنحاء الدولة، ولم تشغل الحروب الضارية المنصور بالله عن التفكير بجزيرة صقلية وإعطائها ما تستحقه من اهتمام.

وكنا ذكرنا في الجزء الأول من هذه الموسوعة بأن الخليفة الفاطمي الأول عبد الله المهدي قد سنَّ لهذه الجزيرة ذات الأهمية الحربية نظاماً يقضي بأن يكون إلى جانب واليها، وبصورة دائمة جيش احتلال قوي يدفع الأخطار عند اللزوم، ويثبت دعائم الأمن، ويقضي على المؤامرات، والحركات الثورية... أي أن يوضع هذا الجيش تحت إمرة الوالي، يوجهه حين يشاء، وإلى أي مكان يشاء، وعلم المنصور بالله بكل ما يجري في الجزيرة، بل علم بأن الأيادي الأموية امتدَّت إلى القاعدة البحرية الفاطمية ، تبذل الأموال، وتغري المواطنين، بإعلان الثورة، والمطالبة بالإستقلال... من هنا كان لابد للخليفة المسؤول المنصور بالله من اتخاذ تدابير جديدة، فعيَّن «الحسن بن علي الكلبي» حاكماً على الجزيرة، وأميراً للبحر، وللأسطول، وزوَّده بكافة الصلاحيات والإمكانيات ، وهذا القائد المغربي المجرَّب المخلص للفاطميين، وكان إلى جانب إخلاصه قائداً بحرياً مدرباً، وخبيراً بمواقع البحر، وبقيادة الأساطيل. فجاء إلى الجزيرة واتخذ مكانه فيها بقوة، بعد أن استحصل من المنصور بالله على أمر يجيز له مهاجمة المدن الرومانية الواقعة على شواطىء البحر الأبيض المتوسط.

وما كاد الحسن يتسلَّم مركزه في القاعدة المذكورة حتى اندلع نزاع طائفي وديني بين المسلمين والمسيحيين، وتفاقم إلى اشتباكات مسلحة بين الطرفين، كان يسقط من جرائمها الكثير من الضحايا كل يوم. ولما كان المسلمون قد سيطروا على الموقف، فإن المسيحيين قد اغتنموا الفرصة، وأرسلوا وفداً من رجال الدين إلى روما والقسطنطينية، واتصل بأباطرة الدولة البيزنطية، وأطلعهم على ما يلقونه، وما يتعرضون إليه من الضغط الإسلامي، وأن الحاكم العام للجزيرة متحيز للمسلمين، وأن جنوده يقاتلون في بعض الأوقات إلى جانب المسلمين.. وبالفعل استجاب الإمبراطور قسطنطين الثامن لنداء رجال الدين، وأمر بتجهيز حملة بحرية قوية لم تلبث أن أبحرت باتجاه الجزيرة تحت اسم حماية المسيحيين، فتصدَّى لها الكلبي. ودارت معركة بحرية على الشواطىء بين الأسطولين، تمكن في نهايتها الكلبي من إحراز النصر، وإغراق أكثر السفن الرومانية قبل أن تتمكن من إنزال جيوشها على الأرض، وهكذا أُرغم

الإمبراطور على طلب الصلح، فقبل الحسن، ووقع معاهدة معه... ولكنها لم تستمر طويلاً. وفي تلك الفترة غنم الحسن مبالغ كبرى من الأموال فدية للأسرى الروم الذين وقعوا بين أيدي جنوده ولم يتوقف الكلبي عن حرب الروم خاصة بعد أن نقضوا المعاهدة. فكان يوجه أسطوله من حين لآخر للإغارة على مدن جنوب إيطاليا. وكان يسير من نصر إلى نصرٍ خاصة في معاركه مع أباطرة الدولة الرومانية الشرقية الذين اشتركوا في أكثر المعارك انتصاراً لإخوانهم الغربيين، وفي ذلك الوقت أيضاً تمكن الحسن من إخضاع «قلورية» وإعادتها إلى الحكم الفاطمي.

كانت خطة الإمبراطور الثامن قسطنطين تهدف إلى تحقيق انتصارات في المغرب تعادل الانتصارات التي حققها في المشرق على العباسيين والحمدانيين، ولكنه كان يصطدم بوجود الأسطول الكبير الذي يقوده الحسن الكلبي، يضاف إلى ذلك سهره ويقظته، واستعداده، وخبرته بفنون القتال البحري، وكل هذا أحبط مساعيه وجعله في شك من تحقيق أي انتصار في صقلية.

وجملة القول: فإن تعيين الكلبي حاكماً على صقلية كان اختياراً موفقاً بحيث اقترنت انتصاراته بانتصارات المنصور بالله على الخوارج، وكل هذا أفسح المجال أمام الدولة الفاطمية لاستعادة سمعتها ومكانتها ومعنوياتها سواء في عهد المنصور بالله، أو في عهد ولده الخليفة الرابع «المعز لدين الله».

«معارك سوسة»

معركة سوسة بين المنصور بالله، وبين الخوارج أتباع أبي يزيد كانت طويلة الأمد ومريرة ، وقاسية دامت أكثر من عام بين كر وفر، وخمود وهبوب. فهذه المعارك كانت تهمد. وتهب، ثم تتجدد كما قلنا، وكلما حاول المنصور بالله حسم الموقف، تأتي قوة جديدة من الأقاليم الأخرى لتحارب الفاطميين.

أجل.. لم يستطع المنصور بالله بالرغم من تفوقه في ميادين القتال وسيطرته على الأجواء في كل المعارك التي خاضها، أن يضع حداً نهائياً للأساليب الثعلبية التي كان يتبعها خصمه بالتراجع حيناً، وبالاعتصام وراء الأسوار حيناً آخر، وخاصة عندما كان يرى تفوق

خصمه عليه. ومن الغريب أنه في بعض الأحيان رغم خسارته واعتقاده بالخسران فإنه كان يتصدى ويباشر الهجوم من جديد..

ضاق صدر المنصور بالله، وأدرك أن الأمر طال، وأن البقاء على هذا الوضع معناه الدمار بعينه، فهذه المعارك الاستنزافية تهدر القوى، وتقضي على الإمكانيات، ثم تجعل الجيش في خاتمة المطاف في حالة من اليأس والملل، ومن جهة ثانية فإن أبا يزيد شعر أيضاً بأن التذمر قد بدأ يتسرب إلى صفوف قواده وجنوده بسبب هذه الحالة التي ليست حرباً ولا سلماً، وهذا ما دعاه إلى وضع خطة حربية جديدة ضمنها خدعة اعتقد بأنها تكفل له النصر الحاسم، فقسَّم جيشه إلى فرقتين: أوكل إلى الأولى مباغتة جيش المنصور بالله بهجمة ثأر كما جرى في القيروان، وإلى الثانية الزحف إلى القيروان واقتحامها، وقطع الطريق على المنصور بالله، وبهذا يكون قد وضعه أمام نارين لا يستطيع الإفلات منهما، وبعد أن أعدَّ للأمر عدته. أمر جيشه بالهجوم على حين غرة، ولكن المنصور بالله المتيقظ، والقائد الذي أعدَّ للأمر عدته استقبل هذا الجيش المندفع بالسيوف والرماح، وفي خلال ساعات جعله يتراجع ويتخذ خطة الدفاع بدل الهجوم، وانتهى به الأمر أخيراً إلى التطلع إلى طريق يمكنه من النجاة، والعودة إلى «سوسة» وفاته أن المنصور بالله قد أمر أسطوله المرابط في المهدية بالتوجه إلى سوسة وإنزال الجيش الصقلبي فيها واحتلالها، وهكذا لم يجد جنود الخوارج في آخر المطاف بدأ من الهرب باتجاه البراري والقفار. أما الجيش الذي ذهب إلى القيروان فقد تلقته الحراب أيضاً، وأعملت فيه طعناً وذبحاً حتى لم يسلم منه إلا قلة أطلقت سيقانها للريح. ومن الجدير بالذكر أن جيش الخوارج كان يشكو من التعب والإجهاد فلم يستطع الصمود، وذهب أكثره ضحية الجهل في أساليب القتال، أما الذين فروا وفي طليعتهم أبو يزيد فقد فضلوا الذل والعار على الموت في الميادين.

وفي نهاية المطاف... لم يعرف أحد شيئاً عن مصير أبي يزيد، وكل ما عرف عنه أنه فرَّ من المعركة مع بعض رجاله، واتخذ طريق الجبال، ولكن الخليفة المنصور بالله كان يدرك أن بقاء أبي يزيد حياً معناه بقاء الأفعى تسرح وتمرح، ثم تعود إلى الظهور عند حلول الفرصة السانحة، ولهذا قرَّر اللحاق به بعد إعادة تنظيم جيشه وإعادة

الاطمئنان والأمن والاستقرار إلى المدن والقرى التي عـانت من الحروب، والدمار، والهجرة، وللحقيقة فالمنصور بالله لم يكن راضياً عن كل ما حققه ما دام أبو يزيد حياً يرزق.

لقد فتحت معارك سوسة صفحة ناصعة في تاريخ الحروب المغربية، وقويت محبة المنصور بالله في قلوب الجيش والشعب، وجعلت أكثر الناس تعتقد بأنها النهاية والنتيجة لأبي يزيد الثائر العنيد الذي شغل الدولة الفاطمية قرابة عشرة أعـوام، فحرمهـا من الهدوء والاستقرار، وهدّدها بالدمار وكاد يقضي عليها لولا خطيئته العسكرية التي ارتكبها. ولولا المظالم التي كان جيشه يقترفها بأمر منه في كل مكان حلّ فيه. وهذا بلا شك من الأسباب التي جعلته يلاقي مصيره الأسود.

في القلاع والحصون: نهاية أبي يزيد

.. نجح «المنصور بالله» في دك قوى الخوارج، وتمزيق قواهم إرباً إرباً في معركة سوسة الأخيرة. فدبّ الذعر في باقي القوات الثائرة التي كانت تتمركز في بعض المناطق والمدن، وركنت إلى الفرار ملتحقة بأبي يزيد، وبعضها قد تفرّق عنه مؤثراً الفرار على حرب غير مأمونة النتائج. أما أبو يزيد فارتد مع نفر من صحبه، كما ذكرنا، إلى شعب الجبال حيث المعاقل، والحصون، والقلاع. فبسط سلطانه، وسيطرته عليها، وهي الجبال الموازية للساحل، أو الجبال الداخلية التي تمتد حتى منطقة النجود العليا، بحيث تبدو أكثر ارتفاعاً، ووعورة، وتكثر على مقربة منها الأراضي الصخرية الجـرداء، والكثبان الـرملية، والأودية الجافة، والهضاب الصخرية العسيرة المسالك.

لقد التجأ أبو يزيد إلى قلب تلك المنطقة المنعزلة، وأقام في إحدى القلاع الحصينة التي عرفت فيما بعد بقلعة «أبي يزيد» أو قلعة «كتامة» ، فكان يصدر منها أوامره، ويعبىء قواته، ويرسل جيوشه لقطع الطرقات ، والقيام بأعمال التخريب، وكأن شيئاً لم يحدث له، وكل هذا حفز المنصور بالله على اللحاق به إلى تلك المنطقة والبدء بأعمال الحرب المعروفة بحرب القلاع والحصون: .. من قلعة إلى قلعة... ومن حصن إلى حصن... من جبل إلى واد... بل من قمة إلى قمة.

كانت حرباً غريبة لم يألفها أحد من القواد من قبل، فكم هي شاقة وعسيرة مهاجمة الحصون والقلاع المحصنة ذات الباب الواحد المغلق، والأسوار المنيعة المعدة للدفاع ولمرابطة المحاربـين بحيث تتحكم سهامهم بصدور المغيرين، والفاتحين في عصر لم تكن متوفرة فيه آلات التدمير، ووسائل خرق الأسوار ، فأبو يزيد وزّع قواته التي كتب لها النجاة في معارك سوسة والقيروان وراء الحصون ، والقلاع، والمعاقل الواقعة في مناطق «كتامة» وأمرها بالمرابطة، والدفاع حتى الموت. أما المنصور بالله فبعد دراسة شاملة للمنطقة وجد أن القضاء على أبي يزيد لن يتمّ بسرعة، وأنه لابد من النفس الطويل والصبر، وخرج أخيراً بنتيجة تقضي بفرض حصار محكم على هذه القلاع، ومنع وصول أية إمدادات غذائية لها مما يضطر المرابطون فيها أخيراً إلى الاستسلام، دونما قتال هذا ما كلف المنصور بالله الجهود الكبيرة، والوقت الطويل، وقيل إن خطته تلك استغرق تنفيذها ستة أشهر. وهكذا أخذت القلاع والحصـون تستسلم الواحـدة بعد الأخرى، ونزل البعض عن الأسوار، وخاض حرباً خاسرة. وبعد أن تم للمنصور بالله إخضاع كافة القلاع تقريباً، زحف على رأس قوة هجومية إلى قلعة «أبي يزيد» فطوقها، وأنذر أبا يزيد بالاستسلام، أو البروز للقتال، ولكن أبا يزيد ردّ على الإنذار بالاعتصام أولاً، وأخيراً بالنزول مع رجاله إلى ساحة القتال، وهو في حالة من اليأس، وفقدان الأمل، فتلقاه المنصور بالله، ودارت بينهما رحى معركة جرح في نهايتها أبو يزيد جرحاً بليغاً في كتفه، فترك الميدان، وأركن إلى الفرار باتجاه الصحراء. فلم يشأ المنصور بالله أن يتبعه جرياً على عادته بأن لا يتبع مهزوماً بل تركه إلى اليوم الثاني حيث أرسل بعض رجاله وراءه، فتتبعوا آثاره في الصحراء، وأخيراً قبضوا عليه مختبئاً في إحدى المغاور، وبعد أن جاؤوا به إلى المنصور بالله، لم يتوقف بل عاد به إلى المهدية تنفيذاً لقسمه بأن لا يعود إليها إلا ومعه رأس الرجل الذي أضرم نار الفتنة في كل جهة من أرجاء الدولة الفاطمية، وكاد يزعزع أركانها، ويدمر قواتها، ومواردها.

اتفق المؤرخون: على أن المنصور بالله أمر بإعدام أبي يزيد. وكان ذلك سنة ٣٣٩ هـ. وهكذا عاد المنصور بالله إلى قاعدة ملكه. فأعلن للناس عن وفاة والده «القائم بأمر الله»، ودعا القواد، ورجال

الدولة، وكبار رجال الدين، وشيوخ القبائل إلى مبايعته في الخلافة، وبعد أن تمَّ له ذلك انتقل إلى «المنصورية» وهي العاصمة الجديدة التي أمر ببنائها للاستعاضة بها عن العاصمة المهدية، ولكن كل هـذا لم يثنِه عن التفكير في المغرب الأقصى خاصة بعد أن تصاعد النفوذ الأموى في أرجائه، فاحتلال «حليليت» وبعدها «سبتة» معناه استملاك مفتاح منطقة المجاز، والانطلاق إلى بلدان أخرى، ثم إن مقتل القائد «ميسور» و «عبد الله بن بكار اليفرني» وكلاهما من القواد الفاطميين البارزين وإرسال رأسيهما إلى قرطبة سنة ٣٣٩ هـ، وذهاب وجوه «وهران» و «تاهرت» إلى قرطبة لإعلان الولاء للأمويين من قبل «فتوح ابن محمد خزر الزناتي» كان له وقع مؤلم في نفس الخليفة المنصور بالله، فقرر الزحف إلى المغرب للانضمام إلى الصنهاجيين، وإنهاء الحرب الطويلة، ولكن الأجل لم يمهله، فمات فجأة قبل أن يتمكن من تحقيق آماله...

وبعد عام من وفاة أبي يزيد قام ولده «فضل» فدعا من جديد إلى الثورة، وكأن لم يكفه المئتي ألف مقاتل الذين سقطوا ضحية ثورة والده، وكان قد تمكن من التأثير على بعض المعارضين والناقمين من قبيلة «زناتة» وبعض البربر، فاندفع على رأسهم يحتل المدن، والقرى وخاصة في منطقة كتامة، ولكن الخليفة المنصور بالله لم يمهله طويلاً، فأرسل ولي عهده «المعز لدين الله» وكان له من العمر سبعة عشر عاماً، فتمكن من قتله في المعركة الأولى، وبموته ختمت هذه الأسرة الكيداوية الخارجية، وطويت صفحتها، وشعاراتها إلى الأبد.

سجل التاريخ على صفحاته، انتصارات المنصور بالله الفاطمي على أكبر عدو للفاطميين عرفه المغرب في تاريخه. أما صفاته، وأخلاقه، وعبقريته، وشخصيته الفذة فلا تزال حديث رجال التاريخ، ومما يدل على سموّ أخلاقه: أنه عندما استرد مدينة «القيروان» من أبي يزيد الخارجي، خرج إليه الناس فأمهم، ووجد في المدينة حرماً، وأولاداً لأبي يزيد، فحملهم إلى المهدية وأكرمهم، وأجرى عليهم الأرزاق، وبعد مدة بعث إلى المنصور بالله، يسأله أن يسلّم إليه حرمه وعياله، لقاء دخوله في طاعته، وحلف على ذلك أغلظ الإيمان. فسير إليه المنصور بالله عياله مكرمين، بعد أن وصلهم وكساهم وحمّلهم الهدايا. فلما وصلوا إليه نكث وقال: «إنما وجههم خوفاً مني»...

ومهما يكن من أمر... فإن جوانب كثيرة في تاريخ الفاطميين ستظل غير مفهومة عملياً، بل ستظل مغلقة دوننا ما دمنا نهمل دراسة حقيقة وأوضاع العصر الذي نشأ فيه هؤلاء الخلفاء، والمبادىء التي تبنوها، وأرادوا تعميمها على المجتمع..

هناك، دون شك، عبقريات، ومواهب، وأفكار سبقت عصرها، وتقدمت الزمن، وإن الواجب العلمي يقضي علينا أن نشير إليها. فالإبداع في أي مجال لا تكون له أية قيمة أو مكان إلا إذا بالغ في التعبير عنها روح العصر، أو اهتدى إلى استخلاص الطريق السوي بعيداً عن البلبلة، والاضطراب. فالقول: بأن إنساناً عبقرياً موهوباً، وأن عبقريته، وموهبته شيء قائم بذاته لا ارتباط له بما يحيط به من مشاكل، وأحداث يكون بمثابة الحكم على الإنسان بالجنون، لأن كل عبقرية أو موهبة لا يكون لها أية قيمة إلا إذا عبرت عن روح العصر الذي نمت فيه.

من هنا نجد أن عظماء الإنسانية سواء كانوا أنبياء أم رجال فكر، أم قادة شعوب يظهرون في عصور الاضطراب الفكري عندما تختلط السبل، وتتضارب المفاهيم، ويتكاثر دعاة الهداية الزائفة أو غربان الضلال.. إذن فالعبقرية لا تأتي من العدم، ولكن العبقرية الحقة، هي في دراسة واقع العصر والاهتداء إلى روحه. والتوفيق في التعبير عن حاجاته، وهذا هو السبب في أن عظماء التاريخ لا يظهرون عادة إلا بعد أن تسبقهم التحركات، والمشاكل. والتخبط في مجاهل الحياة، وعندها يأتي العبقري ليمثل الوعي والنضج في سير حركة التاريخ. إذن فمجيئه يكون بناءً على حاجات العصر ومتطلباته.. من هنا فعندما نضع الخليفة الفاطمي الثالث الإمام المنصور بالله في ميزان التاريخ فسنجدنا ملزمين بالقول:

بأن عبقريته التي برزت في ذلك العصر، وإبداعه، وخلقه، ومرونته، لم تكن لتتم لولا حاجات ذلك الزمن، ولولا متطلبات الدولة التي كانت تقف على شفير الهاوية.

أجل.. لم يترك له والده القائم بأمر الله.. دولة زاهرة موطدة الأركان ناعمة البال، بل ترك له دولة تتقاذفها الأنواء والتيارات، وتهدد أمنها، وسلامتها الثورات، ويكفي أن نعلم أن عاصمتها كانت شبه

مطوقة، يقرع أبوابها الثائرون برماحهم، ويهددونها بالسقوط المرة تلو المرة... أضف إلى ذلك استنفاد الموارد، وفقدان المتطلبات، وابتعاد الرجال من أجل ذلك هبّ المنصور بالله من عرينه وبمفرده، واستطاع بقوة إرادته وشجاعته أن يسحق الخصوم في الداخل والخارج في سلسلة طاحنة من الحروب المريرة. التي برزت فيها عبقريته الحربية، وخبرته بأساليب القتال! والكر والفر حتّى تمكن بعد ثلاثة أعوام [وقيل أكثر] من أن يوطد دعائمها، ويخضع الثائرين لصولتها، ويكفل لها الأمن والاستقرار والرخاء. ولم يمدّ الله في عمره، بل لم يمنحه الفرصة لتنفيذ منهاجه الذي رسمه لنفسه، ولعلّ هذا من سوء حظ المغرب.

«العاصمة الجديدة»

لم تحل مهمات الحرب، دون قيام المنصور بالله بأعمال الإنشاء والعمران. فقد عرف عنه ولعه الشديد بالبناء والزخرفة، وتخطيط المدن والطرق وهندسة الحدائق والملاعب، ودور العلم والمساجد. ومن الجدير بالذكر أن المنصور بالله قرَّر وهو في غمرة الحروب الاستعاضة عن العاصمة المهدية، بعاصمة أخرى تحل محلها، وتحمل اسم الخليفة الذي خططٌ لها، وكان اجتهاده بأن العاصمة؛ أي عاصمة - يجب أن تكون بعيدة عن شاطىء البحر، وذلك لتفادي تعرضها للأخطار التى قد تنجم عن هجوم قراصنة البحر، والمغيرين بالأساطيل، وهذا ما جعله يتوجه إلى دراسة مواقع عديدة لاختيار المكان المناسب للعاصمة المرتقبة، فوقع اختياره على موقع يسمّى «صبره» وهو على مقربة من مدينة «القيروان»... وهناك وضع الحجر الأساسي لبناء العاصمة «المنصورية» ثم استعان بالمهندسين والخبراء، وجعل لها سوراً كبيراً، وخمسة أبواب هي: الباب القبلي، والشرقي وباب زويلة، وباب كتامة. أما الباب الخامس فهو خاص بدخول الجيش، والخروج منه، وسماه «باب الفتوح» كما بنى قصراً للخلافة سماه «قصر الهداية» وجلب له المياه من مكان بعيد، وخطَّط للمتنزهات، الحدائق، والشوارع، والميادين، كما خطط لبناء مسجد تابع للقصر، وجلب له الرخام من مدن الروم.

وذكر، إنه نقل للعاصمة الجديدة أسواق مدينة القيروان، وصناعتها،

وتجارتها، فلم يمض عليها سوى عامين حتى ازدهرت فيها التجارة، والصناعة، وأصبحت تسير في مضمار الرقي، والتقدم، والازدهار وانتقل إليها الأغنياء من التجار والصناع ورجال الأعمال... وهكذا ظلت «المنصورية» عاصمة للدولة الفاطمية الرسمية حتى تمَّ للمعزّ لدين الله الخليفة الرابع احتلال مصر، وبناء القاهرة «المعزِّية» وعندئذٍ زال عنها طابع العاصمة، وتحولت إلى مدينة أنموذجية حديثة تتمتع بكل ازدهار تجاري، وصناعي، وتكاثف سكاني، باعتبارها أعدت لتكون عاصمة لدولة بكل ما في هذه الكلمة من معنى.

«الخليفة الشاعر»

كان الخليفة الفاطمي الثالث الإمام المنصور بالله، شاعراً يقدِّر الشعر، ويتذوقه باعتباره فناً من الفنون الجميلة يمارسه، ويعتني به كل من نال حظاً من الثقافة، ورقة في الشعور، ورهافة في الإحساس، وليس غريباً على المنصور بالله أن يقرض الشعر . فالتاريخ ذكر بأن بين أجداده وأحفاده الكثيرين ممن نظموا الشعر، وترنموا بـه، وأجادوا حفظ أوزانه، وقوافيه.

إن هاتين المقطوعتين تعبران عن شعوره، ورقة عاطفته، وعراقته بامتلاك ناصية القريض والصفة البديعية البيانية. يقول:

تبدلت بعد الـزعفران وطيبـه ... صدا الدرع من شكيمات السوامر
ألم تـرني بعث المقامة بـالسرى ... ولين الحشايا بالخيول الضوامر
وفتيان صدق لا ضغائن بينهم ... يثورون ثورات الأسود الخوادر
أروني فتى يغني غنائي ومشهدي ... إذا رهج الوادي لوقع الحوافر
أنا الطاهر المنصور من نسل أحمدٍ ... بسيفي اقدُّ الهام تحت المغافر

ويذكر التاريخ... أنه أرسل هذه المقطوعة إلى ولده المعز لدين الله من المنطقة التي كان يطارد فيها أبا يزيد الخارجي:

كتابي إليك من أقصى الغروب ... وشوقي شديد عريض طـويل
أجوب القفار وأطوي الرمـال ... وأحمـل نفسي على كـل هول
أريـد بـذاك رضـاء الإلّـه ... وإعـزاز دولـة آل الـرسـول
إلى أن يـرى الله أجسـامنـا ... وكـلّ الركـاب وتـاه الـدليـل
فـوا غربتـاه ووا وحشتاه ... وفي الله هذا قليل قليل
وقد منَّ ذو العرش من فضله ... بفتـح مبين، وعـزٍّ جليـل
وفي كـل يـومٍ مـن الله لي ... عطـاءٌ جديـدٌ وصنـعٌ جميـل
فللّـه حمـد عـلى مـا قضى ... وحسبيَ ربي ونعم الـوكيـل

في هذه المقطوعة تظهر شاعرية المنصور بالله الرقيقة الوجدانية التي يتمثل فيها الفن والجزالة والبراعة في اختيار الكلمات المعبرة ذات النغم المؤثر في النفس، والموسيقى التي تتقبلها الأذن بخشوع ورهبة وعندما نضع في صفحات هذا الكتاب هاتين المقطوعتين، فلكي نؤكد بأن للإمام المنصور بالله ولآبائه الأئمة قصائد عديدة من الشعر الجيد ضاعت كما ضاع كل أثر للفاطميين، وذلك عندما استولى صلاح الدين الأيوبي على دولتهم وقام بعملية إتلاف التراث الفاطمي والقضاء على كل ما يمت للفكر الإسماعيلي المعروف بخصبه وازدهاره.

ولا يسعنا إلّا التساؤل ونحن نتذكر ضياع تلك الكنوز... أين ذهبت قصائد الشعراء المائة الذين رثوا الوزير «يعقوب بن كلس» وزير الخليفتين «المعز لدين الله» و«العزيز بالله»؟ وأين ديوان العقيلي وديوان أبي الحسن علي بن المؤمن بن غسان الكاتب المصري، وقد ذكر أنه كان بمجلدين؟ وأين ديوان أبي الحسن بن مطير، وديوان ابن الشحناء، وديوان الملك الصالح بن رزيك، وديوان القاضي الرشيد بن الزبير، وديوان أخيه المهذب، وديوان ابن الضيف، وديوان ظافر الحداد، وديوان الصوفي بن الكيزاني؟ وأين شعر بني عرام شعراء الصعيد، وشعر ابن الصياد، وشعر أولاد الكنز بأسوان؟ وأين مجموعات ابن بشرون، وشعر إسماعيل الدمياطي المعروف بابن قادوس؟

وقد يطول بنا الأمر إذا عددنا جميع شعراء الدولة الفاطمية.. وفي الواقع فإن هناك جناية أخرى ارتكبها الثعالبي، والباغرندي، والعماد، وابن سعيد المغربي وغيرهم من المؤرخين الذين أرادوا أن يحفظوا في كتبهم شيئاً من الشعر الفاطمي، فعمدوا إلى عدد قليل من الأبيات، ولم يدونوا القصائد كاملة.

وخلاصة القول: فإن ما حصلنا عليه من آثار أدبية قليلة تجعلنا نحكم بأن العصر الفاطمي كان خصباً في إنتاج الشعر، وأنه كان يحتل المكانة الممتازة في الحياة الأدبية ، والسبب في ذلك أن الخلفاء أنفسهم كانوا شعراء بالفطرة، ويولون الشعر أهمية خاصة باعتباره فناً من فنون الأدب الذي يعبر عن خلجات النفس، وعن العواطف الإنسانية.

«خاتمة المطاف»

في سنة ٣٤١ هـ. خرج الخليفة الفاطمي الثالث الإمام المنصور بالله متنزهاً إلى بلدة «جلولاء» التي تبعد عن القيروان أربعة وعشرين ميلاً ، وهي موضع كثير الثمار، والفواكه، والرياحين، وفيها من الاترج ما لا يحمل منه على الجمل غير أربعة، وعندما كان في طريق العودة هبَّ ريح شديد، وبرد، ومطر، وكثر الثلج، فمات جماعة ممن معه، واعتل المنصور بالله علة شديدة، وبعد وصوله إلى «المنصورية» أراد دخول الحمام، فنهاه طبيبه «إسحق بن سليمان» فلم يقبل، ودخل الحمام، فذهبت الحرارة الغريزية منه، ولازمه السهر، فأخذ طبيبه يعالج المرض دون السهر، فاشتد ذلك على المنصور بالله، وقال لبعض خواصه: أما في البلاد طبيب غير إسحق؟ فأحضروا له شاباً من الأطباء يقال له «أحمد بن إبراهيم الجزار» فشكا إليه ما يجده من السهر، فجمع له مواد مخدرة جعلت في قارورة على النار، ثم قدمها إليه فشمَّها فنام، وخرج الطبيب وهو مسرور بما فعله.. فجاء إسحق ليدخل على المنصور بالله.. فقيل له إنه نائم.. فقال: «إن كان قد صنع له شيء لينلم منه، فقد مات».. فدخلوا عليه فإذا هو ميت.. فدفن في قصره، وعندما أرادوا قتل ابن الجزار منعهم إسحق : وقال:

لا ذنب له.. إنما داواه بما ذكره الأطباء، غير أنه جهل أصل المرض، وما عرفتموه، وذلك إني في معالجته كنت أقصد تقوية الحرارة الغريزية وبها يكون النوم، فلما عولج بما يطفئها.. علمت أنه مات.

المعز ينعي المنصور

وأخيراً : مات الخليفة الفاطمي الثالث، الإمام المنصور بالله قبل أن يتم رسالته.. مات في وقت كانت الدولة الفاطمية، والأمة المغربية بحاجة إليه، وقد رأيت أن أثبت هنا الكلمة البليغة التي أرسلها ولي العهد «المعز لدين الله» بمنشور على عموم بلدان المغرب... وهذه هي بنصها الحرفي:

«الله أكبر... الله أكبر... لا إله إلا الله... الله أكبر... الله أكبر شأناً، وأعظم سلطاناً، وأوضح آيات وبرهاناً عن أن تنكر العقول توحيده، أو تروم تحديده.. خالق السموت والأرض ومالكهما ومدبّرهما... الفرد الصمد... الواحد الأحد الذي لا شريك له ولا ند... الخالق

القدير، الرحمن الغفور .. النافذ قضاؤه، الكائن ما يشاؤه... المتقن كل شيء صنعاً.. الواسع كل شيء رزقاً.. المحيط بكل شيء علماً.

أحمده، وأستعينه، واستغفره، وأستهديه، وأفوض إليه، وأتوكل في كل الأمور عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً خيرته من عباده، ونجيبه من بريته، وصفوته من المتطهرين، ورسوله إلى كافة العالمين، وبعثه بالإمامة إلى الثقلين ليبلغ حجة الرب، ويوضح محجة الحق، فأدى رسالة الله، ورحم ورأف بعباد الله، وصبر على الكبار من مكر الكفار، إلى أن أدال الله للحق على الباطل، والهدى على الأضائل محمد (ص) أفضل الصلاة وأزكاها، وأكملها وأنماها وأخلدها، وأبقاها، وعلى الإئمة من عترته المهديين الكرام الأبرار الذين اختارهم للخلافة، وارتضاهم للإمامة، وأكد بوصية الرسل حجتهم، وأوجب في التنزيل طاعتهم بعد تفضيله إياهم على العالمين بأبوة محمد سيد المرسلين، وعلي أفضل الوصيين، وعلى سيدة النساء فاطمة خامسة أصحاب الكساء صلوات الله عليهم وعلى أمير المؤمنين المهدي بالله، والقائم بأمر الله سيدي الورى، وإمامي الهدى اللذين أعلى الله بهما دعوة الحق، وأنطق بهما الإيمان والمؤمنين، وأقام بهما دعوة الدين، وازهق بحقهما باطل المدعين، وأكاذيب المتخرصين، وقطع بسيوفهما دابر الظالمين صلوات الله ورحمته، وبركاته، ورضوانه، وتحياته عليهما.

اللهمَّ اخصص الإمام الفاضل، والوصي العادل ، والبر الفاضل، والغيث الوابل ذا الآيات الباهرات، والمعجزات النافذات، الباذل نفسه الكريمة في حين الأزل والكربات، الصابر في البأساء والضراء حتى طهر الأرض من جبابرة الأعداء.. عبدك، ووليك، ونجيبك، وصفيك أبا الطاهر، المنصور بك والمتوكل عليك، والمفوض إليك، العامل بما يرضيك، ويقرب إليك، ويزلف لديك الذي فجعتنا بفقده، وأوحدتنا ببعده، وأفردتنا منه. وأوحشتنا فقبلت دعاءه، وأجبت نداءه. وجمعت بينه وبين أحبته في مستقر جنتك، وسعة رحمتك.

إن القلق، وشدة الحرق عليك يا أبتاه، يا سيداه، يا إسماعيلاه، يا أبا الطاهر يا بحر علوم الأئمة الطاهرين الهداة المهديين، يا بقية أبناء الرسول، وأبناء الوصي، والطاهرة البتول، يا إمام الأئمة.

ومفتاح باب الرحمة.. يا سراج الهدى، وشمس الورى، ومجلي الطخياء.. يا مخصوصاً من الله، عظم والله علينا المصاب بك، وحل البلاء.. وعدم العزاء لفقدك، وقصرت الألسن عن إدراك إحصاء شمائلك، وتعداد مناقبك، فوحق الذي اختصك بكرامته، وحباك بجزيل عطائه، وشرفك بأبوة رسوله، لولا ما أوعزت إليّ به، وأكدته عليّ من القيام بحق الله، والذب عن أمة جدك رسول الله واستنقاذهم من غمرة الجهالة، وبحار الضلالة، ومهاوي الفتن، ومعاطب المحن، وما تقرر عندي، ورسخ في صدري من الجزاء بمقدار الوفاء لله، ولرسوله، ولأئمة الهدى.. لضربت على وجهي سائحاً في البلاد، قالياً للمهاد، راضياً ببلغة من الزاد. إلى أن يلحقني الموت سريعاً بك، فأفوز بقربك ، ورحمة ربك لكنني فكرت، ونظرت ، وتدبرت، فلم أرَ لي وجهاً استوجب به درجتك، واللّحاق بشرفك سوى الصبر والاحتساب، فتجلدت وصبّرني ربي فصبرت، وغلب عليَّ اليقين فأمسكت وأقول:

إنّا لله، وإنا إليه راجعون.. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم الرحمن الرحيم والحمد للّه على ما أبلى والشكر على ما أولى.

معاشر أوليائنا، والقائلين بطاعتنا، والمتمسكين بولايتنا هذه والله المحن الشداد، المنضجة للأكباد، هذه الزلازل العظام التي لا تثبت لها الأقدام، هذه المشاهد التي لم يألكم أئمتكم لها تثبيتاً، ولم تزل راغبة إلى الله في تثبيت أقدامكم وعصمة قلوبكم عند حلولها بكم، ووقوع المحنة فيها عليكم، فتثبتوا تسلموا، ولا تضلوا لتندموا فلن يخلي الله أرضه وعصره في كل زمان من قائم لله بالحقّ شاهد على الخلق، يقر به المؤمنون، ويجحده الكافرون الضالون الأخسرون، إن الله بحمده خالق الخلق من غير حاجة كانت منه إليهم، لكن لعبادته وإظهار فضله وجوده عليهم، وجعل الحياة فيهم قوة عاملة، والموت كأساً دائرة، وما بعد الموت جزاء للعمل وبيّن لهم بين هذين/ نهج السبيل برسله المنتجبين، وبأئمة الهدى المختارين، وجعل ثوابهم وحظهم على مقدار بلاغهم وقيامهم، واضطلاعهم بأمره وإرشاد خلقه، وجعل بينهم درجات في الفضل فقال جل ثناؤه: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا، فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ

بِالْخَيراتِ بِإِذْنِ الله ذَلِكَ هُوَ الفَضْلُ الكَبيرُ﴾[1] تبارك الله رب العالمين، الذي لم يرض بالدنيا ثواباً للمؤمنين، ولا عقاباً للكافرين.

يا أيها الناس: ما من حي إلاّ وهو رهين بالموت، ولا موت إلاّ وبعده نشور، ولا نشور إلا بحساب، فثواب أو عقاب، وطوبى لمن لقي الله متمسكاً بحجزة أوليائه، معتصماً بعصمتهم، قائماً بلوازم الطاعة المفترضة عليهم بحججه وأصفيائه، متفيئاً بظلال ألوية عترة رسوله محمد سيد المرسلين، يوم لا ينجي إلا الدين، ولا ينفع إلا صحة اليقين، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحضَراً، وما عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بعيداً، ويُحَذِّرُكُمُ الله نَفْسَهُ والله رَءُوفٌ بِالعِبَادِ﴾[2].

يا أيها الناس: إنما الأعمال بخواتمها، والجزاء/ من الله بحسب الوفاء لله ولرسوله، ولأئمة الهدى من ذرية الرسول، وقد شاهدتم سيد الأئمة وراعي الأمة وسراج الدجنة في مواطن ومشاهد قضى فيها فرض ربه عليه، وأدى وديعة جده محمد لديه، وبين لكم من سنته ما إن اقتديتم به لن تضلوا، ولن تبت أيديكم من رحمة الله، ولن تعشو أبصاركم عن قصد السبيل الأقوم، والتمسك بالدليل الأعظم، وما من ولي سالف إلاّ وبعده وصي خالف قائم لله بحقه [منخر ثوابه]، عامل بما يرضيه حسب طاقته، ومنتهى استطاعته، ولا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها، ولا يرتضي للقيام بدينه وهداية خلقه ورعاية أمة نبيه إلا الأفاضل الأمجاد، [الآحاد الأفراد]، ذوي الهمم العالية، والأخلاق الرضية والنفوس الأبية من خالص الذرية، وقد جرت سنة الله في خلقه، ونفذ في حكمه ما لا يستطاع له جحد، ولا للقول به رد، من مواصلة الرسل لتبيين السبل في الزمان بعد الزمان، ولإعلان دينه حسب الإمكان، وأوجب للعباد الثواب بطاعتهم وإجابة دعوتهم وقبول هدايتهم، والعقاب بإسخاطهم وجحدهم وإنكارهم، وليس المؤمن بأولهم جاحداً آخرهم، ولا ينفع جاحد أولهم/ تصديق آخرهم للثواب والرحمة، من العذاب الأليم والخزي المقيم، وقد قرن الله طاعة أئمة

---

(١) القرآن الكريم، سورة فاطر، الآية ٣٢.
(٢) القرآن الكريم، سورة آل عمران، الآية ٣٠.

الهدى بطاعة الرسل، وطاعة الرسل بطاعته، قال الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا الله وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾(١) كذلك جرت عادته في الأنبياء والأوصياء ﴿لَن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلاً﴾(٢) ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَحْوِيلاً﴾(٣) وهل لمقر بنبوة موسى ورسالة عيسى عليهما السلام حاجة بتفضيل محمد سيد النبيين وخاتم المرسلين إذا أنكر نبوته، وهل له انتفاع بأعماله أو ثواب لعبادته؟ النور أيها الناس فينا مصون، وعطاء ربكم لنا غير ممنون، فأين تذهبون، وفي أي أرض تتيهون، هيهات هيهات لما توعدون فأطيعونا تهتدوا، وتمسكوا بحبلنا ترشدوا، واعملوا بما تفوزون في أخراكم تسعدوا، ولا تجعلوا أكثر همكم دنياكم، فإن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أبا الأئمة المهديين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين قال: «إن الله أحلَّ حلالاً وأعان عليه، وحرَّم حراماً وأغنى عنه». فدعوا لما قل لما كثر، وما ضاق لما اتسع، فقد أمركم بالعمل، وتكفل لكم بالرزق، فلا يكون طلب المضمون لكم أولى بكم من طلب المفروض عليكم. اللهم أوزعني شكر نعمتك ووفقني لما يرضيك ويقرب إليك، ويوجب المزيد [من فضلك، والذخر عندك] بإتمام نعمتك عليَّ في الدنيا والآخرة. إله الخلق رب/ العالمين، اللهم أيدني بنصرك، وافتح لي على أعدائك فتحاً مبيناً تحيي به الدين، وتعز به ملة محمد سيد المرسلين، وأرزقنا زيارة قبره والارتقاء على منبره، وحلول داره ع.م، وقضاء الحج إلى بيتك الحرام، والوقوف بتلك المشاهد العظام براياتنا، وقد جددت لنا العز ولأوليائنا، وقد أيدتنا وإياهم بالنصر، وأكرمتنا بالظفر وأظهرتنا على القوم الظالمين، وأخضعت لنا رقاب العاصين، وقد تقدم منك الميعاد للآباء والأجداد، ولا خلف لوعدك، ولا رادّ لأمرك، والرضا والتسليم بما قضيت، عجلت أو أجلت. اللهم اجعل ما مننت به من إحسانك، وما تجدد لي من فضلك ونعمتك عليّ وعلى العباد رحمة منك، اللهم واقرن بكل عز تجدده لي ذلاً تسكنه قلبي لعظمتك وجلالك وهيبتك، فلا عز إلَّا في الخضوع والعبودية لك، ولا غنى إلَّا في الفقر إليك، ولا أمن إلَّا في خوفك، ولا سعادة في الدنيا والآخرة إلَّا برضاك، يا رب

---

(١) القرآن الكريم، سورة النساء، الآية ٥٩.
(٢) القرآن الكريم، سورة الأحزاب، الآية ٦٢.
(٣) القرآن الكريم، سورة فاطر، الآية ٤٣.

العالمين، اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات وأخصص أولياء دولتنا وأنصار دعوتنا المجاهدين الصابرين الشاكرين من رحمتك بما استوجبوه من طاعتك، وقضاء فرضك، وموالاة أوليائك، ومعاداة أعدائك، وصلى الله على محمد سيد المرسلين في الأولين والآخرين. اذكروا الله العظيم/ يذكركم، [واستغفروا الله لي ولكم، وصلاته وسلامه على سيدنا محمد وآله].

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الخليفة الفاطمي الرابع الامام المعز لدين الله الرابع عشر

اسمه «معدّ»، لقبه المعزّ لدين الله كنيته : «أبو تميم» والده: الإمام المنصور بالله. أمه: أم ولد. ولد سنة ٣١٩ هـ في مدينة «المهدية». تسلّم الخلافة سنة ٣٤١ هـ أي عندما كان له من العمر /٢٢/عاماً. أدرك ثلاثة من الخلفاء الفاطميين هم: المهدي بالله، والقائم بأمر الله، والمنصور بالله. تربّى في قصور «المهدية» ونال العلم والثقافة في جزيرة «صقلية».. مات ودفن في القاهرة «المعزية» سنة ٣٦٥ هـ. فيكون قد عمّر /٤٦/عاماً قضى منها أربعة وعشرين عاماً في مقعد الخلافة.

رحل من المغرب إلى مصر سنة ٣٦١ هـ. وذلك بعد مضي أربع سنوات على احتلالها من قبل قائده المظفر «جوهر الصقلي». أنجب أربعة أولاد هم: تميم الشاعر، وعبد الله، والعزيز بالله، وعقيل، وابنتين هما: رشيدة، وعبدة. زوجته هي: تغريد، وذكر أن زوجته الأولى مغربية وهي «أم تميم» وقد ماتت في سن مبكر بعد ولادة تميم.

يذكر لنا التاريخ أن الخليفة الفاطمي المعز لدين الله كان من كبار الرجال الذين تفوقوا في مضمار العلم، والحرب، والسياسة، فقد بدت عليه إمارات النجابة، والذكاء منذ نعومة أظفاره، واشتهر بالذكاء وهو بعد في سن الطفولة، كما كان المثل الأعلى للخلفاء المسلمين عامة. قوي العزيمة يواجه الصعاب دونما خوف أو وجل، ويقف في عزم وثبات في وجه الثورات التي أذكى نارها الخارجون على الدولة، ويتصدى لمناوأة الأمراء الذين عملوا في سبيل الاستقلال عن الفاطميين، والانضواء تحت لواء الأمويين، فضرب هؤلاء بأولئك، وأخذ كلاً على حين غرة.

كان المعزّ لدين الله رحب الصدر، طيب القلب، كثير الحلم، يعطف على رعيته، الذين كانوا يهرعون إليه عندما يرونه ليرفعوا إليه ظلاماتهم، فيسمع إلى كل واحد منهم. اشتهر بالعدل، والإحسان إلى الناس، ومقاومة الظلم ، والتمسك بأهداب الدين، وكان يحرص على تلبية

مطالب الرعية، وحاجات الشعب. الذي أحبه، وأطاعه وسلمه أمره، وقيادته، وأصبح اسمه على كل شفة ولسان.

وكان يذهب إلى الصلاة منفرداً دونما موكب، وينزل إلى الأسواق دونما حراسة فيتفقد المتاجر، ويستمع إلى شكاوى الرعية، ومطالبهم فيسجل حاجاتهم وظلاماتهم، كما كان يزور بيوت أصحابه، ورفاق صباه، والفقراء حيث يقف على أحوالهم، وطرق معيشتهم. وكان يضرب به المثل في حلمه مع عبيده وخدمه، حتى لقد كان بعضهم يعترض عليه ويخالفه الرأي، ومع كل هذا كان يجادلهم بالحسنى، ويناقشهم باللّين، ولا يأخذهم بالشدة.

أما ثقافته فكانت مضرب الأمثال، ويكفي أن يذكر اسمه ليتبادر إلى الذهن تفوقه في كل علم وأخذه من كل فن، وبروزه في أي مجال. ومما سجله التاريخ عنه أنه تلقى ثقافته على أيدي علماء من صقلية ومنهم «المظفر الصقلي» ومن الثابت أن الإمام المعز لدين الله كان يجيد ويتكلم عشر لغات منها: الرومية، واللاتينية، والصقلبية، والسودانية، وحتى لغة البربر ولهجاتها. أما في آداب اللغة العربية، وتاريخها، وفلسفتها، فقد ضرب بسهم وافر حتى إنه كان يملي على قاضي قضاة الدولة «النعمان بن حيّون» أكثر فصول كتبه ومؤلفاته، ونسبت إليه بعض المؤلفات في الفقه والفلسفة. وذكر عنه أنه أمر خدمه في أحد الأيام بأن يهيئوا له الحمام، وجلس ينتظر، ثم مشى بعد مضي بعض الوقت إلى الحجرة التي فيها الحمام، فرأى الباب مقفلاً، فسأل عن المفتاح، ووقف طويلاً ينتظر، ولم يتغير حاله، ولا غضب، ولا قال في ذلك شيئاً، ثم دعا بكرسي، فجلس عليه حتى جيء بالمفتاح، فهيأ الحمام ودخله.

وفي أحد الأيام الممطرة، استدعى شيوخ «كتامة»، وكبار رجال الدولة إلى قصره في المنصورية فدخلوا عليه، وإذا هو جالس في إحدى القاعات المفروشة باللبود على مطارح، وحوله كساء، عليه جبة، وبين يديه مرفع ودواة، وهو يرد بخطه على الكتب الواردة إليه، ويوجه الرسائل إلى العمال والولاة في الأقاليم، وفيها التوصيات، والتعاليم، والأوامر.. فقال لهم:

«يا إخوانـنا، أصبحت اليوم في مثل هذا الشتاء، والبرد.. فقلت لأم الأمراء: وأخالها الآن تسمع كلامي.. أترى إخواننا يظنون إنا في مثل هذا

اليوم، نأكل، ونشرب، ونتقلب في المثقل والحرير والديباج، والفنك، والسمور، والمسك، والعنبر، والغنى، كما يفعل أرباب الدنيا؟. فرأيت أن أنفذ إليكم فتشاهدوا حالي، إذا خلوت دونكم، واحتجبت عنكم، وإني لأفضلكم في أحوالكم إلا فيما لابدّ لي منه من دنياكم، وبما خصّني الله به من إمامتكم، وإني مشغول بكتب ترد عليَّ من المشرق، والمغرب، أجيب عليها بخطي، وإني لا أشتغل بشيء من ملاذ الدنيا إلا بما صان أرواحكم، وعمَّر بلادكم، وأذل أعداءكم، وقمع أضدادكم. فافعلوا يا شيوخ دولتنا في خلوتكم مثلما أفعله، ولا تظهروا التكبر والتجبر، فينتزع الله النعمة عنكم، وينقلها إلى غيركم، وتحننوا على من ورائكم ممن لا يصل إليّ كتحنّني عليكم، فيكثر الخير، وينتشر العدل، واقبلوا بعدها على نسائكم، والزمواالواحدة التي تكون لكم، ولا تشرعوا إلى التكثير منهن، والرغبة فيهن، فينتقص عيشكم، وتعود المضرة عليكم، وتنهكوا أبدانكم، وتذهب قوتكم، ويضعف تمايزكم، فحسب الرجل الواحد ـ واحدة . فنحن محتاجون إلى نصرتكم بأبدانكم، وتضعف لحائظكم وعقولكم، واعلموا أنكم إذا لزمتم ما آمركم به، رجوت الله أن يقرب علينا أمر المشرق».

كان المعز لدين الله وسيماً، وقريب الشبه بوالده المنصور بالله، وكان مديد القامة، مهيباً لدرجة أنه لم يكن باستطاعة أحد التحديق في وجهه، وعينيه.. وقد وصفه «نيقولا» سفير امبراطور الدولة البيزنطية عندما قام بزيارته سنة ٣٥٧ هـ. في مدينة «المنصورية» ليبلغه رسالة من الإمبراطور فقال:

«أخطأ الروم حينما أطلقوا عليه اسم ملك «المتبربرين».. فأنا حينما بعثني إليه «نقفور فوكاس» رأيت من عظمته في عيني، وكثرة أصحابه ما كدت أموت فيه... وحينما دخلت عليه رأيت فيه نوراً غطى بصري، وكان على سريره كأنه ملاك هبط من السماء».

ومما يجب أن نشير إليه، ونحن نكتب سيرة الإمام «المعز لدين الله» أنه أول من فكر منذ ألف ومئة عام بصنع خزان للحبر في الأقلام، وبالفعل تعمَّم هذا الاختراع في ذلك العصر، واستعملت الأقلام ذات الخزان التي توفر على الكاتب عناء حمل الدواة، وهكذا يكون هو مخترع قلم الحبر «Stylo» ومن المشهور عنه، أنه كان يرسل سفنه من مصر إلى شواطىء لبنان في ربيع كل عام لحمل الثلوج الطبيعية من جبال لبنان إلى مصر، حيث يكون قد أعدَّ لها أمكنة خاصة في أقبية تحت الأرض، بعد أن يضيف إليها بعض المواد لحفظها حتى آخر الصيف، وكانت تستعمل لتبريد المياه، ولعلاجات طبية أخرى.

ومما يروى عن المعز لدين الله أنه قدم لبعض جلسائه طبقاً من الفواكه وقال:

«هذا التفاح جاءنا من المشرق من البلد الذي خرج منه المهدي والقائم ومن الضياع التي كانت به لهما ودفع إلى كل واحد منا شيئاً منه وقال: فإنّا نرجو ان شاء الله أن تجنوه من شجرة معنا بأيديكم وقد أنجز الله لنا وعده وأهلك عدوّنا بفضله».

ومن القصص التي يتجلى فيها عدله وحكمته، أن عامل الفاطميين في مدينة «فاس» المغربية أعان أحد أصدقائه الأغنياء، على اغتصاب قطعة أرض كان يملكها أحد الفقراء، فجاء الرجل الفقير إلى المنصورية، ودخل عليه باكياً، ثم عرض قصته، فأرسل الإمام المعز لدين الله بطلب الوالي وصديقه، وبعد اجتماعه بهما ثبت عليهما الاغتصاب، فعزل الوالي، وسجن الرجل الغني، وأعيدت الأرض إلى صاحبها.

ومهما يكن من أمر.. فالإمام المعز لدين الله، عندما وصل إلى مصر، أصدر أوامره بالعفو عن الإخشيديين والكافوريين الذين كانوا قد دعوا إلى الثورة ضد الفاطميين، وعاونوا القرامطة عندما هاجموا الديار المصرية، كما أنه أحسن إليهم بعد إعلان توبتهم، وندمهم. فأعاد إليهم اعتبارهم، وولى من يستحق منهم بعض المناصب في الجيش والإدارة.

وجاء أيضاً أن زوجة «الإخشيد» كانت قد أودعت عند صائغ يهودي «بفلطاق» أي عقداً من الجوهر، ثم لما ضاقت بها الدنيا طلبته منه... فأنكره.. فقالت له:

خُذْ كم البفلطاق، وأعطني ما فضّل.. فأبى.. فلم تزل به حتى قالت له: هات الكم وخذ كل ما يبقى.. فلم يفعل.. وكان في البفلطاق، بضع عشرة درة. فأتت المرأة إلى قصر الخليفة الإمام المعز لدين الله وأخبرته بأمرها، فأحضر اليهودي، وقرره فلم يعترف، فبعث إلى داره من ضرب حيطانها، فظهرت فيها جرة البفلطاق... فلما رآه المعز لدين الله تحيّر من حسنه، ووجد أن اليهودي قد أخذ منه درتين، فاعترف بأنه باعهما بألف وستمائة دينار. فأخذه المعز لدين الله وسلمه للمرأة وحكم على اليهودي ـ بدفع المبلغ الذي أخذه ثمن

الدرتين.. وهنا طلبت امرأة الإخشيد من الإمام المعز لدين الله أن يأخذ العقد هدية وقالت:

يا مولاي... هذا كان يصلح لي وأنا صاحبة مصر، أما اليوم فلا يصلح إلا لزوجك ـ ولكن المعز لدين الله رفض ذلك بإباء.

ومما يروى عنه، أن الناس كانوا يهرعون إليه، إذا رأوه، ويرفعون إليه ظلاماتهم. فيسمع لكل واحد منهم على انفراد، وينهر من يقف في وجههم، وعلى الرغم من كثرة مشاغله، كان واسع الصدر مع رعيته وأبنائه، وموظفيه، يحكم عليهم ليسمو بأخلاقهم إلى أعلى المراتب، ويثور بهم إذا خالفوا الدين، وحادوا عن الطريق المستقيم.

ومن أخباره، أن المعز لدين الله ركب يوماً من أيام الربيع إلى مكان وصف له بأن فيه زهراً جميلاً ونبتاً حسناً، وفي الطريق من المنصورية اكتنفه الناس يسألونه عن حوائجهم، ويرفعون إليه أمورهم، فما زال يقبل بوجهه على الواحد والجماعة منهم، ويكلمهم، ويجيبهم حتى انتهى إلى المكان المقصود. ولم يضجر من مرافقة الناس له.. وكنا حوله نضجر لذلك وكان المشاة بين يديه يدفعون الناس فيأمرهم بتخلية من يدفعون، وإن كثيراً منهم ليطيل مسايرته، ويكرر حاجته، فيأمر من حوله بالانصراف، ويغمزه إرادة التخفيف عليه، وأن ينظر إلى ما خرج إليه فينهاهم عن ذلك، ويأمر أن يدعو من كلمه إلى أن يقضي حاجته، وينصرف مرتاحاً. هذا هو دأبه في أكثر خروجه.

ويقول قاضي القضاة النعمان بن حيّون، وكان رفيقه في أكثر رحلاته:

«لا أعلم ولا سمعت أحداً وصف بمثل ذلك الصبر، والحلم ، وسعة الصدر،... وذكر النعمان، أن المعز لدين الله حضر عيد الفطر ففوجىء بعواصف، واضطراب في الأجواء، أدّى إلى ظهور الكثير من الوحل والطين، فظنَّ الناس أنه سيصلي صلاة العيد في المسجد. ولكنه قال:

«لابد من قضاء فرض الله تعالى في البراح على ما أمر به جل ذكره وسنّة رسوله وأضاف:

وهذا من أقل ما ينبغي أن يفعل في ذات الله وأكثر منه، والله لو حبونا في الطين حبواً على الركب، وكان ذلك مما يرضي الله عنا ويقبله منا لفعلناه.. إن رسول الله يقول:

إذا سمعتم داعي أهل بيتي، فسارعوا إليه، ولو حبواً على الثلج والنار، فإذا كان الله تعالى قد أوجب لنا هذا على عباده، ونحن خلق من خلقه، قد ابتدأنا بفضله، وانعم علينا بإحسانه، فكيف بما يجب علينا للخالق جل ذكره أن نرخص فيه، أو نتعاظم مشقة تدخل علينا من أجله.. معاذ الله أن نستكبر عن عبادته، أو نستخف في طاعته...».

وخرج... وخرج الناس يخوضون في الماء والطين، فما انصرفوا إلا وقد تخضبوا فيه، وامتلأت ثيابهم منه، وكان مشهداً يرضي الله من وليه، وممن ذهب فيه مذهبه....

أجل كانت تبدو على المعز لدين الله إمارات الذكاء والنجابه منذ نعومة أظفاره. حتى أن الخليفة الفاطمي الأول عبد الله المهدي اختبر ذكاءه، وأعجب به، وتنبأ بأنه سيكون له شأن كبير...

يقول المعز لدين الله:

«إني لأذكر يوماً كنت حملت فيه إليه المهدي، وأنا يومئذٍ فطيم أعقل الكلام، وأحفظ ما يكون فتناولني وقبلني وأدخلني تحت ثوبه، وكشف عن بطني، وألصقه ببطنه ثم أخرجني وبارك عليَّ وسألني عن حالي، وأجلسني في حجره، ودعا لي بمأكل... فأتوني بطبق من فضة مذهّب فيه موز، وتفاح خريفي وعنب... ووضع بين يديَّ فلم أتناول منه شيئاً، فأخذه بيده وناولنيه.. فأخذته بيدي فقال:

امضِ به فكل أنت ما فيه، واعطِ الطبق «فلانة» وذكر بعض البنات وهي يومئذٍ في مثل سني.. فقلت له:

لابل آخذ أنا الطبق، وأعطيها ما فيه... فضحك المهدي.. وتعجب من انتباهي لذلك، ودعا لي بالخير وقال للخادم احمله فحُملت وحمل معي الطبق بين يدي وقال: سيكون له نبأ ومثل هذا الكلام.

ويظهر أن ذكاء المعز لدين الله قد اشتهر لدى الخاص والعام، وأنه عرف في جميع مراحل حياته بحل المعضلات والإفتاء في كل أمر مشكل..

ومما يروى عن جده القائم بأمر الله، أنه كان يأنس إليه، ويتخذه واسطة بينه وبين الرعية، وكان إذا غاب عنه يرسل بطلبه، ويكلفه بمهمات صعبة، وكثيراً ما كان يقول: «لولا صغر سنه، لجعلت الأمر منذ الآن إليه».

الدولة الفاطمية

امتدت رقعة الدولة الفاطمية في عهد الخليفة الرابع المعز لدين الله، فأصبحت من شاطىء المحيط الأطلسي حتى البحر الأحمر، ويدخل في هذا النطاق البحر الأبيض المتوسط أي أن أعلامها كانت ترفرف على مراكش، والجزائر، وتونس، وليبيا، ومصر، وبلاد النوبة، وفلسطين، وأكثر بلاد الشام، والحجاز، واليمن... فضلاً عن صقلية، وكريت، وبهذا تكون قد فاقت باتساع رقعتها الدولة العباسية وسبقتها في مضمار القوة، وانتزعت منها زمام السيادة، والزعامة في العالمين العربي والإسلامي.

ومهما يكن من أمر... فإن الفضل في هذا التوسع والامتداد يعود إلى جهود قائد هذه الدولة، وعبقريته وعقله المفكر، المعز لدين الله، وإلى تدابيره. وحسن إدارته، وإقدامه، وسياسته، وثقافته الواسعة، ودرايته باختيار الأعوان، والقواد، والولاة الذين ضمّوا جهودهم إلى جهوده، ووضعوا إمكانياتهم المشتركة، وخبراتهم تحت تصرفه للنهوض بأعباء الحكم، وتخطي العقبات، والسير في طريق النجاح.

كان المعز لدين الله طاقة كبرى من العبقرية، وشعلة حية من التوقد. والذكاء، ومجموعة كبرى من الشجاعة والإقدام. قبض بيد من حديد على زمام الأمور في دولته الفتية وهو في ريعان الشباب فلم يترك شاردة أو واردة من أمور الدولة إلا وأشبعها درساً وبحثاً، ولا داء مستعصياً إلاّ وأوجد له العلاج الناجع. وكان شديداً على الأعداء والمتآمرين وطيباً مع الأنصار والمؤيدين، يلبس لكل حالة لبوسها، ويعرف من أين تؤكل الكتف. أما عصره فكان حافلاً بمظاهر العظمة والقوة، فقد استطاع بما أُوتيه من ذكاء حاد، ومهارة حربية ممتازة أن يوحد بلاد المغرب بجميع أجزائها تحت رايته، وينتصر على الثائرين، وعلى الأمويين، والروم في أكثر من موقعة، حتى أن الأمويين في الأندلس أصبحوا - يخشون على بلادهم من أن تقع في قبضته، كما أن الروم سارعوا إلى محالفته خوفاً من قوته ونفوذه. وقد حاول أن يتخذ من صقلية، وكريت جسراً للعبور إلى إيطاليا شمالاً، وإلى

مصر والشام شرقاً، ومنها إلى بغداد للقضاء على الدولة العباسية، وبعدها إلى القسطنطينية حيث «البيزنطيون» أعداء العرب والمسلمين. وقد كان لنظم الحكم الدقيقة التي سار عليها الأثر البعيد في ازدهار بلاده، ورفع مستواها.. ولا غروَ فإن حكمه ظلَّ يمثل الحكم المستنير الذي يقوم على الفكر والدرس.

أجل.. اعتلى المعز لدين الله عرش الخلافة الفاطمية في المغرب في شهر شوال سنة ٣٤١ هـ فأخفى خبر موت أبيه مدة تقارب من الشهر، وذلك كي لا تتعرّض الحالة الطبيعية إلى انتكاسات. وقد مرَّ معنا أنّ القائم بأمر الله أخفى وفاة عبد الله المهدي سنة كاملة، وأن المنصور بالله أخفى موت القائم بأمر الله ثلاث سنوات. أما المعز لدين الله فاكتفى بمدة شهر ،لأن أمور الدولة كانت أكثر استقراراً وأمناً. بل وأدعى إلى الطمأنينة.

إن إدارة الملك، وسياسة الرعية، وتسيير شؤون الدولة لم يكن بالأمر الجديد على المعز لدين الله، فهو قد مارسها، وتدرب على تصريف شؤونها، وخبر كل ما يحيط بجوانبها. فرجال الدولة والقواد والشيوخ والقضاة والولاة لم يشعروا بأن الخليفة المعز لدين الله شخص غريب عليهم، فقد سبق لهم أن عرفوه ولياً للعهد في عهديّ القائم بأمر الله والمنصور بالله، يتصدى لشؤونهم، ويحل معضلاتهم، ويدرس معهم الأمور العائدة للدولة. أما الرعية فقد قابلوا الحدث بكل اطمئنان وترحاب لأنهم عرفوه، وجربوه، ولم ينسوا إخلاصه وسهره الدائم على مصالحهم وراحتهم، أمّا الجند فقد أنسوا إليه، واستعانوا به، ووثقوا بحدبه عليهم، واعتبرت القبائل وخاصة «كتامة» و «صنهاجة» أنها أصبحت في كنف خليفة يقدر مواقفها، وجهادها، وإخلاصها لدولته.

وقال لوفد من كبار المقربين:

«أريد منكم ثلاثاً،وأكره لكم ثلاثاً.. أريد منكم الصدق.. وأكره لكم الكذب، وأريد منكم العفاف، وأكره لكم الخيانة، وأريد منكم التواضع وأكره لكم الكبر...... وهذا أخوف ما أتخوفه عليكم».

العلاقات الفاطمية-الأموية

عداء الأمويين للفاطميين قديم، وقديم جداً كما ذكرنا... فليس

غريباً أن يعود إلى الساحة المغربية، ويأخذ أبعاده بين المنصورية وقرطبة. ومن الجلي الواضح أن خوف الأمويين تضاعف على ملكهم ودولتهم من الفاطميين وخاصة في عهد الخليفة الرابع المعز لدين الله بعد الانتصارات التي حقّقها. عندما أُحبطت جيوشه المؤامرات، وقضت على رؤوس المعارضة. وعندما أصبحت رقعة دولته تشمل كافة أجزاء المغرب.

لقد ذكرت بعض المصادر التاريخية: أن الأمويين أرسلوا في فترة من الفترات جيوشهم إلى عمق أراضي المغرب، وأنهم تغلبوا على الجيوش الفاطمية في معارك عديدة، ولا أدري من أين جاءت هذه المعلومات؟.... فالأمويون لم يستخدموا في عدائهم للفاطميين إلاَّ سلاح الدِّين، والأموال، والإغراء، والترغيب، حتى وصل بهم الأمر إلى شراء الأدارسة بالأموال، واستخدامهم في سبيل غاياتهم ومآربهم. على الرغم من كون الأدارسة شيعة ومن أقرباء الفاطميين، ومن الذين نالهم الكثير من أذى الأمويين وظلمهم حيث لم يروعهم المعز بل إنه حتى الآن لا تعرف الأسباب التي منعت المعز لدين الله من غزو الأندلس في حين كان بإمكانه تحقيق ذلك بسهولة؟ وعلى الأرجح أن تطلعاته كانت ترمي إلى أبعد من الأندلس... أي إلى مصر... وإلى المشرق، فهذا ما خطّط له الفاطميون، وعملوا في سبيله منذ أول يوم حطوا رحالهم فيه على أرض المغرب.

والمعروف أن عداء الأمويين للفاطميين لم ينقطع منذ قيام دولة هؤلاء، ففي عهد عبد الله المهدي ثاروا، وشجّعوا الحركات في كل مكان من المغرب ضده، كما شجعوا ثورة الخوارج التي قادها أبو يزيد. وأمدوها بالمال والسلاح وذلك في عهد القائم بأمر الله، والمنصور بالله، حتى أننا نرى أبا يزيد الخارجي يرسل سنة ٣٣٣ هـ. كتاباً إلى الناصر الأموي مع وفدٍ حمل إليه بشائر تغلبه على القيروان ورقادة وما جاورهما، وفي الوقت ذاته يظهر له خضوعه، واعترافه بولايته. وشجع الناصر الأموي موسى بن أبي العافية على انتزاع أرجاء المغرب الأقصى من الأدارسة لأنهم شيعة، ثم أثارهم على عبد الله المهدي، وعلى خلفائه من بعده، باذلاً لهم الوعود، والمغريات، واستمال بالأموال، والعطايا «حميد بن يصال» صاحب «تاهرت» ، وابن أخي «مصالة بن حبوس» القائد الفاطمي المشهور.

وكان قواد الثورات المعادية للفاطميين عندما يتضايقون من الفاطميين، لا يجدون لهم ملجأً سوى قرطبة حيث يلاقون كل ترحيب ورعاية، وهناك ناحية أهم من كل ما ذكرناه وهي أنهم أعادوا في الأندلس لعن الفاطميين وآل البيت على منابر المساجد، كما فعل آباؤهم في دمشق من قبل، وهكذا فإنهم ضربوا الرقم القياسي بانحطاط الأخلاق وسوء التربية وانخفاض الشرف.

لم تذكر مصادر التاريخ أية مجابهة بين الفاطميين والأمويين إلا مرة واحدة، ويبدو أن العنف الذي قابل به الفاطميون تعديات الأمويين جعل هؤلاء يحسبون للأمر حسابه، ويتجنبون أية مصادمة قد تعرضهم لهزائم أشدّ وأدهى.

ومما تجدر الإشارة إليه... أن إحدى السفن الأموية هاجمت سفينة فاطمية في البحر على مقربة من صقلية واستولت على رسالة كان قد بعث بها حاكم صقلية الفاطمي إلى الخليفة المعز لدين الله، فاعتبر المعز لدين الله هذا التحدي مقدمة لأعمال أخرى أكبر ولا سيما أن السفينة الفاطمية ليست حربية، لهذا قرَّر الرد بسرعة وبقوة، لكي يضع حداً لأعمال القرصنة الأموية في مناطق نفوذ الفاطميين البرية والبحرية. فأصدر أمره ـ لعامله في صقلية «الحسن بن علي الكلبي» بأن يرد على الاعتداء بقوة، فأرسل الكلبي الأسطول الفاطمي إلى «المرية» وهي قاعدة أسطول الأمويين، وهناك أنزل الأسطول الفاطمي الجنود في المرفأ ومنه زحفوا إلى المدينة حيث أحرقوا كل ما وقعت أعينهم عليه، ثم عادوا إلى المرفأ، وأحرقوا المراكب، والخزائن، والمستودعات، ولم يرجعوا إلا بعد أن حولوا المدينة إلى شعلة نار، وبعد أن أجبروا أهلها على الهرب. ومن الجدير بالذكر أن الأمويين لم يقاوموا، وعجزوا عن التصدي لرجال الأسطول الفاطمي، كما لم يتوقفوا عن أخذ الثأر، ويبدو أنه كان لعنصر المفاجأة النصيب الأكبر، وكل هذا جعل الأمويين بعد هذه المعركة يبادرون إلى عقد معاهدة مع الروم كان من بنودها اشتراك الأسطولين الرومي والأموي في دوريات مشتركة للوقوف بوجه التحركات البحرية الفاطمية. وقد صوَّر القاضي النعمان بن حيّون في كتابه «المجالس والمسايرات» هذا التحالف بقوله:

«وأقبل أسطول الروم، فلقي أسطول أمير المؤمنين دون صقلية، ففتح الله

لوليه على الروم فهزمهم في البحر، وقتـل رجالـه منهم خلقاً عظيمـاً، وولوا هاربين بين يدي أسطوله إلى مجازرية ليحموا بلدهم، ولكنه تبعهم، فلقـوه في البحر فهزمهم. فنزل عسكر البر بأرضهم، فأنكى بالقتـل فيهم، وأحرق مدائنهم، وخرَّب كنائسهم.. وهنا أرسل ملك الروم إلى الخليفة المعـز لدين الله يطلب الصلح، وأرسل أموالاً عظيمة، وهدايا ثمينـة، ورغب في التوقف عمن بقي من الروم بأرض «قلوريا» على ما قطعه على نفسـه، يؤديه عنهم، مع طلب الهدنة...».

وعندما رأى الناصر الأموي هزيمة الروم، وما حلَّ بهم من نكبات بعث رسولاً من قبله، وكتب على لسان بعض رجاله إلى بعض رجال أمير المؤمنين المعز لدين الله في الموادعة، وكف الحرب، فكان ردّ المعز لدين الله غاية في الروعة والثقة بالنفس، فقد قال للرسول:

«إنَّ الناصر استعان علينا بالروم المسيحيين... وأضاف:

إنَّ اتخاذ الناصر لقب أمير المؤمنين هو تعدٍّ على حقنا... فنحن أهل ذلك دونه، ودون سواه، نرى الله قد فرض علينا محاربة من انتحل ذلك دوننا وادعاه... ما أنا بالمداهن في دين الله، ولا بالراكن بالمودة إلى أعـداء الله، ولا بالمخادع أمر من أمور الله عز وجل [ارجع بجوابي هذا إليه، فمـا له عندي سواه].

ويظهر أن الناصر الأموي استمرَّ في إرسال الرسائل، وكان يرمي من وراء ذلك تخدير الأعصاب حتى يعد العدة للقتال... ولكن الإمام المعز لدين الله أدرك ذلك وقال: «إنما أراد هذا الفاسق أن يقطع الزمان بهذه المراسلة».

ومهما يكن من أمر... فإن الفاطميين لم يدخلوا في حسابهم محاربة الأمويين في الأندلس كما قلنا، لأن خطتهم كانت ترمي إلى احتلال مصر، والنفاذ إلى الشرق حيث بغداد، ولهذا ظلَّ الأمويون بمنجاة منهم، وأكملوا مسيرتهم في الأندلس.

«المعز لدين الله وجزيرة كريت»

جزيرة «كريت» أو «أقريطش» تشكل مركزاً استراتيجياً حساساً في البحر الأبيض المتوسط، وفي عهد الدولة العباسية الأولى كانت تابعة لبغداد، ومتصلة إدارياً بمصر. وغير خافٍ أن أكثرية سكانها كانوا من الربضيين الأندلسيين الذين ثاروا على الحكم بن هشام الأموي

سنة ٢٠٤ هـ. وحاصروه في قصره بقرطبة، ولكنه انتصر عليهم فيما بعد في واقعة «الربض» المشهورة وقتل منهم عدداً كبيراً، كما أجلى البقية الباقية منهم عن الأندلس ، فقصدوا مدينة فاس بالمغرب الأقصى ثم قصد الآخرون مدينة الإسكندرية. ويظهر أنهم كانوا يميلون بطبيعتهم إلى الشغب وإحداث الفتن في كل مكان تطـأه أقدامهم، فأخذوا يقومون في الإسكندرية بأعمال تسيء إلى الأهلين، وفي عـهد ولاية عبد الله بن طاهر سنة ٢١١ حتى سنة ٢١٣ هـ. قاموا بثورتهم، واعتصموا بالمدينة، وطردوا سكانها الأصليين منها، ثم ولوا عليهم أحد زعمائهم المسمى «حفص بن عمر بن شعيب البلوطي» ولكن والي مصر استطاع أخيراً أن يلحق بهم الهزيمة، ويجليهم عن الإسكندرية، فذهبوا إلى جزيرة كريت وأقاموا فيها، وقد ظلوا فيها زهاء قرن ونصف في أمن وسلام، أي حتى منتصف القرن الرابع للهجرة، وفي هذه الفترة تعرضوا لغزوات الروم الطامعين بالجزيرة، فطلبوا النجدة من العباسيين ثم من الإخشيديين في مصر، وبعد ذلك من سيف الدولة الحمداني، فلم يجبهم أحد من هؤلاء. وأخيراً:

ولُو وجوهـهم شطر المنصورية يطلبون من المعز لدين الله مساعدتهم، فاستمع إليهم وعطف على مطالبهم، وبالفعل اتصل بالإخشيديين في مصر، وطلب إليهم التعاون في سبيل نصرتهم وإنقاذهم، كما اتصل بالروم، وحذرهم من مغبّة هذه الأعمال المنكرة. مـن الأمور البارزة في تلك الفترة... أن المعز لدين الله كان في موقف القوة، فقد تمكن من إلحاق الهزائم المتلاحقة بالروم، كما قضى على كل آمال الأمويين، وأحبط مساعيهم ومخططاتهم، ولكن مهاجمة الـروم بأسـاطيلهم لجزيرة كريت أقضت مضجعه، فبادر إلى نقض الهدنة معهم، ووقف في وجه مطامعهم موقفاً أملته عليه غيرته على المسلمين.

ومعلوم أنَّ المعز لدين الله أرسل في تلك الفترة رسالتين: الأولى إلى الإخشيديين في مصر، والثانية إلى الروم، وكل ذلك في سبيل «كريت» حيث كان يطمع بضمها إلى دولته، لأنها برأيه تعتبر مفتاح مصر والقسطنطينية وجعلها قاعدة بحرية لأساطيله.. مضافاً إلى ذلك ما كان يعلمه عن المعادن الموجودة فيها.. وكل هذا جعله يوجه اللوم للوفد الكريتي الذي زاره، على اعتبار أنهم لم يتصلوا به قبل الآن.

أجل... لقد كان المعز لدين الله يجد في الاستيلاء على كريت ما يحقق له النفاذ إلى الشرق، وإلى البلاد الواقعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وكل هذا يعرفه الألمان وإيطاليا حينما حاولوا احتلال جزيرة كريت في الحرب العالمية الثانية.

كان «كافور الإخشيدي» في ذلك العهد على رأس الدولة في مصر... ففي عهده كانت كريت مستودعاً لتموين مصر، حتى أن سفن هذه الجزيرة، ومواكبها كـانت تذهب إلى مصر وهي محملـة بخيرات الجزيرة وغيرها من البلدان الأخرى، ومع ذلك فإن كافور لم يحرك ساكناً، سوى أنه أرسل بعض مراكبه إلى عرض البحر لعرض العضلات فقط.

يقول الإمام المعز لدين الله لأبي الحسن علي الإخشيدي:

«وأن تخشى على مراكبك منا، فلك علينا عهد الله وميثاقه أنّا لا نكون معهم إلّا بسبيل الخير، وأنّـا نحلهم محل رجـالنا، ونجعـل أيديهم مـع أيدينـا، ونشركهم فيما أفاء الله علينا، ونقيمهم في ذلك وغيره مقام رجالنا، ومراكبك مقام أساطيلنا، حتى يفتح لنا إن شاء الله ثم ينصرفوا إليك».

وكان الإمام المعز لدين الله قد وضـع خطة العمل المشتركة مع الإخشيديين، تقضي بأن يرسلوا بعض قطع أسطولهم إلى برقـة للانضمام إلى الأسطول الفاطمي المقرر لحماية كريت. أما بالنسبة للروم فقد كان إنذار المعز لدين الله بالغ الشدة كقوله.

«فأقريطش (كريت) وغيرها من جميع الأرض لنا، بما خولنا الله منها، وأقامنا له فيها.. أطاعنا من أطاعنا، وعصانا من عصانا وليس بطاعتهم يجب منا أن نملك، ولا بعصيانهم يحق علينا أن نترك».

وهكذا تظهر عبقرية الإمام المعز لدين الله السياسية وتطلعاتـه، ومظاهر قوته في العالم الإسلامي.. وهنا يجب أن لا يسهى عن بالنا بأن الإخشيديين في مصر كانوا يميلون إلى الفاطميين ويفضلون حكمهم على حكم العباسيين.

لم تمدنا المراجع التاريخية بأية معلومات عن تحركات فاطمية أو إخشيدية في مياه جزيرة كريت، وكل ما بلغنا هو أن الربضيين

استقروا في كريت مئة وأربعين عاماً ثم غـزاهم الروم في عهـد «أوريانوس بن قسطنطين الثامن» وذلك سنة ٣٥١ هـ. حدث هذا في وقت كان الإمام المعز لدين الله لا يزال يكافح في سبيل تثبيت دعائم دولته في المغرب. وفي الواجهة الثانية كان في صدد تهيئة الحملة الكبرى لفتح مصر وبلاد الشام. ولعل كل هذا حال دون احتلال كريت وطرد الروم منها.

ومن المفيد جداً نشر الكتابين المرسلين من الإمام المعز لدين الله إلى «الحسن بن علي الإخشيدي» وإلى أمبراطور الروم، ففيهما حقائق تاريخية اعتبرهما أكثر من باحث من الوثائق المهمة.

كتب الإمام المعز لدين الله إلى الحسن بن علي الأخشيدي!

«إن الله سبحانه قد خولنا من فضله، وأمدّنا من معونته وتأييده بما نـرى، بحولـه، وقوتـه، ونصره لنا، وأظهـرنـا عـلى عـدونـا.. نكف أيـدي الكفرة عما تطاولت إليه من حرب لهذا الصقع والإيقاع بأهله، وقد انتهى إليك أنك أظهرت الحركة إلى الجهاد، وإمداد هؤلاء القوم بمراكب من قبلك. وأنت لعمري بذلك أجدر لقربهم منك، واتصالهم بك، وميرهم بلدك، وكونهم وإياك في دعوة واحدة، ولو أسلمناهم إليك، وقعدنا عنهم لما كان لك، ولا لهم علينا حجة في ذلك، ولكنا آثرنا نصرة أمة جدنا محمد (ص)، ولم نرَ التخلف عن ذلك، وقد رجونا له، وألقوا بأنفسهم إلينا فيه، ونحن لا نحول بينك وبين الجهاد في سبيل الله ، ولا نمنعك من إتمام مـا أملت منه، فلا يكن ما يتصل بك من إنفاذ أساطيلنا يثنيك عن الذي هممت به من ذلك، وأن تخشى على من نبعث به، وعلى مراكبك منا، فلك عهد الله وميثاقه علينا أنّا لا نكون معهم إلا بسبيل الخير، وأنّا نحلهم محل رجالنـا ونجعل أيديهم مع أيـدينا ونشركهم فيمـا أفاء الله علينـا، ونقيمهم في ذلك وغـيره مقـام رجالنـا، ومراكبـك مقام أسـاطيلنا حتى يفتـح لنا إن شـاء الله، ثم ينصرفوا إليك على ذلك، أو يكون من أمر الله، وقضائه ما هو فاعله. فـاعلم ذلك، وثق به منا، ففي ذلك تضافر المسلمين على عدوهم، واجتماع كلمتهم، وإعزاز لدين الله، وكبت لأعدائه، فقد سهلنا لك السبيل، والله على ما نقول وكيل.

فإن وثقت بذلك، ورأيت إيثار الجهاد، فاعمل على أن تنفذ مراكبك إلى مرسى «طبنة» من أرض برقة، لقرب هذا المرسى من جزيرة «أقريطش» ، ويكون اجتماعهم مع أساطيلنا بهذا المرسى في مستهل ربيع الآخر سنة ٣٥٠ هـ. بتوفيق الله وقوته، وتأييده، ونصره، وعونه، وألّا ترى ذلـك فقد

أبلغنا في المعذرة إليك، والنصيحة لك، وخرجنا مما علينا إليك. ونحن بحول الله وقوته، وتأييده، ونصره، وعونه مستغنون عنك، وعن غيرك، وعلى عزم ؛ وبصيرة في إنقاذ أساطيلنا ، ورجالنا، وعدتنا، وما خوّلنا الله إياه، وأقدرنا عليه، مما نرى أننا بحوله، وقوته نبلغ به ما نؤم إليه بذلك، ونصمد نحوه، فبالله نستعين، وعليه نتوكل، وعلى تأييده نعوّل، وهو حسبنا ونعم الوكيل».

وقال القاضي النعمان بن حيّون:

أمر الإمام المعز لدين بكتابه هذا إلى إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية، وقد أملاه على الكاتب بحضرتي بين يديه، بكلام ما سمعت أجزل، ولا أبلغ منه.. فقال: بعد أن خيّرة بين أن يقلع عن حرب أهل أقريطش وبين أن ينبذ إليه عهده، كما نبذ رسول الله محمد (ص) إلى مشركي العرب عهدهم، وأرسل (علياً) ببراءة فقرأها في الموسم عليهم، وكقول الله وهو أصدق القائلين: ﴿وإما تخافنَّ من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء﴾[1].

ثم قال له في كتابه:

«ولا ترى أن دعوة أهل أقريطش قبل اليوم إلى غيرنا، وقد أنابوا اليوم إلينا واستغاثوا بنا، مما يوجب لك عندنا تمام الموادعة بتركهم إليك، وترك اعتراضك فيهم. وإن امتناع أهل الباطل من أهل الحق ليس بمزيل حقهم، وأن تغلبوا عليه دونهم، بل هولهم بتصيير الله تعالى إياه إليهم. فأقريطش وغيرها من جميع الأرض لنا، بما خولنا الله منها، وأقامنا له فيها، أطاعنا منها من أطاعنا، وعصانا من عصى، وليس بطاعتهم يجب لنا أن نملك، ولا بعصيانهم يحق علينا أن نترك ، ولو كان ذلك لكان الأمر إليهم، لا لله تعالى الذي خولنا، ولا لنا إن شاؤوا أعطونا، وإن أحبوا منعونا كلّا إن ذلك لله تعالى الذي له ما في السموات وما في الأرض، فهو الذي أصطفانا، وملّكنا، وأعطانا، ولو كان ذلك للخلق لما وسعنا قتال من امتنع منهم علينا، ولا رد ما انتزعوه بالغصب من بين أيدينا إذ قدرنا الله على ذلك، وبه قوانا. فإن قلت أنت غير ذلك، وأنت ترى أن ما في يديك لك، فقد كان «رومانس» قد تغلب عليك وعلى أبيك من قبلك، ثم دارت لكما عليه الدائرة فإن رأيت أن من احتجز شيئاً، وتغلب عليه فهو له دون صاحب الحق الذي ملكه فلم يكن لك ولا لأبيك القيام على «رومانس» ولا انتزاع ما صار إليه من بين يديه. فهذه سبيل أهل الحق عندنا، فإن اعترفت لها فقد

---

(١) القرآن الكريم، «سورة الأنفال»، الآية ٥٨.

أنصفت، وإن جهلتها لم يكن جهلك إياها حجة على من عرفها، وعهدك أن تماديت على حرب من أناب إلينا منبوذ إليك، فانظر لنفسك، ولأهل ملتك. فإن مناجزوك وإياهم الحرب بعون الله لنا وتأييده، ولا حول ولا قوة إلا بالله».

«المعز لدين الله» وصقلية

عندما أرسى الفاطميون قواعد ملكهم في شمالي إفريقيا كما قلنا.. وجهوا اهتمامهم إلى جزيرة «صقلية» وكان هدفهم نزع يد الروم عنها، وجعلها قاعدة لأسطولهم الكبير، ومنطلقاً للهجمات على الروم، وإيقافهم عند حدودهم، ولكن طبيعة هذه الجزيرة، وتعدد الجنسيات التي تعيش على أرضها، واختلاف المناهج الحياتية كانت في أغلب الأحيان تهدد الأمن والاستقرار منها.

وقد كنا ذكرنا... إن هذه الجزيرة الكبرى ذات الأهمية الحربية القصوى استأثرت باهتمام عبد الله المهدي، منذ أن حط الرحال في بلاد المغرب وبعد أن ضمها لدولته الفاطمية سن قانوناً خاصاً بها يقضي بأن تبقى فيها حامية قوية تكون مهمتها منع أي اعتداء خارجي عليها من جهة، ومن جهة أخرى للوقوف في وجه التحركات الداخلية، والانتفاضات العنصرية والدينية التي كانت تنبعث من حين لآخر. وفي عهد الخليفة الفاطمي الثاني القائم بأمر الله. ظلّت على ارتباطها بالدولة الفاطمية، وتمكن القائم بأمر الله أن يطلق منها أسطوله أكثر من مرة إلى الشواطىء الرومية لشن الهجمات، وتعكير صفو الدولة المعادية. وعندما جاء المنصور بالله إلى سدّة الخلافة سنة ٣٣٦ هـ عيَّن عليها أمير البحر «الحسن بن علي الكلبي» ومنحه صلاحيات كبرى. فاستطاع الكلبي أن يوقف التحركات الأموية كما استطاع أن يهدد الروم، وأن يلقي الرعب في قلوب أهالي الجزء الغربي من البحر الأبيض المتوسط.

وقبل أن يتسلم المعز لدين الله شؤون الخلافة ـ أي في أواخر عهد الخليفة الفاطمي الثالث المنصور بالله، حدثت في صقلية منازعات داخلية بين المسيحيين والمسلمين، مما حدا بالمسيحيين أن يلجأوا إلى أباطرة الدولة البيزنطية طالبين إليهم إنقاذهم من حكم المسلمين، فاستجابوا لندائهم، وأرسل الأمبراطور قسطنطين الثامن جيوشه إلى هذه الجزيرة، فاشتبك مع الحسن الكلبي بمعارك عديدة كان النصر

في ختامها حليف الكلبي الذي استولى على أمهات مدن «قلوريا، وجراجة ،وصقلية».

ومن الجدير بالذكر أن قائد الروم قد قتل في هذه المعارك مما أرغم الأمبراطور على طلب الصلح، مع تعهده بدفع جزية كبرى عن قلوريا للفاطميين، وقد تمكن الكلبي وقتئذٍ من إقامة المساجد في المدن الرومية، والوقوف بوجه التحركات البيزنطية الشرقية.

وعندما تسلَّم الإمام المعز لدين الله شؤون الخلافة، نقض أمبراطور الروم الهدنة، ومعاهدة الصلح، وقد شجعه على هذا النقض الانتصارات التي حققها على العباسيين، والحمدانيين في المشرق، فاعتقد أن بإمكانه تحقيق مثلها في المغرب. لذلك أرسل سنة ٣٤٥ هـ حملة بحرية كبرى إلى صقلية، وركز هجومه للاستيلاء على «بالرمو» التي كانت موالية للمسلمين ففتحها بعد حصار طويل شاق، ثم أخذت انتصارات الروم تتوالى حتى وصل بهم الأمر إلى حد إرسال جيوشهم إلى صقلية حيث استولوا على «ترميني»، غير أن هذا الانتصار لم يدم طويلاً، لأن الحسن الكلبي كان على رأس جيش كامل العدة، والاستعداد، وكان أخوه عمار على رأس جيش آخر في «قلوريا» إلاَّ أن الحسن كان أكثر انطلاقاً، وجرأة، وتوفيقاً، فقد تمكن من إزاحة الخطر عن «ترميني» بسرعة، بينما عمار كان عرضة للمطاردة من مكان إلى آخر من قبل الروم، ولم ينقذه من هذا الوضع إلاَّ انضمام أخيه الحسن إليه سنة ٣٤٧ هـ، فقد استطاع عبور خليج «مسيني» بين صقلية، وقلوريا، والانضمام إلى جيش أخيه عمار، ثم انطلقا معاً يدقان أبواب مدن قلوريا الواحدة بعد الأخرى، وكانت إمدادات المعز لدين الله تتوالى عليهما، حتى اضطر الامبراطور البيزنطي إلى إرسال موفد من قبله يطلب هدنة جديدة، ويدخل في بنودها دفع الجزية إلى الفاطميين من قبل أهالي قلوريا.

إلى هنا وتنتهي المرحلة الأولى من حروب «المعز لدين الله» مع الروم في صقلية، ولكن الأمبراطور قسطنطين لم ينم على الثأر، بل اتفق مع «عبد الرحمن الناصر» الأموي صاحب الأندلس على توحيد الجهود ضد الفاطميين ، ولكن المعز لدين الله استطاع إحباط هذه الخطة، وتمكن من إحراز الانتصارات الساحقة على الروم في البحر الأبيض

المتوسط، وعلى الأمويين مما اضطر الأمبراطور أخيراً إلى طلب الصلح من المعز لدين الله لمدة خمسة أعوام.

كان الحسن الكلبي «أمير البحر» يحكم جزيرة صقلية عندما تولّى الخليفة الرابع المعزّ لدين الله الخلافة سنة ٣٤١ هـ. وكنّا قد ذكرنا بأن المنصور بالله هو الذي عيّن الكلبي حاكماً لما عهده من أمانته وقدرته، ولكن المعزّ لدين الله خاف استقلال الحسن بالجزيرة والتمرد عليه، فهو قد بلغ من السلطان مبلغاً بات معه يصدر الأوامر دون الرجوع إلى الخليفة، وكل هذا حفّز الإمام المعز لدين الله إلى اتخاذ الخطوة الوقائية الأولى، فأشرك معه بالحكم أخاه عمار، وبعد فترة قصيرة عين ولديهما «أحمد بن الحسن»، «والحسن بن عمار» نواباً عنهما، واحتفظ بالأبوين، في عاصمة الدولة الفاطمية «المنصورية» متخذاً منهما مستشارين للدولة، ولكن ثبت أن هذه الأسرة العربية ذات التاريخ المجيد ظلت على ولائها، وحافظت على علاقاتها الطيبة بالفاطميين، فلم يحدثنا تاريخها أن أحداً من أبنائها، حتى بعد انتقال الفاطميين إلى مصر فكر بالعصيان، أو نقض العهود.

بالرغم من أن نفوذها الواسع وسيطرتها بلغا من القوة حداً جعل أكثر المؤرخين يطلقون على أفرادها إسم «ملوك صقلية».

ولكن حذَرَ الحسن الكلبي ويقظته البالغة، قد كان من أمرهما خروجه عن الطور وبطشه بأهل الجزيرة من الروم لضمان ولائهم للدولة ولكن الشدة لم تؤد إلّا إلى قيام معارضة عنيفة قمعها الحسن بقسوة دفعت الروم إلى إيفاد بطارقتهم يستغيثون الإمبراطور البيزنطي في القسطنطينية، فوجّه قسطنطين الثامن، على رغم انشغاله بمحاربة العباسيين، جيشاً إلى صقلية فاستولى على كبرى مدنها فتصدى له الحسن الكلبي ودارت حرب سجال حتى عقدت بين الطرفين ، هدنة لم تعش طويلاً، لأن قسطنطين الثامن، وقد أسكرته انتصاراته على العباسيين والحمدانيين في المشرق، أمّل نفسه بانتصارات مشابهة في صقلية، فبعث سنة ٣٤٥ هـ حملة بحرية وأخرى برية على «بالرمو»، فسقطت وتلتها «قلورية» و «ترميني» حتى «صقلية»، ولكن الحسن الكلبي سرعان ما انقض على الجيش الغازي بهجوم مضاد فدحره وأجبره على العودة إلى «قلورية».

وهكذا انتهى الفصل الأول وملحقاته من الحرب الدامية بين العرب

والروم، ويأتي الفصل الثاني والأخير، وهو يحمل عودة الحرب بشكل أكثر عنفاً، وذلك عندما نقض الروم الهدنة من جديد. . ومن الجدير بالذكر أنهم خلال تلك الفترة قاموا بمفاوضات سرية مع «عبد الرحمن الناصر» الأموي صاحب الأندلس، وقدموا له شتى المغريات للتحالف معهم ضد الفاطميين، ولكن هذه الخطة لم يكتب لها النجاح، لأن الأمويين كانوا يحسبون حساباً للجيوش الفاطمية التي تمركزت في المغرب على حدود دولتهم، وعندئذٍ كان لابدّ للروم من خوض المعركة الحاسمة التي أفاض المؤرخون، وأشادوا بانتصارات العرب فيها بأحرفٍ من ذهب، ودوّنوها على صفحات التاريخ.

ففي سنة ٣٥١ هـ. أصدر المعز لدين الله مرسوماً يقضي بتعيين «أحمد بن الحسن الكلبي» قائداً وحاكماً على القطاع الشرقي من الجزيرة، كما عهد إلى ابن عمه «الحسن بن عمار» برتبة الحاكمية والقطاع للقطاع الغربي، على شرط أن يتعاونا، ويخضعا لمشورة والديهما، وهذا التدبير شجّع أحمد على استئناف الحرب فزحف باتجاه قلعة «طبرمين» التي تعتبر من أمنع قلاع صقلية، فاستولى عليها، ولم يستجب لسكانها الروم الذين أعلنوا خضوعهم وتعهدهم بالعيش بهدوء تحت حماية العرب، بل عين عليها حاكماً من قبله وسماها «المعزية» ثم توجه إلى «رمطة» سنة ٣٥٢ هـ. حيث فرض عليها الحصار.

هذا الانتصار الجزئي لم يرق للأمبراطور «نقفور فوكاس»، وساءه خروج سكان «طبرمين» وتشريدهم، فأعد أسطولاً وجيشاً قدر عدده بخمسين ألف محارب، وعهد بقيادته إلى «مانويل» القائد ـ البيزنطي المشهور، مع الأوامر إليه باحتلال الجزيرة، وإخراج العرب منها مهما كلف الأمر، وعندما علم ـ المعز لدين الله بنبأ وصول طلائع هذه القوات إلى صقلية، استنفر أسطوله الثاني المرابط بالمهدية، وأرسله مع الإمدادات والقوات، ولكن كل هذا لم يحل دون تقدم الروم والاستيلاء على «مسينا» التي تبعد تسعة أميال عن «رمطة» كما لم يوقف زحف الروم أخيراً على «ترميني» والسيطرة عليها، والوصول بعد ذلك إلى النقطة التي تمكنوا فيها من قطع الطريق على النجدات التي كانت ترسل إلى «الحسن بن عمار» الذي كان يفرض الحصار على «رمطة» كما ذكرنا..

ومن الواضح أن خطة الروم كانت ترمي إلى إنقاذ هذه المدينة المحاصرة والقضاء على جيش «الحسن بن عمار» الذي يخيم على مقربة منها... ولهذا اندفعوا نحوها كالسيل المنهمر.. وأدرك الحسن وهو في موقفه هذا الأخطار التي تنجم عن هجوم الروم الكثيف، ولكنه كان عاجزاً عن اتخاذ أي قرار يكفل له الانتصار في أية معركة، لأن قوته الصغيرة لا تستطيع الثبات طويلاً في المجال أمام قوات الروم الكثيفة، لا سيما والإمدادات لا يمكن لها أن تصل إليه، وعندما ألحّ على ابن عمه بالإسراع في نجدته خف إليه، ولكنه اصطدم بقوات الروم تقف بينه، وبين تحقيق الاتصال، مما اضطره إلى التراجع ومهاجمة «ترميني» وكان غرضه إشغال جيش الروم، وتخفيف الضغط عن ابن عمه الحسن.

وقف الحسن بن عمار وحيداً أمام جحافل الروم المندفعة نحوه وقفة الشجاع الذي لا ترهبه القوى مهما بلغت من الكثرة. فقسّم جيشه الصغير إلى أربعة كتائب، أناط بالأولى حصار «رمطة» ومنع أهلها من الخروج للمساهمة في القتال، كما عهد إلى الثانية، والثالثة المرابطة على رأس الوادي من الجهتين الشمالية والجنوبية، وكان الروم قد قرروا اتخاذ هذا المكان منطلقاً للوصول إلى المدينة المحاصرة. أما الكتيبة الرابعة فجعلها تحت قيادته، وقرر أن يقابل بها «مانويل» ويجره للدخول معه في معركة حاسمة رغم معرفته أنه دون العدو عدداً وعدة، وعندما دقت الطبول معلنةً الهجوم تقدم الحسن إلى الساحة حاملاً شعار عدم التراجع، ولكن الأمر لم يلبث أن عظم عليه في الخطوة الأولى، فتراجع مع جيشه حتى لحقوا بخيامهم، ومرَّت لحظات عليهم أدركوا خلالها بأن الموت سينزل بهم إذا استمروا في موقعهم هذا... فتنادوا من جديد، وفضلوا الموت في الحومة على الموت في الخيام، فتقدموا من جديد، وثبتوا فترة قصيرة في الساحة ثم اندفعوا بعدها باتجاه قلب جيوش الروم رغم قلتهم، فجاء اندفاعهم هذا مفاجأة غير متوقعة للروم.

وعندما دب الهلع في نفوسهم، أدرك «مانويل» الخطر الذي ينتظره، فبرز إلى المجال متقدماً الصفوف، ومثيراً الحماس في نفوس جنده، ومحذراً من الهزيمة أمام هذه القلة من العرب، ولكن الحسن ظل على تقدمه واندفاعه حتى دخل في قلب جيش الروم ، فأحكم السيف في

رقابهم، وما زال يتقدم الصفوف حتى أحاط بمانويل، فبارزه، وفي الجولة الأولى تمكن من عقر فرسه وإسقاطه وقتله، فجاء هذا الظفر السريع مفاجأة للروم، فارتعشت قلوبهم، وارتبكت صفوفهم، ولما لم يجدوا أمامهم أية بارقة أمل.. أركنوا إلى الفرار لا يلوون على شيء، وحالت العواصف والأمطار في تلك اللحظات الحاسمة بينهم وبين النجاة، ووقع سوادهم الأعظم في الأسر، وقتل جماعة من البطارقة وكثرت الأسرى والغنائم في أيدي الجيوش العربية.

يقول المؤرخ ابن الأثير في هذه المعركة:

«انهزم الروم أقبح هزيمة، وأكثر العرب فيهم القتل، ووصل المنهزمون إلى جرف خندق عظيم كالحفرة، فسقطوا فيه من خوف السيف، فقتل بعضهم بعضاً حتى امتلأت الحفرة العميقة، وكانت الحرب قد شبت من بكرة الصباح حتى العصر، وبات العرب يقاتلون في كل ناحية، وغنموا من السلاح والخيل، والأموال ما لا يحد، وكان في جملة الغنائم سيف هندي مكتوب عليه:

«هذا سيف هندي وزنه مئة وسبعون مثقالاً طالما ضرب بين يدي رسول الله (ص)» فأرسل إلى الخليفة المعز لدين الله مع الأسرى.

ومما تجدر الإشارة إليه.. أن الحسن بن عمار تلقى جيش الروم وحده، ونال شرف الانتصار على هذا الجيش دون أية نجدات من ابن عمه الذي لم يستطع الوصول والمساهمة بواجب الجهاد، وقد غنم منهم ما لم يكن يدور بخلدة من الأسرى، والغنائم التي لا تقع تحت حصر، ومما لا يخفى أن تلك المعركة قررت مصير «رمطة» وصقلية نفسها. فالروم بعد هذه الهزيمة المنكرة، تراجعوا نحو الساحل لاجئين إلى أسطولهم للاحتماء به، تاركين حماة «رمطة» يلاقون حتفهم وحدهم، فقد ضيق عليهم العرب الحصار حتى اضطروهم إلى إخراج نسائهم وأطفالهم للاستنجاد وطلب الرحمة، فعاملهم ابن عمار معاملة طيبة، ومنع أحداً من الإساءة إليهن.. أما أحمد بن الحسن فعندما علم بهزيمة الروم، اندفع نحو مسينا، وكانت خطته ترمي إلى قطع خط الرجعة عليهم، ولكن المعلومات التي وصلت إليه أفادت بذهابهم إلى جزيرة «ريو» للالتحاق بالسفن التي أعدت لنقلهم إلى القسطنطينية، فلحق بهم، وهناك خاض معهم معركة «المجان» التي وصفت بأنها لا تقل أهمية عن موقعة «رمطة»

فقد تجلت فيها الشجاعة والتضحية بأجلى مظاهرها، فقد زحف «أحمد بن الحسن» إليهم في الماء، وقاتلهم قتالاً لم يروا مثله، فكان أفراد جيشه العربي يلقون أنفسهم في الماء، ويسبحون حتى يصلوا إلى المراكب الرومية فيغرقونها، أو يحرقونها حتى لم يُبقوا على أحد منهم، وذكر أن قائدهم الثاني وقع في الأسر، وأرسل مخفوراً إلى «المنصورية».

بعد هذه الانتصارات الباهرة.. أخذت المدن الثائرة في صقلية تستسلم الواحدة بعد الأخرى مما جعل الروم يعودون إلى صوابهم، وإلى اتباع خطة الاستسلام، فهرعوا إلى المعز لدين الله لطلب الصلح، وتحسين العلاقات.

وكل هذا عزَّز مواقف الفاطميين، وأفسح المجال أمام المعز لدين الله لإرسال الحملة الكبرى بقيادة «جوهر الصقلي» و «جعفر بن فلاح» بحيث تمكنا من الاستيلاء على مصر، وفلسطين، وبلاد الشام.

تقلَّد شؤون صقلية في عهد المعز لدين الله أربعة من الولاة أولهم «الحسن بن أحمد الكلبي الذي عينه المنصور بالله ، ومن المعلوم أن المعز لدين الله قد أقرّه في منصبه، وبعد فترة استدعاه إلى المنصورية، وولّاه منصباً كبيراً، وأناب عنه ولده أحمد، كما أشرك مع هذا الأخير ابن عمه «الحسن بن عمار» بطل معركة «رمطة». ويظهر أن المخاوف ساورت المعز لدين الله من أن تستبد الأسرة الكلبية بالجزيرة، وتعلن استقلالها، وانفصالها.. وقد برز هذا جلياً عندما ولى المعز لدين الله ـ «يعيش» سنة ٣٥٨ هـ. مكان «أحمد بن الحسن الكلبي» وقد كان استدعاه، وسائر أفراد أسرته إلى «المنصورية» مبرراً هذا التدبير بقوله:

إننا بحاجة إلى هؤلاء الأبطال للمشاركة بفتح الديار المصرية، ولكن «يعيش» هذا لم يستطع الاستمرار بحكم صقلية، وخاصة بعد أن انفجر القتال بين كتامة والعرب، فعمّت الاضطرابات ـ وتفاقمت الحروب الأهلية. وعندئذٍ أدرك المعز لدين الله بأنه لابد من إعادة «أحمد بن الحسن» إلى الجزيرة، فعاد مزوداً بالصلاحيات الكافية. فبالإضافة إلى الولاية على صقلية منح رتبة إمارة الأسطول كما أناب عنه أخاه «أبا القاسم بن الحسن» وأبقى «محمد بن الحسن» في

المنصورية حيث عهد إليه بمنصب رفيع... ومما تجدر الإشارة إليه أن أبا القاسم ظل في صقلية حتى سنة ٣٧٢ هـ. أي حتى خلافة الخليفة الفاطمي الخامس العزيز بالله.

وقبل أن نختم حديثنا عن هذه الأسرة نقول:

بأنها قد ظلت على ولائها للدولة الفاطمية حتى آخر أيامها، وبالمقابل فإن الفاطميين قدروا خدماتها وولوا العديد من أفرادها المناصب الرفيعة في المغرب ثم في مصر أخيراً بعد أن ضمَّها الفاطميون إلى دولتهم.

«من المغرب إلى المشرق»

بعد الانتصارات الرائعة التي حققتها قوّات الفاطميين في صقلية، وعلى شواطىء، ومرافىء بلاد الروم، وبعد رضوخ المغرب الأوسط والأدنى والأقصى ، واستقرار الأمور في تلك الربوع، أخذ المعز لدين الله يفكر بالمشرق... بمصر... بفلسطين ، بالشام.. وكانت الأخبار تأتي إليه مصدقة عن تردي الأوضاع في الدولة العباسية، وعن حالة الفوضى التي تسود البلاد العباسية عامة، مما يجعلها عاجزة عن صد أية تحركات عسكرية، أو هجمات تشُن من قبل المتربصين، والمغيرين. فالدولة العباسية كانت في تلك الآونة تعاني الوهن، والشيخوخة، وتعاني تدخل العناصر الغريبة في شؤونها، وخاصة الأتراك الذين أصبحوا بين عشية وضحاها الحكام الأصليين. أما الخلفاء العباسيون فكان حالهم كما قال الشاعر:

خليفة في قفص بين وصيفٍ وبغا
يقول ما قالا لهُ كما تقول الببغا

ففي تلك الفترة قام صاحب الزنج في إقليم البصرة، وجنوبي فارس الغربي معلناً ثورته المشهورة، كما قام القرامطة بثورتهم الدموية فألحقوا الذعر في بلاد الشام، وباديتها، وحدود العراق. ثم هاجموا بغداد في نهاية المطاف، وكادت العاصمة الكبرى تسقط في أيدي «أبي طاهر الجنابي القرمطي» سنة ٣١٥ هـ. كما استطاع «علي بن الفضل» و«ابن حوشب» داعيا الفاطميين أن يخرجا اليمن عن طاعة ـ العباسيين..

ويجب أن لا ننسى قيام دويلات مستقلة في أرجاء الدولة العباسية... كالدولة «الصفّارية» ، و «السامانية» اللتين استطاعتا انتزاع جزء كبير من أراضي الدولة في أقصى المشرق، كما يجب أن لا ننسى «الطولونية» و «الإخشيدية» وانتزاعهما مصر والشام، وتأتي الدولة الفاطمية في نهاية المطاف لتنتزع المغرب أو أراضي شمالي إفريقيا كافة. أما «الحمدانيون» فقد شاركوا العباسيين حكمهم وخاصة في الموصل، وحلب.. وأهم من كل ما ذكرناه استبداد «بني بويه» بالسلطة لدرجة أن أمور الدولة صارت خاضعة لهم، حتى أن تنصيب الخليفة وعزله كان في أيديهم، وقد وصف أحد المؤرخين أوضاع العباسيين بقوله:

لم تكن حالة الضعف التي وصلت إليها الخلافة العباسية راجعة إلى السياسة فحسب بل تعدتها إلى الدين أيضاً، فقد ظهرت في بغداد مذاهب دينية كان أهمها: أنصار «ابن حنبل» وغيرهم، وهؤلاء كانوا يروجون، ويسيئون الظن بالعباسيين، ويعيبون عليهم انهماكهم بالملذات، وشرب الخمر، والاستهانة بالدين وقواعده.

وإلى هذا وذاك فإن خطراً أشدّ وأقسى من كل ما ذكرناه كان محيقاً بالدولة العباسية وأعني به خطر البيزنطيين، الذين توغلوا في أراضيها، وتمكنوا من الاستيلاء على حلب سنة ٣٥١ هـ. وعلى المصيصة ـ وطرسوس، وإنطاكية، ثم الرها،وديار ـ بكر، وميافارقين، ونصيبين. فهذه الأوضاع وضعها المعز لدين الله نصب عينيه، وكان دعاته المنتشرون في كل مكان يوافونه بتقارير شاملة ومفصلة عنها. أما مصر فكان الضعف، وسوء الأحوال العامة قد أخذا يحلان في أرجائها، وذلك منذ وفاة الإخشيد سنة ٣٣٤ هـ. وخاصة حينما قام كافور واستبد بالحكم، وبالرغم من أنه قضى على الانتفاضات الداخلية، وانتصر على الحمدانيين في الشام، فإن ذلك لم يوطّد الأمن في بلاده، ولم يؤمن الهدوء والاستقرار.

أجل.. استقل كافور بحكم مصر سنة ٣٥٥ هـ. وفي أواخر عهده انقسمت جيوشه إلى فريقين : فريق الإخشيدية الذي يناصر بيت الإخشيد الأصيل، والفريق الكافوري الذي انحاز إليه. ومن الجدير بالذكر أن المعز لدين الله أرسل من المغرب في تلك الفترة جيشاً قبل

إنه جيش طليعة، فوصل إلى الواحات، ولكن كافور أخرجهم وردهم على أعقابهم، وطمع القرامطة في بلاد الشام، فهاجموها مرتين أي سنة ٣٥٣ هـ و سنة ٣٥٧ هـ وقد أدرك كافور قبل موته ما أصاب بلاده من نكبات، ولم يستطع مكافحة الغلاء، وإيقاف الأمراض والأوبئة التي كانت تحصد الناس وترمي بهم في الأزقّة، دون أن يستطيع أحد تكفينهم ومواراتهم... وذكر: أن الجنود تنكروا للحكم القائم بعد أن أعلن كافور عجزه عن دفع مرتباتهم وازدادت الأمور سوءاً عندما غزا أمـراء النوبـة مصر الجنوبيـة، وأشرفـوا على «أخميم».

وبعد وفاة «كافور» اضطربت الأحوال السياسية أيضاً، فلم يستطع الخليفة العباسي أن يولي على مصر من يشاء، لذلك اجتمع رجال البلاط الإخشيديين، واختاروا «أحمد بن على الإخشيـدي ـ أبو الفوارس» وكان له من العمر أحد عشر عاماً، وجعلوا ولايته وقفاً على «الحسن بن عبد الله بن طغج» غير أن هذا الأخير لم يبق في مصر طويلاً، فعاد إلى الشام، وقبض على الوزير «جعفر بن الفرات» وترك مصر تنعي أهلها وترزح تحت المصائب والأهوال، وعندما عاد ابن الفرات، وتسلّم إدارة البلاد، لم يستطع ضبط الأمور، وظلت الفوضى ضاربة أطنابها في كل مكان.

هذه الصورة، وهذا الواقع عرفه المعز لدين الله، وله في ذلك قول مشهور:

«والله لو خرج جوهر الصقلي هذا وحده لفتح مصر، وليدخلن مصر بالأردية من غير حرب ولينزلن في خرابات ابن طولون، ويبني مدينة تسمّى «القاهرة» فتقهر بني العباس».

وذكر المؤرخ المقريزي هذه القصة التي تعطي الدليل على تردي الأوضاع والفساد الاجتماعي والأخلاقي في مصر.. فقال:

«وجهت أم الأمراء من المغرب صبية ربتها لتباع في مصر، فطلب الوكيل فيها ألف دينار ولكن امرأة شابة قدمت على حمار، فلم تزل بها حتى اشترتها بستمائة دينار.. وقيل للوكيل يا مغربي:

هذه بنت الإخشيد اشترت الجارية لكي تتمتع بها، فلما عاد الوكيل إلى المغرب أخبر المعز لدين الله بالقصة. فأمر بإحضار كبار رجال الدولة، وحدثهم بخبر الحادثة وقال:

«يا إخواننا.. انهضوا إلى مصر، فلن يحول بينكم وبينها شيء. فإن القوم قد بلغ بهم الترف إلى أن صارت امرأة من بنات الملوك فيهم تخرج بنفسها وتشتري جارية تتمتع بها. وما هذا إلَّا من ضعف نفوس رجالهم وذهاب غيرتهم. فانهضوا لمسيرتنا إليهم. فقالوا السمع والطاعة».

عودة إلى القرامطة

بعد أن قضى العباسيون على ثورة القرامطة الأولى التي قادها قرامطة السواد. والعراق، والشام بقيادة «آل زكرويه» تلك الثورة الإرتجالية التي خرجت على القواعد! والأعراف، والسنن، والقوانين ـ فأجرت الدماء، وخربت المدن، وأشاعت القلق، وقتلت الأبرياء، وكنا ذكرنا أنها قامت بعد سلسلة من الجرائم ارتكبتها أسرة «آل زكرويه» بحق زعماء آخرين من القرامطة، ثم أعلنت أخيراً انفصالها عن الدعوة الإسماعيلية الأم التي كان يرأسها «عبد الله المهدي» فاضطرته إلى مغادرة وطنه، والالتحاق بالمغرب، وبعد ذلك زحف إلى سلمية في سورية، فأحاطت بالأسرة الفاطمية، ودمرت كل ما وقعت عليها أيديها.

هذه الثورة غير المدروسة لم يقدَّر لها الاستمرار طويلاً، لأنها قامت على العنف وارتكاب الجرائم، والأعمال الوحشية، وسفك الدماء البريئة دون أي تخطيط، أو منهاج مدروس. وبعد أن كاد الزمن يمحي من الأذهان ذكرى تلك الثورة العنيفة، قامت ثورة قرمطية أخرى في بلاد البحرين، فلعبت دوراً بارزاً على مسرح العالم العربي، وفي البلاد الإسلامية، ولكن أعمالها كانت أكثر تنظيماً، وتركيزاً من الثورة الأولى، ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه الثورة الجديدة كانت تقودها أسرة «آل الجنابي» البحرانية، وهذه الأسرة لم تلبث أن انقسمت على نفسها فذهب فريق يؤيد الفاطميين، وارتأى الفريق الآخر وكان يطمع بالزعامة والإستقلال بالعمل، عدم الانصياع إلى أوامرهم. والتجأ إلى العباسيين متخذاً منهم أداة لنصرته. وهكذا استمرت المنازعات بين الأسرة الواحدة على الزعامة وقتاً طويلاً، ولولا ذلك لتغيرت خارطة البلاد الإسلامية.

أجل.. كان «أبو سعيد الجنابي» رأس الأسرة الحاكمة، وقد ظهرت زعامته في عهد الخليفتين الفاطميين الأول والثاني أي عبد الله المهدي، والقائم بأمر الله. ومن الجدير بالذكر أنه كان موالياً

للفاطميين. ولكنه قتل في ظروف غامضة. وبعد موته حيل بين ابنه سعيد وبين القيادة العامة، فتولى «أبو طاهر الجنابي» قيادة وزعامة القرامطه من سنة ٣٠٥ هـ. حتى وفاته سنة ٣٣٢هـ.

وبعد موته قام الفريق المعارض من القرامطة، وطالب بالحكم على اعتبار أن أبا طاهر لم يترك من الأولاد من يصلح للقيادة، فابنه «سابور» كان طفلاً، فتولى القيادة «أحمد بن أبي سعيد» وهو شقيق «سعيد» وقد لاقت قيادته معارضة كبرى وبعد ذلك سمي «سابور بن أبي طاهر» لولاية العهد. وهكذا انقسم القرامطة إلى فريقين:

فريق أبناء أبي طاهر، ومعهم عدد كبير من وجوه وأعيان القرامطة، وفريق أبناء أبي سعيد، ومن انضم إليهم من الأتباع، وسارت الأمور فترة طويلة على هذا المسار. حتى شعر ولي العهد سابور بأن عمه «أحمد بن سعيد» قد استأثر بالحكم دونه، وأنه أخذ يتصرف بالأمور دون أن يأخذ - رأي أبناء أبي طاهر، وقد تجلى كل ذلك بإسناده قيادة الجيوش القرمطية إلى ولده «الحسن بن أحمد» الملقب «بالأعصم» وهو الذي حقق انتصارات مبدئية في عمان، وطبرية، ودمشق وغيرها من البلدان، ولكن كل هذا لم يمنع قيام جماعة «سابور» للمطالبة بحقهم في الحكم، ووصل بهم الأمر إلى حد عزل «أحمد بن سعيد» سنة ٣٥٨ هـ، ولكن «سابور» لم يلبث أن اغتيل إثر ذلك، وعاد أحمد إلى الحكم من جديد، وتمكن بعد مقتل «سابور» من نفي إخوته، وأشياعه إلى جزيرة «وال» في الخليج العربي وهكذا خسر الفاطميون أتباعهم ، وأصبح القرامطة يدينون بالطاعة إلى الفريق المستقل من آل الجنابي الذي أظهر ميلاً للعباسيين انتقاماً من مواقف أبناء عمه الموالين للفاطميين.

وفي سنة ٣٥٩ هـ. مات «أحمد بن سعيد». فتولى القيادة بعده ولده «الحسن الأعصم» فحكم من سنة ٣٥٩ هـ حتى سنة ٣٦٧هـ، وقد كثرت وقائعه وحروبه. وممّا تجدر الإشارة إليه أن الأعصم تمكن من استئصال شأفة أبناء أبي طاهر، واستقل بالأمر، وأصبح القرامطة في عهده سادة على البلاد الممتدة من شاطىء الخليج العربي غربي عمان حتى مصب نهري دجلة والفرات، بالإضافة إلى الصحراء. كما

أصبحوا سادة على بلاد الشام وفلسطين، وأصبح حكام الشام الإخشيديون في دمشق يدفعون له الجزية أو ما يسمى بالغرامة.

الأعصم على أبواب القاهرة «المعزية»

قبل أن نتحدث عن مغامرات «حسن الأعصم» القرمطي... نرى لزاماً علينا أن نعود إلى ما قبل الأعصم، بالرغم من أن ما سنقوله الآن نعتبره مكرراً، ولكنه لا يخلو من الفائدة ... فمن المعلوم أن «الحسن بن بـهرام الجنابي» جاء من البحرين إلى سواد الكوفة، وأقام فيها فترة من الوقت، وهناك تزوج فتاة من عائلة في السواد تسمَّى «آل القصار» وكانت ممن استجاب للدعوة الإسماعيلية... في تلك الفترة التقى الداعي «عبدان» بالحسن، فتحدث إليـه وبعد لقاءات عديدة، تمكن من التأثير عليه، واستقطابه.. وأخيراً إدخاله في الدعوة الإسماعيلية وإسناد رتبة كبيرة إليه في الدعوة.. فذهب إلى الأقطار داعياً، وكان نزوله في أول انطلاقه في «القطيف» فدعا أهلها إلى الانضمام إلى الإسماعيلية، وكان أول من استجاب، وانضم إلى صفوف الدعوة «آل سـنبر» وهي أسرة عربية عريقة في منطقة السواد، وبعضهم كان قد اعتنق الفكرة الإسماعيلية منـذ زمن متقدم، وربما كان ذلك على يد الداعي «أبي زكريا» وهو أحد دعاة «حمدان» المولج بمنطقة «البحرين».

هذا ما أورده المؤرخ المقريزي. ولكن الحقيقة التي لا ريب فيها أن آل الجنّابي اعتنقوا المبادىء الإسماعيلية في زمن مبكر أي منذ عهد الإمام «عبد الله بن محمد بن إسماعيل»، وعندما جاء «الحسن بن بهرام الجنّابي» إلى سواد الكوفة كان مجيئه لزيارة الدعاة، والتعرف إليهم، وإجراء اتصال وثيق بين الإقليمين، ثم توحيد الجهود للنهوض بالحركة، أو للتذاكر بمصلحة الدعوة العامة، كما تقضي المبادىء الإسماعيلية التي كانت تحتم على الدعاة عقد اجتماعات دورية عامة برئاسة داعي الدعاة، وربما كان ذلك مرة في العام.

إنَّ «الحسن بن بهرام» كان مؤمناً بأسـاليب القوة كغيـره، ومن المتحمسين للفكرة الثورية، ولهذا عكف على تنظيم جيش كبير. وبعد ذلك لم يلبث أن أعلن قيام الدولة القرمطية في البحرين والإحساء، ثم

أخذ يغزو البلدان المجاورة التي أبت السير في ركابه، فكان ينتقل من بلدة إلى أخرى داعياً أهلها إلى الدخول في الدعوة فاستجاب الكثير منهم، وفرَّ منه خلق كثير إلى بلدان شتى، ولم يمتنع عليه غير «هجر» التي كانت عاصمة البحرين ومركز التجارة والأغنياء. فنازلها شهوراً عديدة، كان في خلالها يقاتل أهلها قتالاً عنيفاً.

وبعد أن عجز عن فتح هجر انتقل منها إلى الإحساء فاحتلها وابتنى فيها منزلاً للدولة، كما جعلها عاصمة لهذه الدولة، وهناك أخذ بتنظيم الزراعة والتجارة والعمران، على أسس عادلة متساوية من الإشتراكية البناءة، والمساواة، والإخاء، مما جعل القبائل البدوية العربية تسرع إلى الانضواء تحت لواء جيشه، وتجند أفرادها لغزو «بني عقيل» فظفروا بهم، وتمكنوا من إدخالهم، تحت الطاعة، كما حارب تحت لوائه أيضاً «بنو ضبَّة» فظفروا بهم، وأخذوا منهم خلقاً كثيراً.

نجح «الحسن بن بهرام» نجاحاً كبيراً في تكوين دولة «قرمطية» مستقلة في بلاد البحرين، وهذه الدولة وقفت موقف المتفرج من العباسيين عندما قتلوا «زكرويه بن مهرويه» زعيم قرامطة السواد ، فلم يتأثروا ولم يتحركوا، ولم يقدموا أية إمدادات، أو مساعدات. وكان على هؤلاء المؤرخين الذين حاولوا التفريق بين الفئتين أن يدرسوا حالة قرامطة البحرين آنئذٍ ومدى قوتهم واستعدادهم. فهم في الحقيقة كانوا في تلك الفترة غير مهيئين للدخول في معارك عسكرية، كما أن موازنتهم التي كانت في طور الإنشاء لم تتحمل إمداد جيش قرامطة السواد، ولهذا فضلوا التريث حتى يحين الوقت المناسب، وعندما أكملوا استعداداتهم، وأصبحت لهم القدرة على شن الحروب، زحفوا إلى ميادين القتال في أرجاء الدولة العباسية يقتلون، وينهبون، ويدمرون، وهم يحملون رايات الثأر، والانتقام لقرامطة السواد إخوانهم في الدعوة.

شعر العباسيون أمام الإنتصارات البدائية الباهرة التي أحرزها الحسن بأن الأخطار عادت من جديد، وأن جحافل القرامطة الزاحفة بعناد. والمستيقظة في كل أجزاء ـ الوطن العربي والإسلامي، لا بد من إيقافها بأية طريقة كانت. وخاصة بعد أن أخذت الدولة الفاطمية في

المغرب تتقدم في فتوحاتها نحو المشرق. وهي تنهج نهجاً يقضي بالتوسع والفتح والانتشار وكانت بغداد غايته الأساسية.

وبعد أن تسلَّم «سليمان بن الحسن بن بهرام الجنّابي» أبو طاهر شؤون الدولة القرمطية في البحرين بعد والده الحسن سنة ٣١٠ هـ. زحف بجيشه واحتل مدينة «البصرة» ومنها تقدم إلى «الإحساء» فاحتلها أيضاً، وفي تلك الأثنـاء عين العباسيون من قبلهم «عبد الله ابن حمدان» عاملاً على الكوفة والسواد وطريق مكة، فزحف بجيشه في إثر القرامطة، والتقى معهم في معركة على الطريق المؤدي إلى مكة، وفي الجولة الأولى انهزم جيشه، ووقع أسيراً. ولكن أبا طاهر أطلق سراحه فيما بعد فجاء إلى بغداد، وفي سنة ٣١٢ هـ. زحف جيش آخر من بغداد لقتاله، وحجة العباسيين أنهم جاءوا لحماية الحجاج. فنازلهم أبو طاهر قرب الكوفة، وهزمهم، ثم قتل قوادهم، ودخل الكوفة وتمركز فيها. وفي سنة ٣١٥ هـ. خرج أبو طاهر من الكوفة لقتال «ابن أبي الساج» الذي كان يقود جيشاً عباسياً حديثاً بتنظيمه كبيراً بعدده، فالتقى معه في واسط وفيها أراد «ابن أبي الساج» أن يقوم بحيلة مستهدفاً من ورائها القضاء على القرامطة، فأرسل من يبلغ أبا طاهر رغبته بالاتفاق معه، والسير إلى بغداد، للقضاء على الدولة العباسية، فأعلن أبو طاهر موافقته على طلبه، وجاء إلى الكوفة حيث تمركز فيها، وجعلها نقطة الإلتقاء.

وأقبل ابن أبي الساج للالتقاء به، ولكن أبا طاهر كان أكثر ذكاءً ودهاءً ، إذ فاجأة بالقتال، وهزم جيشه هزيمة منكرة، كما قتل منهم خلقاً كثيراً، وظل يتتبعهم حتى ضواحي بغداد، فسار ابن أبي الساج باتجاه الفرات الغربي، بعد أن جهَّز جيشاً ثانياً، وسار حليفه الوزير «مؤنس» باتجاه الفرات الشرقي، وكان أبو طاهر حينئذٍ قد وافى الرحبة، وهنا أخذ مؤنس يتظاهر بالتقرب إليه، وبدأ يحتال بإرسال زوارق فيها الفاكهة المسمومة إلى جيشه. فكان القرامطة يصادرونها، ويأكلونها. فكثر عدد الأموات بينهم، وكان هذا سبب تراجعهم إلى الكوفة حيث دخلوها منهوكين. وفي سنة ٣١٦ و سنة ٣١٧ هـ رحل بجيشه فوافى مكة ونهب الكعبة، وجاء بالحجر الأسود، وفي سنة ٣١٩ هـ. عاد إلى الكوفة وتمركز فيها مدة خمسين يوماً،

ثم غزا ساحل البحرين، وفي سنة ٣٣٠ هـ نقل الحجر الأسود إلى الكوفة، وفي العام نفسه هاجم بغداد، ولكنه لم يتمكن منها، وكان على جناحي جيشه الداعيان: عيسى بن موسى، والحجاري.

مات «سليمان بن الحسن الجنابي، أبو طاهر» وكان أولاده لا يصلحون للحكم، فتسلم الحكم أخوه سعيد، وبعد فترة تم ابعاده عن رئاسة القرامطة، فتولى أخوه «أحمد بن الحسن بن بهرام» القيادة العامة، وعين ابن أخيه «سابور بن سليمان» وصيّاً له ولقّبه ولياً للعهد. وهنا وقع الأمر الذي لا بد منه، فانقسم القرامطة إلى فريقين:

فريق أبناء سليمان وعلى رأسهم سابور وعمه أحمد، ومعهم كبار القرامطة ويسمون: «العقدانية» أي أصحاب العقيدة.

وفريق ثانٍ وعلى رأسه: سعيد بن الحسن الجنابي، وخطة هؤلاء أنهم كانوا يريدون التمتع بالاستقلال التام معتقدين ممهدين لقيام جمهورية مستقلة على أساس من الشورى والحرية والمساواة، والاشتراكية.

وهنا نرى الدولة العباسية تقوم بدورها الكامل في سبيل تحقيق هذا الانقسام، محاولة التخلص من جميع القرامطة الذين أقضّوا مضاجعها، وهكذا فعل الحمدانيون، والبويهيون، فشدوا أزر سعيد، وانتصروا له على أحمد، وكان من نتيجة ذلك أن اندلعت نيران الحروب الداخلية بينهما وهي التي استمرت فترة طويلة، وكانت سبباً مهماً لنهاية هذه الحركة الثورية الكبرى.

ومهما يكن من أمر.. فإن أياماً طويلة مرّت على هذا الصراع، ولكن في سنة ٣٥٣ هـ ربح أحمد الجولة على سعيد، وأبعده نهائياً عن مركز القيادة القرمطية، وبعد هذا عاد وأجهز على جيش سعيد بحملة عسكرية قادها ولده «الحسن الأعصم» واستهدفت احتلال منطقة عمان وما يجاورها، وبعد أن تمّ له ذلك جهّز حملة ثانية على «طبرية» فانتصر فيها على «الحسن بن عبد الله بن طغج الإخشيدي» صاحب الشام وقتئذٍ، وهنا نرى «سابور بن سليمان» وكان قد أصبح كبيراً يثور على عمه مطالباً بحقوقه في القيادة معتبراً تولية «الحسن الأعصم» قيادة الجيوش القرمطية.

ومن الواضح أن الأحوال الداخلية ساءت في تلك الفترة بين القرامطة وتأزمت لدرجة أنها تحولت إلى صراع مسلح، ولكن «سابور» أحرز نجاحاً في الجولة الأولى، فتمكن من عزل عمه أحمد وتسلَّم شؤون القيادة مكانه، ولكن أحد أخوة أحمد انتصر له وبحيلة ماكرة أخرج أخاه من الاعتقال، ثم جاء إلى سابور وقتله وأخذ أخوته وأتباعه إلى معتقل «وال» وهي إحدى جزر الخليج العربي.

مات أحمد بن سعيد سنة ٣٥٩ هـ. وتولَّى ولده «الحسن الأعصم» شؤون الزعامة والقيادة بمساعدة العباسيين وحلفائهم كما ذكرنا. أمّا الفاطميون فظلوا على ولائهم لآل سليمان فكانوا يمدونهم بالمساعدات، ويرسلون إليهم كل ما يمكن أن يعيد اعتبارهم إليهم، وفي الوقت نفسه يضعون العراقيل أمام الفريق الثاني. حتى أنهم منعوا الضريبة التي كانت تدفع للقرامطة من دمشق. وهذه الضريبة منعها القائد «جعفر بن فلاح» على اعتبار أنها كانت تدفع لأتباع الأعصم.

وتمكن الأسرى من آل سابور من الخروج من الأسر وجهزوا جيشاً. قادوه إلى الإحساء، فتم احتلالها، ممَّا اضطر «المطيع العباسي» إلى عقد الصلح معهم. .. في أثناء تلك الثورة كان الحسن الأعصم يخوض حرباً مع الفاطميين على أبواب القاهرة، وبعد فشله عاد إلى البحرين، وتمكن من إخماد فتنة أبناء عمه آل سابور، وبعد معارك دامية تمكن من السيطرة على الموقف.

إن أسرة آل الجنابي القرمطية استطاعت أن تحقق الانتصارات الكبيرة في المجالات العسكرية التي خاضتها، وكانت أكثر فهماً، وأشدّ مراساً ومرونة وتنظيماً من أسرة «آل مهرويه» ولولا الاختلافات الداخلية على المناصب الحساسة، والقيادية التي ذرت قرنها وانطلقت عنيفة، وأوقفت كل عمل وتطلع وآمال... لولا ذلك لكان بالإمكان القول... إن تلك الثورة كانت ستغير وجه التاريخ. وعلى كل حال، فإن العباسيين تمكنوا من إحراز نصر باهر، عندما أحدثوا هذه الثغرة في صفوف القرامطة، وخاصة عندمّا تمكنوا أخيراً من أن يضموا إلى صفوفهم فريقاً من آل الجنابي، فحفظوا دولتهم وملكهم.

ونعود أيضاً لإلقاء لمحة عابرة على موضوع مهم بالنسبة لقرامطة

البحرين، وأعني به تصرفات أبي طاهر الجنّابي زعيم قرامطة البحرين، ومداهمته قوافل الحجاج وقتلهم وعبثه في الأماكن الإسلامية المقدسة وإحضار الحجر الأسود إلى هجر ثم إلى الكوفة... فهذه القضايا المعقدة في التاريخ الإسلامي جديرة بالدراسة والعناية، والتحري عن أسبابها ودوافعها.. علماً بأننا أعلنا أكثر من مرة استنكارنا، واستهجاننا لها... وقد مرّ معنا أن الخليفة الفاطمي الأول عبد الله المهدي والقائم بأمر الله، وقفا منها موقفاً معادياً، وتبرأوا منها علناً.

أجل.. أدرك العباسيون ما يجول في أذهان أعدائهم الفاطميين لهذا رأيناهم يبذلون كافة الجهود، ويحاولون بشتى الطرق أن يضموا إلى صفوفهم القسم الأكبر من القرامطة، وهم المعروفون بقوتهم الحربية الكاسحة، ليجعلوا منهم أداة للهجوم على دمشق، وتخليصها من الفاطميين، وبعد ذلك مهاجمة مصر، وهذا ما أزعج الخليفة المعز لدين الله وهو في المغرب، فلم يكن يدور في ذهنه أن القرامطة المحسوبين عليه سيستجيبون لطلب العباسيين، ويهجمون على دمشق سنة ٣٥٧ هـ بقيادة «الحسن الأعصم» ثم يقتلون «جعفر بن فلاح» الكتامي قائد جيوش الفاطميين... في وقت كانوا لا يحاربون إلاّ بأمرهم. ولا يتحركون، أو يباشرون عملاً إلاّ بوحي منهم، ولهذا جاهر المعزّ لدين الله بعداوته لهم، والبراءة من أعمالهم، مستهدفاً من وراء ذلك اكتساب عطف الرأي العام الإسلامي في مصر والمغرب. الذي كان يرى القرامطة أداة شر، وإلحاد ، وخروج.

ومن جهة ثانية فإن المعز لدين الله كان يدرك رغبة الروم في أن يرثوا الدولة العباسية التي ازدادت الدلائل إلى اقترابها من النهاية، ففي تلك الفترة عبر الروم نهر الفرات واستولوا على بعض المدن السورية الشمالية، فأمر المعز لدين الله بالإسراع بفتح البلاد الشامية، لاتخاذها قاعدة تقف في وجه تقدم الروم جنوباً من جهة، والإشراف على تحركات بغداد العباسية التي كان يتطلع إليها، وكان بعمله أيضاً يهدف إلى كسب عاطفة المسلمين الذين كانوا ينظرون للروم نظرات عدائية متأصلة قديمة.

لقد سار على هذا النهج، فضلاً عن الفاطميين. الطولونيون،

والإخشيديـون من قبل، وصلاح الدين الأيوبي، والظاهر بيبرس حتى محمد علي باشا.

كانت الحملة الفاطمية الأولى لبلاد الشام بقيادة «جعفر بن فلاح» كما ذكرنا، وقد خاض غمار معارك ثلاث كبرى كتب له فيها النصر، فضلاً عن المعارك الصغرى. أما أهم هذه المعارك فهي معـركة «الرملة» التي جرت في شهر ذي القعدة سنة ٣٥٨ هـ. ففي خلالها وقع «الحسن بن طغج» أسيراً، وبعد هذا الانتصار أصبحت فلسطين تابعة للفاطميين. والثانية معركة «طبرية» والثالثة معركة دمشق التي ساهم في الدفاع عنها «بنو عقيل» وعلى رأسهم «ظالم بن موهوب العقيلي» و «بنو مرة» و «فزارة» وسواهم، وكانوا جميعاً تحت حكم الإخشيديين، وقد استطاع جعفر بن فلاح أن يـؤلبهم على بعضهم البعض، ولكن وعلى الرغم من ذلك فإنه لم يكن أمامه سوى الدخول مع الإخشيديين بمعركة كان من أمرها سقوط عدد كبير منهم.

ومن الجدير بالذكر... أن جعفر بن فلاح أقام الخطبة سنة ٣٥٩ هـ في دمشق باسم الخليفة المعز لدين الله، وحاول استرداد أنطاكية من الروم الذين انحـدروا من جبال طـوروس، وأقامـوا في أنطاكيـة يستعدون للجولة الثانية التي قرروا أن يصلوا فيها إلى دمشق.. وهكذا بالنسبة للقرامطة فإن مخططهم منذ سنة ٣٥٣ هـ. يقضي بأن يجعلوا من دمشق عاصمة لجمهوريتهم الاشتراكية الديموقراطية، ولكن من الواضح أن جعفر بن فلاح لم يحسن إدارة مدينة دمشق، أو التفاهم مع أهلها، بدليل أن العديد من شيوخها ورجالاتها قد فروا إلى البحرين هرباً من جنود المغاربـة، وذهابهم هـذا كان لـلاستنجـاد بـالحسن الأعصم، ومطـالبتـه بتخليصهم من ظلم الفاطميين، ومن هؤلاء «ظالم بن موهوب العقيلي».

ومن جهة أخرى فإن العباسيين خططوا لجلب القرامطة إلى صـفهم، ودفعهم إلى حرب الفاطميين فتمّ لهم ذلك فعلاً ففي سنة ٣٦٠ هـ. سار الحسن الأعصم إلى بغداد لمفاوضة «المعتمد» العباسي والاتفاق معه على مده بالمال، والسلاح والغذاء ليقوم بغزو دمشق ، ومن بعدها القاهرة وهكذا فعل الحمدانيون، فإنهم قد أمروا أتباعهم بالتطوع في جيش القرامطة، وأمدوه بالمال، والسلاح وفعل مثلهم بنو بويه. أما

الإخشيديـون فقد تطوعوا في الجيش أيضاً، وهكذا فعل أتباع كافور وبعض القبائل العربية وعلى رأسهم «العقيليون» بزعامة «ظالم بن موهوب العقيلي».

ركّز الحسن الأعصم القرمطي هجـومه عـلى مصر من الناحيـة الشرقية، بعد أن دانت له أكثر مدن الشام وفلسطين فاستولى على «الفرما» وهي مفتاح الديار المصريـة، ثم هاجم «القلـزم» وهي «السويس» واستولى عليها، وأسر عاملها «عبد العزيز بن يوسف» كما نهب كل ما كان فيها من خيل، وإبل، وأموال، وأرزاق. وقد كان من أثر هجومه هذا أن اعترفت بعض المدن المصرية والقرى المواجهة بسلطان القرامطة، كما ثارت «تنيس» على واليها الفاطمي، واعترفت بالسلطة القرمطية، وهكذا أخذ الأعصم يتقدم دون مقاومة تذكر، حتى حطَّ الرحال أخيراً أمام «عين شمس» أي «هليوبوليس» ومن هذه النقطة أخذ يطبق خطته، فأرسل دعاته يحملون المناشـير، ويوزعونها في المساجد، وفيها الحـض على الثورة، والعصيان ضد الفاطميين، مع الوعد باحتلال القاهرة «المعزية»...

وإزاء هذه الأحوال.. تحرَّك جوهر الصقلي للعمل، وإحباط هـذا الهجوم الكثيف، فأرسل عيونه لاستقصاء الأخبار.. ولما علم عدد جيش القرامطة حفر خندقاً حول مدينة القاهرة، واعتصم مع جيشه وراءه، وكانت هذه خطة استدراج، وإنهاك للجيوش المهاجمة ، ثم خرج بعد ذلك إلى خارج الخندق، وبدأ القتال، وقد ظلّت الحرب سجالاً بين الفريقين منذ أواخر شهر صفر حتى شهر ربيع الأول سنة ٣٦١ هـ.

وفي مستهل شهر ربيع الأول من العام نفسه التحم الجيشان بشكل عنيف على باب مدينة القاهرة، وكان يوم جمعه، فقتل جماعة، وأسر جماعة من الفريقين، وفي يوم السبت استؤنف القتال، وكان هناك تعادل، وفي نهار الأحد دفع الأعصم بجميع جنوده إلى الميدان، وأراد اقتحام الخندق، وكان الباب مغلقاً، ولما زالت الشمس فتح جوهر الباب. فاندفع فريق كبير من جيش القرامطة إلى داخل المدينة حيث كان جوهر قد أعدَّ لهم الكمائن فَقُتِلَ منهم خلقٌ كثيرٌ وشعر الأعصم بالخسارة الجسيمة أخيراً، مما دفعه إلى الهرب، ولم يتبعه جوهر بل

استولى على خيمته، وصناديقه ولوازمه، وكتبه. أمّا الطريق الذي سلكه الأعصم مع شراذم جيشه الهاربة. فكان يمرّ بمدينة «القلزم» ومنها «إلى دمشق عبر فلسطين».

استخدم جوهر الصقلي في هذه المعركة الكبيرة أسلوب الدعاية، فأرسل فريق الدعاة إلى قلب صفوف القرامطة، فاستطاعوا إيقاظ الفتنة، وأوجدوا بعض النقمة على الأعصم لمخالفته الفاطميين، واتباعه العباسيين. ومن جهة ثانية تمكن هؤلاء الدعاة من التلاعب بأفكار القبائل العربية بعد أن دفعوا لبعضهم الأموال. ومن جهة أخرى تمكن القائد جوهر من إحباط تدابير الجاسوسية القرمطية، فجعلها في موقف الرعب، والارتباك خاصة عندما ألقى القبض على أربعة من الجنود المصريين كانوا يعملون لمصلحة القرامطة، فأعدمهم، وصلبهم على مرأى من جيوش القرامطة، كما أنه، ولاحتياطات كان لابد منها، سجن «جعفر بن الفرات» الوزير في منزله، وساق الزعماء، والقضاة إلى المعسكر، وجعلهم تحت نظره حتى نهاية المعركة.

أما الإمام المعز لدين الله فقد أرسل في ذلك الوقت إلى جوهر إمدادات برية، وبحرية لا تحصى، وجعلها بقيادة «الحسن بن عمّار»، ومن تدابير جوهر الوقائية أنه قبض على كافة الإخشيديين الذين تآمروا مع القرامطة وأعدمهم، وكان قد دعاهم إلى تناول الطعام على مائدته، وعندما تمَّ اجتماعهم قبض عليهم وقيدهم، وكان عددهم ألفاً وثلاثمائة رجل. بعد هذا أرسل من استرد مدينة «الفرما» وقبض على واليها القرمطي المسمى «الغمر»، وهكذا فعل بالنسبة لمدن «تنيس» وغيرها من المدن التي استسلمت للأعصم.

ولم تقف جهود جوهر عند هذا الحد، بل أرسل أسطوله وعليه الجند فتمكن من فك الحصار عن مدينة يافا، وأرغم الجيش القرمطي على الفرار باتجاه دمشق، كما أنه استعاد معظم بلاد فلسطين، ولم يبق للقرامطة وأنصارهم سوى مدينة دمشق، وبعض القرى القريبة منها. أما الأعصم فلم تطل إقامته في دمشق، بل ذهب إلى البحرين ليطفىء لهيب ثورة جديدة أثارها عليه أبناء عمه كما ذكرنا، وقبل ذهابه أسند ولاية دمشق إلى «أبي المنجا» القرمطي، وإلى «ظالم بن

موهوب العقيلي» الذي ساعده في هجومه على مصر ، ولكن سرعان ما دبَّ التنافس بينهما وعند عودة الأعصم القرمطي من البحرين سنة ٣٦٢ هـ. قبض على ظالم العقيلي وأهانه، وكان هذا الإجراء بداية تقليص نفوذ القرامطة لدى القبائل، والمواطنين في ديار الشام.

عاد الأعصم إلى دمشق ومعه جيش كثيف أعده من جديد بالإتفاق مع القوى التي ساعدته بالأمس، وكان غرضه الهجوم ثانية على مصر للانتقام من القائد جوهر، فتقدم في بلاد الشام واستردَّ أكثر المدن التي فقدها. وهكذا بالنسبة لفلسطين، وعندما أخذ بالزحف إلى مصر، تقدم باتجاه الوجه البحري متخذاً منه مركزاً حربياً. ويبدو واضحاً أن الأعصم اعتمد في هذه الحملة على القبائل العربية التي أغراها بالمال، والوعود العباسية والحمدانية.

أما القائد جوهر الصقلي، فمنذ أن علم باستعداد القرامطة لغزو البلاد المصرية أرسل إلى الإمام المعز لدين اللهِ في المغرب كتاباً يدعوه فيه إلى الحضور لمصر، للمشاركة بحمل المسؤوليات والأعباء، بعد أن هيأ القرامطة حملة ثانية... هكذا ذكرت المصادر، ولكن الحقيقة غير ذلك، لأن الإمام المعز لدين الله كان في تلك الفترة قد قرر الحضور إلى مصر، وقد رأينا أن أول إجراءٍ قام به هو: تجميد القائد جوهر، وتجريده من مهمة قيادة الجيوش.

ومهما يكن من أمر فانّ الأعصم واصل زحفه حتى «عين شمس». فانتشر جيشه في تلك الجهات حاملاً الأوامر بتحصيل الأموال والضرائب من عموم بلاد الصعيد.

وأخيراً. هاجم الأعصم القاهرة «المعزية» فاخترق الخندق، ولكنه توقف أمام السور الذي بناه جوهر حول المدينة.. وفي تلك الساعات الحاسمة... ساعات المعركة اللاّهبة استطاع الإمام المعز لدين الله إحداث ثغرة واسعة في صفوف القرامطة.. فاتفق مع «حسان بن جراح الطائي» على التظاهر بالهزيمة، والفرار من الميدان، مما يثبّط همة القرامطة، ويشيع الذعر في صفوفهم. فنفذ حسان وعده، وتقهقر أمام الجيش الفاطمي، لقاء مبلغ من المال. وكان هذا التدبير مقدمة لهزيمة الأعصم.

أمّا المعركة الثانية مع الأعصم فكانت على أبواب القاهرة، وقد قادها

ببسالة «الأمير عبد الله بن المعز لدين الله» «ولي العهد» ومعاونه «علي ابن جعفر بن فلاح» لأن جوهر الصقلي كان في ذلك الوقت مجهداً وفي عزلة تامة.

في تلك المعركة ضيّق الأمير عبد الله الخناق على الأعصم. وأرغمه على التقهقر، وذكر أن عدد الأسرى من جيش القرامطة فاق العد، ومن الواضح أن الأمير عبد الله بعد إحرازه النصر لحق بالأعصم حتى «أذرعات» قرب عمان، وهناك نجا بنفسه، وتوجه إلى دمشق، ومنها إلى البحرين يجرُّ أذيال الخيبة، تاركاً بعض قواده في بلاد الشام وعلى رأسهم «أبو منجا» عرضة للقتل.

أشاد التاريخ ببسالة الأمير عبد الله ومرونته في المعارك التي خاضها ضد الأعصم... أمّا في الشام فقد استعان علي بن جعفر بن فلاح بقبائل طيء، وبظالم بن موهوب العقيلي الذي انضم أخيراً إلى الفاطميين. فقبض على أبي منجا القرمطي وابنه وسلمهما إلى القائد الفاطمي، وعلى الأثر استخلف الفاطميون ظالماً على دمشق، وكان ذلك في شهر رمضان سنة ٣٦٣ هـ.

ذكرت المصادر التاريخية الفاطمية بأن الإمام المعز لدين الله حزن حزناً عميقاً لدى سماعه بمقتل القائد الكتامي «جعفر بن فلاح» في دمشق على الصورة التي ذكرناها. فجعفر كان بنظره من قواد الدولة الفاطمية البارزين الذين أخلصوا لها، وضحوا بكل غالٍ ونفيس في سبيل عزتها وإعلاء مجدها، وسؤددها.

وذكرت، أنه عاتب جوهراً عند رجوعه إلى مصر، على تقاعسه وتقصيره في إمداد جعفر بالعون اللاّزم، وأخذ عليه إهماله كل ما يتعلق بفلسطين وبلاد الشام إبّان وجود جعفر بن فلاح فيها، ويبدو أن الأعذار والحجج التي ساقها جوهر كانت واهية لم ترض الإمام المعزّ لدين الله، بل ظل يحمّل جوهراً مسؤولية ما جرى لجعفر بن فلاح في دمشق، وغيّر ظنّه بقائده الأول وأقصاه.

حفظ الخليفة المعز لدين الله لهذا الفاتح الكبير ما كان له من الأيادي البيضاء على الدولة الفاطمية وخاصة فتوحاته وإصلاحاته وتثبيته دعائم الخلافة الفاطمية، وصدّ هجمات القرامطة والإخشيديين عن مصر.. تلك الهجمات التي كادت تعصف بالدولة الفتية.

وعلى الرغم من أن الإمام المعز لدين الله قد أقصى جوهراً عن مناصب الدولة الكبيرة والصغيرة وجعله في عزلة تامة عن كل ما من شأنه سياسة الدولة الفاطمية، فإنه أبقى عليه معززاً مكرماً في منزله في القاهرة حيث توارى القائد الكبير قليلاً قليلاً عن المسرح الفاطمي. ولم يعد إلى الظهور إلاّ في مطلع سنة ٣٦٦ هـ. بعد تفاقم خطر «افتكين» التركي، والحسن الأعصم القرمطي، فلقد استعصى على قواد الجيوش الفاطمية إيقاف تلك القوى الجرّارة المهاجمة. وفي تلك الفترة كان الإمام المعز لدين الله قد توفي سنة ٣٦٥ هـ. فتسلّم الخلافة «العزيز بالله» فلجأ إلى جوهر، وولاه القيادة العامة للجيش. ولم يكن جوهر في تلك المرحلة أقل إخلاصاً لمولاه الحاضر العزيز بالله من والده.

ونحن لا ندري سبب إقصاء جوهر عن القيادة العامة من قبل المعز لدين الله إلاّ ما ذكرناه عن موقفه من جعفر بن فلاح.

ولكن جوهراً الصقلي لم يكن قائداً عادياً. فالتاريخ أفرد له الصفحات الطوال، ووضعه في عداد القواد العالميين الذين يضمون إلى جانب خبرتهم العسكرية معرفتهم بإدارة البلاد، وسياسة الشعوب، واختيار المعاونين والأصحاب، وعندما يختلف علماء الإجتماع في عظماء الرجال، ويذهبون فيهم مذاهب شتى.

إن عبقرية الرجل الفذّ، أيّا كان، هي وليدة زمانها ووليدة أحداث ذلك الزمان، وجوهر الصقلي كان رجلاً حبته الطبيعة بصفات وسجايا، لم يكن لها أن تبرز وتبهر العالم لو لم يقيّض له أن يلتقي مولاه الإمام المعزّ لدين الله فيمحضه هذا ثقته ويعيّنه قائداً لجيشه بعد أن خبر قدراته في الديوان وأمانته، وولاءه، كمولى في القصر.

وجوهر لم يخيّب ظنّ مولاه بل أخضع المغرب وأعاد إليه الهدوء وبسط السيادة الفاطمية عليه ثم توجه إلى مصر ففتحها في أيام معدودات أعانه فيها خور العباسيين وشغلهم عن الولايات البعيدة بما هم فيه، ولم يكتف بالفتح بل تقرّب إلى أهلها وحاول كسب ودّهم، فمصر ما كانت غاية بل معبراً تستكمل منه الدولة الفتية ما تنوي القيام به وأعني بسط السلطة الفاطمية على العالم الإسلامي كلّه بما في ذلك بغداد مقّر الخلافة العباسية.

إنّ آثار القائد جوهر الصقلي لا تزال حتى يومنا هذا تنطق بعظمة هذا القائد العظيم كيف لا وهو منشىء «القاهرة المعزِّية» التي أصبحت أعظم قاعدة إسلامية، وأقدم منارة للحضارة العربية والاسلامية وللمدنية التي تألقت أنوارها على الآفاق في المشرق والمغرب، ثم أصبحت المقرّ المفضّل للعلوم والمعارف، والكعبة للفنون وللآداب، والمحط للعلماء وللأدباء.

أجل... كان جوهر أحسن مثال للحاكم العادل، يجلس للمظالم بنفسه، يعاقب المسيء. وينصف المظلوم، ويقضي بين الناس بالعدل، ويرد الحقوق إلى أصحابها، ويضرب على أيدي المعتدين والعابثين بالأمن حتى ولو كانوا من خاصته وخلصائه، ويسهر على راحة الشعب. ويمنحه الحرية المطلقة. . ويكفي أن يكون الخليفة المعز لدين الله قد محضه ثقته، وترك له حرية التصرف بشؤون مصر مدة أربعة أعوام، لم يتمكن خلالها من مغادرة المغرب، والالتحاق بمصر.
مات جوهر في القاهرة سنة ٣٨١ هـ. فعاده الخليفة الفاطمي الخامس «العزيز بالله» في مرضه الأخير، وقدم له الهدايا والأموال التي بلغت خمسة آلاف دينار، وهكذا فعل ولي عهده الحاكم، وبعد موته أمر الخليفة العزيز بالله بتكفينه بسبعين ثوباً ما بين موشّى ومثقل بالذهب، ثم صلّى عليه ودفنه في «القرافة» الكبرى. وبموت القائد جوهر طويت صفحة من صفحات البطولة والعظمة، وغاب القائد الكبير الذي لم يهزم في معركة، وتوارى السياسي المحنك، والكاتب الأديب، والعاقل المدرك، والإنسان الطيب، الذي لم يبق في مصر رجل إلاّ ومشى وراءه ، ولا شاعر إلاّ رثاه، وأشاد برجولته، وبشخصيته النادرة، وبصفاته العالية الخالدة على ممر الأجيال.

ولابد من التطرق إلى وصف تربيته، وطاعته للمراسيم العليا، وتقيده بأوامر الأمانة، وفي هذه القصة تتجلى عظمته وصبره.

يروى أن الخليفة الإمام المعز لدين الله ذهب مع القائد جوهر إلى مصر لاستعراض الأسرى، وكان في عدادهم «منجوتكين» الغلام الذي أسره جوهر، وهو من أصل تركي... فلما رآه الإمام المعز لدين الله أخذ يتأمله، ويطيل التحديق به. فلما رأى جوهر ذلك قال للخليفة:

رأيتك يا مولاي... تطيل التحديق في هذا الغلام التركي، ولم تنظر لغيره..

فقال:

يا جوهر... سوف ترى أنه سيكون لنا فتوحات عظيمة على يد هذا الغلام.. وكان يعني بذلك «منجوتكين».

خرج «منجوتكين» هذا من قصر «الإمام العزيز بالله» سنة ٣٨١ هـ. وهو ممتطٍ جواده، وكان في حاشيته جوهر، وابن عمار وغيرهما من رجالات الدولة وهم مشاة ، وكانت يد جوهر في يد ابن عمار... فتنهد ابن عمار، وزفر زفرة كادت تخرق صدره وقال: «لا حول ولا قوة إلا بالله» فنزع جوهر يده منه وقال:

قد كنت عندي يا ابن عمار أثبت من هذا... لكل زمان دولة ورجال.. أتريدنا أن نأخذ دورنا، ودور غيرنا؟

بالأمس لما سرت إلى مصر.. أمر مولانا المعز لدين الله أولاده وأخوته، وولي عهده، وسائر أهل دولته بالترجل لي.. وها أنا اليوم أمشي راجلاً بين يدي «منجوتكين» الغلام الذي أسرته في إحدى المعارك. .... لقد أعزونا يا ابن عمار، وأعزوا بنا غيرنا... والآن أقول:

«اللهمّ قرّب أجلي، وموتي، فقد تجاوزت الثمانين»

وأخيراً:

رحم الله جوهراً الصقلي.. فقد كان المثل الأعلى للوفاء، وللصدق، وللإيمان.

«الدعاة والفتوحات»

اعتمد الفاطميون في فتوحاتهم للبلدان، وفي حروبهم على الدعاية المنظمة... ففي اليمن، والعراق، والبحرين، وفارس، وخراسان... كان دعاتهم يقدمون الخدمات، ويحققون الانتصارات، ويتغلبون في مناقشاتهم على العلماء الآخرين، ويبرزون في مجال العلم كأساطين للفكر، وكفلاسفة لا يشق لهم غبار.

وهؤلاء الدعاة كانت لهم مواقف مشهورة في مجال الدعاية تفوق مواقف القواد في ساحات الحرب.. ففي عهود عبد الله المهدي، والقائم بأمر الله، والمنصور بالله، كان الدعاة يرتدون ثياب الجنود، ويندمجون في الصفوف، ثم يتقدمون الجيوش المحاربة للاختلاط

بأعدائهم، وإفساد خططهم الحربية. وكانت مصر قبل الفتح الفاطمي تعج بهؤلاء الدعاة الذين لجأوا إليها لبث الدعاية، وتأليف جماعات تؤيدهم، وتدين بعقيدتهم، حتى توصلوا إلى حد الدخول إلى حرم الإخشيديين، واستقطاب جماعات كبيرة منهم، فقد ذكرنا أن القائم بأمر الله اتصل «بمحمد بن طغج الإخشيد» غير مرة عن طريق الدعاة وحاول جذبه إليه، ودفعه إلى الانتفاض على العباسيين، وقد تجلًى كل ذلك عندما أرسل الخليفة العباسي «الراضي» قائده «ابن رائق» ليستولي على مصر، وينزع أيدي الإخشيديين عنها، بعدما علم بميل حاكمها إلى الفاطميين، وهذا التدبير أقام «محمد بن طغج» وأقعده وجعله يبادر إلى قطع خطبة العباسيين في المساجد والاستعاضة عنها بخطبة الفاطميين. ولكن هذا لم يستمر طويلاً.. لأن أعوانه نصحوه بالإقلاع عن هذه السياسة الوخيمة العواقب.

ومما يجب أن يذكر أن الإخشيد عرض على القائم بأمر الله تزويج ابنته من ابنه المنصور بالله، ولكن هذا الزواج اعترضته عقبات عديدة ولم يتم.. وكل هذا يدل على أن مصر كانت تتوجه تلقائياً ـ للدخول تحت المظلة الفاطمية، وهذه الرغبة كانت تتزايد يوماً بعد يوم بدليل أن المعز لدين الله قال لرسول الأمبراطور البيزنطي عندما قابله وكان في مهمة سياسية:

> اتذكر إذا اتيتني رسولاً وانا بالمهدية... فقلت لك... لتدخلنّ علي وانا في مصر مالك لها... وانا اقول لك الآن: «لتدخلن عليَّ بغداد وأنا خليفة فيها».

أجل... كان المعز لدين الله يختار للبلاد الإسلامية دعاة من العلماء الأذكياء، وكان إذا وجد داعياً ضعيفاً متخلفاً عزله، وولَّى غيره، وقد رسم لهؤلاء الدعاة خطة كانوا يسيرون عليها في تلقين مبادئهم، فيسير المستجيب معهم في خطى متئدة حتى لا تضيع البذور في أرض سبخة، ولا ينحرف عن السبيل، أو ينعكس عن القصد، فتصاب الدعوة بالخيبة والخذلان. وكانت تلك التعاليم زاخرة بالنصائح التي توجب على هؤلاء السير على هديها في تلقين المذهب، ولكي يكونوا من الفراسة بحيث يستطيعون أن يميزوا بين المستجيبين، ويلقنوا كل واحد منهم بمقدار استعداده، وكان لهم في البلاد التي يذهبون إليها دعاة قبلهم، قد استفادوا من التجارب ، والأوضاع السائدة، وعرفوا

كل شيء.. وكل هذا كان من العوامل التي سهلت فتح مصر، وفلسطين والشام، ومهدت السبيل للانتصارات الحاسمة.

الفتح الفاطمي لبلاد الشام وأبعاده

لم تكن هزيمة «الحسن الأعصم» القرمطي في مصر سنة ٣٦٣ هـ، نهاية الصراع بين الفاطميين والقرامطة. فبالرغم من عودة الحسن الأعصم إلى البحرين، واستيلاء الفاطميين على بلاد الشام، فإن الأخطار عادت من جديد، وبدأت العواصف تهب بسرعة على بلاد الشام بصورة لم تشهدها من قبل.... .. فهناك الروم من جهة، وهناك «أفتكين» التركي من جهة أخرى، وهذا القائد التركي كان في خدمة «بني بويه» ، ثم ثار على «بختيار بن معز الدولة» بعد أن انتصر الديلم على الأتراك، ولكن بختيار استعان عليهم بابن عمه «عضد الدولة» فحلّت الهزيمة بهم، مما اضطر «أفتكين» إلى الذهاب إلى الرحبة، وكان معه أربعمائة محارب، فعاضده الحمدانيون وأمدوه بكل ما احتاج إليه ، وزينوا له في الوقت نفسه احتلال بلاد الشام، واستخلاصها من الفاطميين، فتحالف مع القرامطة من جهة ثانية، وهكذا بالنسبة لبعض شيوخ القبائل العربية، وزعماء المدن في بلاد الشام.

وكنّا قد ذكرنا أن الإمام المعز لدين الله، استغلَّ العداء الذي حدث بين «ظالم العقيلي» و «أبي المنجا» القرمطي، ففاوض ظالماً وعيّنه على دمشق، وجعل تحت تصرفه جيشاً من أتباعه، ومن المؤيدين للفاطميين. وعندما قصد ظالم دمشق، قبض على «أبي المنجا» وسجنه مع ابنه، وقد اعتبرت دمشق بعد هذه الخطوة من ممتلكات الفاطميين، لأن سلطانهم استقرَّ فيها، كما استقر في مصر... ولم يكتفِ المعز لدين الله بذلك، بل أرسل تعزيزات أخرى إلى دمشق للبقاء فيها بصورة دائمة، وكانت مهمتهم حفظ الأمن، وإقرار السلام، والضرب على أيدي كل من يعبث بالأمن، أو يفكّر بالخروج على الفاطميين.

كان المعز لدين الله قد أرسل في تلك الفترة قائده «علي بن جعفر بن فلاح» إلى دمشق على رأس جيش من المغاربة، وجعل مهمته التعاون مع ظالم العقيلي، ولكن ظالماً لم يرضَ عن هذا التدبير، لأن أهالي

دمشق كانوا لا يزالون يضمرون الكراهية، والحقد للجيش الفاطمي المغربي. فتعديات أفراد هذا الجيش على الآمنين منهم وتصرفاتهم الشاذة ضد الأهلين كانت لا تزال ماثلة أمام أعينهم.

ومن الواضح أنه لم تمضِ سوى أيام معدودة، حتى دبَّ الخلاف بين ظالم، وبين علي بن جعفر، فظالم بحكم مركزه كان مضطراً للوقوف بوجه جنود المغاربة، ومنعهم من التعديات على السكان، وتطور الخلاف إلى حد نشوب أكثر من معركة بين المغاربة والمشارقة، وهذه الأعمال عزاها القائد علي بن جعفر إلى ظالم. فأصدر أمره بإقصائه، وعيّن مكانه «جيش بن الصمصامة» وهو ابن أخت علي، ولكن كل هذا لم يحل دون قيام الحركات المعارضة، ومن ثمّ الثورة في كل أحياء دمشق. وعندما علم الإمام المعز لدين الله بما وقع، أصدر أمره بتعيين ظالم العقيلي على إقليم بعلبك، واستعان «بريان الخادم» واليه على طرابلس الشام، وطلب إليه التوجه إلى دمشق لمعالجة الموقف، فجاءها وتسلَّم شؤونها، بينما عاد علي بن جعفر إلى الرملة... وهكذا استطاع تهدئة الأمور إلى حين. أما القائد التركي «أفتكين» فقد قام بدور كبير في بلاد الشام استمرَّ من سنة ٣٦٤ هـ. إلى سنة ٣٦٧ هـ. أي حتى آخر عهد المعز لدين الله، وأوائل عهد العزيز بالله... وهذا القائد الكبير تميز بدهائه ورجولته، واستطاع بمرونته أن يكوّن لنفسه قوة من لا شيء ، وأن ينشر نفوذه في بلاد الشام متخذاً لنفسه مبدأ محاربة الفاطميين بالتعاون مع القرامطة والحمدانيين.

ومهما يكن من أمر.. فإن ظالم العقيلي عاد وتحالف مع علي بن جعفر وسارت جيوشهما معاً للقاء أفتكين عندما زحف من الشمال باتجاه دمشق عابراً مدينة حمص، وعندما وصل إلى ضواحي دمشق هرع إليه الكثيرون من أبناء دمشق، وتجندوا معه وعلى رأسهم «ابن الماورد» ، ولهذا لم يتمكن الجيش الفاطمي من الصمود أمامه، وخاصة بعد أن جاءت الأوامر إليهما بضرورة ترك جبهة الشام، والعودة إلى طرابلس الشام لصد جيوش الروم الغازية.

مكن هذا التراجع من قبل الجيش الفاطمي أفتكين من دخول دمشق حيث أقام الخطبة في مساجدها باسم «الطائع» الخليفة العباسي. ومن دمشق زحف باتجاه بعلبك لإخراج ظالم منها، فالتقى بجيش الروم

هناك، وعندما شعر بعدم قدرته على الاستمرار بالحرب، دخل في مفاوضات سلمية مع الروم انتهت إلى اتفاق يقضي عليه بالبقاء في دمشق لقاء جزية كبرى يدفعها كل عام، مع الوعد باحتلال باقي الأجزاء الشامية، وضمها إليه، وخاصة عندما أخبرهم بـأنه لا يستطيع الإيفاء بتعهداته ومنها الجزية ما دام ابن الماورد في دمشق يتمتع بالسيطرة والنفوذ، وهنا هبط الجيش الرومي إلى دمشق وقبض على ابن الماورد، وسلم دمشق إلى أفتكين.

بعض المصادر الفاطمية تقول: إن أفتكين كانت له ميول فاطمية تظهر أحياناً وتختفي. ولكنه لم يكن قادراً على إظهارها جلية واضحة خوفاً من قيام انتفاضات وثورات مضادة في جيشه. وتزيد هذه المصادر بأنه كان على اتصال بالخليفة المعز لدين الله.. يراسله بالسر، ويعلن انقياده إليه، ورغبته في تحقيق التعاون معه، فيجيبه المعز لدين الله بضرورة حضوره إلى القاهرة للتفاهم، مع التعهد بإعادته مكرماً ومشرفاً وعلى رأس جيش فاطمي كبير.. لكن أفتكين خاف أخيراً على نفسه من القيام بمثل هذه الخطوة ، وفي تلك الأثناء برزت للعيان قوة القرامطة العسكرية من جديد، فاتصل أفتكين بقائدهم الحسن الأعصم، وعقد معه محالفة عسكرية من موادها محاربة الفاطميين في كل مكان.

ومما يجب أن نذكره: أن المعز لدين الله قرر في النهاية الخروج بنفسه إلى الشام لمحاسبة أفتكين والقرامطة من جهة، والروم من جهة أخرى، ولكن الأجل وافاه قبل أن يستطيع تحقيق هذه الأمنية.

لقد خطط القائد أفتكين، وأعدَّ العدة للاستيلاء على أجزاء بلاد الشام بأكملها... وفي المقابل تجنَّد الفاطميون، وأعدوا قواتهم لقتاله، وكانوا يرومون التخلص من هذا القائد الجبار، وفي تلك الفترة دخل الأمبراطور البيزنطي «يوحنا تزيمكس» بلاد الشام عن طريق حمص، ثم غادرها إلى بعلبك، ومن هناك أرسل إنذاره إلى دمشق. فتحرك أفتكين، واتصل بالبيزنطيين عن طريق أحد العملاء الدمشقيين الذين كانوا يعملون لمصلحة الروم واسمه «أبو بكر الزيات» فقام بالوساطة، وتمكن من عقد الصلح بين الفريقين على الشروط التي تمنع الروم من دخول دمشق لقاء مبلغ من المال مقداره ثلاثون ألف دينار.

ومما تجدر الإشارة إليه... أن الأمبراطور البيزنطي سار من بعلبك،

واستولى على بيروت ومنها توجه إلى طرابلس، ولكنها استعصت عليه، فأصيب بمرض مفاجىء، فاضطر للعودة إلى بلاده.

ولم تتوقف الأحداث عند هذا الحد. بل توجه افتكين بعد ذلك إلى صيدا واشتبك مع واليها الفاطمي «ابن الشيخ» وكان قد انضم إليه ظالم العقيلي، فاستطاعا الصمود، ولكن أفتكين استعمل أخيراً سلاح الحيلة والدهاء، فأشعر خصومه أنه انهزم أمامهما، ولكن ظالماً عرف بالمكيدة فنصح ابن الشيخ وجنوده بعدم الخروج واللحاق به، فلم يصدقوه، وظنوا به السوء، واتبعوا أفتكين وما زال يستدرجهم حتى عاد إليهم ثانية، فقاتلهم، وقتل منهم ما يقرب من أربعة آلاف محارب وأخيراً استولى على صيدا، بينما فرَّ ظالم إلى صور، ومن صيدا اتجه «أفتكين» إلى عكا ففرض الحصار على الفاطميين، بعدما رأى استحالة اقتحامها، ومنها سار إلى طبرية فحاصرها فترة قصيرة ثم دخلها، وبعد ذلك عاد إلى دمشق عبر حوران، بعد أن أخضع أكثر البلدان الشامية والفلسطينية إليه.

إن الأحداث الكبرى التي وقعت في الشام خلال تلك الفترة، أزعجت الإمام المعز لدين الله، وهذا ما حمله كما قلنا على إعداد جيش كثيف للزحف إلى فلسطين وبلاد الشام، ولكن المنية فاجأته في منتصف ربيع الثاني سنة ٣٦٥ هـ . فخلفه ابنه «العزيز بالله» وهو الخليفة الفاطمي الخامس، فأعاد إلى جوهر اعتباره، وعهد إليه قيادة الجيوش الفاطمية العامة، وأناط به القضاء على القرامطة وأفتكين، فزحف إلى بلاد الشام، ولقي من المصاعب والأهوال ما سوف نذكره في الصفحات التالية:

عودة إلى المغرب

انقضت الأعوام الأربعة أي من سنة ٣٥٨ هـ إلى سنة ٣٦٢ هـ والخليفة الفاطمي الإمام المعز لدين الله في «المنصورية» عاصمة الدولة الفاطمية المغربية يعالج شؤون دولته: يقيم المنشآت، ويوطّد البنيان، ويستنبط القوانين، ويزيد في قدرات الدولة المالية. وهذه الأعوام الأربعة مرَّت بسلام، ولم يتخللها إلَّا قيام بعض الاضطرابات في المغرب الأقصى كان يثيرها الأمويون، فيدفعون بعض أعوانهم من الناقمين لإحداث بعض الفتن، وإقلاق راحة الدولة. فكان الإمام المعز لدين الله بعد ذهاب جوهر إلى مصر يخرج بنفسه لتأديب العصاة، وإعادة الأمن إلى نصابه.

وعلى العموم فإن هذه الحوادث بمجملها كانت شبه عادية، وكثيراً ما يحدث مثلها في كل دولة.

أجل.. . أربعة أعوام مرَّت... والمعز لدين الله قابض على شؤون المغرب، تارك مصر، وفلسطين وبلاد الشام لقائده الأمين جـوهر الصقلي الذي منحه ثقته، ومحضه حبه وفوَّض إليه كل شيء. وجوهر هذا من جهته كان ملتزماً بأخذ رأي قائده الأعلى، فلا يقوم بعمل إلاَّ بعد مشورته. ولا يبرم أمراً دون موافقته.

وأخيراً قرَّر الخليفة المعز لدين الله الالتحاق بمصر، وقراره هذا جاء بعد ورود أنباء مزعجة عن تحركات قرمطية عنيفة، ثم إن رسائل جوهر إليه كانت تلح عليه بالحضور على وجه السرعة، لأن الأخطار تحدق بمصر من كل جانب، مما يستدعي حضوره، لقيادة السفينة، والاضطلاع بالمسؤولية الكبرى.

وهنا تبرز أمامه قضية المغرب.. فلمن يتركها؟ ومن هو المسؤول الذي يطمئن المعز إليه إذا تسلَّم حكمها وإدارتها؟ وهذه البلاد كما هو معلوم تعب هو وأجداده في إشادة أركانها وإيجاد كيانها، من هنا كان عليه أن يفكِّر ملياً بانتقاء من يضطلع بالمسؤولية، ويحافظ على حدودها وأمنها، واستقرارها وكيانها.

ومن الجدير بالذكر... إنه ترك جزيرة صقلية بأيدي الأسرة الكلبية، وجعلها تابعة لمصر مباشرة، كما جعل إقليمي طرابلس وبرقة ولايتين تابعتين للقاهرة، وذلك دون أن يكون لنائبه في المغرب الحق بالتدخل في شؤونهما. وكل هذا وقع في أواخر سنة ٣٦١ هـ. وكان قبل هذا التاريخ قد استدعى «الأمير جعفر بن علي». وأسرّ إليه بأنه يريد استخلافه في المغرب فأجابه:

«تترك معي أحد أولادك أو أُخوتك يجلس في القصر وتفوضني بأموال الدولة تفويضاً مطلقاً، وتطلق يدي بتقليد القضاء والخراج، ولا تسألني عن شيء....

فغضب الإمام المعز لدين الله وقال:

يا جعفر عزلتني عن ملكي ، وأردت أن تجعل لي شريكاً في أمري، واستبدّيت بالأعمال والأموال دوني، ثم أخطأت خطأك، وما أصبت رشدك «فخرج عنه».

بعدئذٍ... وقع اختيار الإمام المعز لدين الله على «بلكين بن زيري بن

مناد» ـ أمير قبيلة «صنهاجة» فأعطاه الأمر بحكم بـلاد المغرب باسمه، ونيابة عنه، وكان المعز لدين الله يعلم مدى العداوة بين «الزناتيين» و«الصنهاجيين»... وذكر أن الإمام المعز لدين الله قـد زودّه بالتعاليم. وأوجز له خطة الحكم بقوله:

لا تنسَ ثلاثة أشياء: إياك أن ترفع الجباية عن أهل البلاد من البادية، والسيف عن البربر، ولا تولِّ أحداً من أخوتك، وبني عمك، فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك.

وقبل ذهابه إلى مصر جاء برجال قبيلة «كتامة» واستوثق منهم، وأخذ عليهم العهد بمناصرة «بلكين».

ومما تجدر الإشارة إليه... أن الإمام المعز لدين الله عندما استدعى بلكين.. قال له:

تاهب لخلافة المغرب..

فاكبر ذلك.. واجاب:

يا مولاي... أنت وآباؤك الأئمة من ولد رسـول الله (ص) ما صفا لكم المغرب، فكيف يصفو لي ؟ وأنا صنهاجي بربري قتلتني يا مولاي بغير سيف ولا رمح فما زال به حتى أجاب واشترط:

أن يولي المعز لدين الله القضاء، والخراج لمن يراه ويختاره، ويجعل الخير لمن يثق به، ويجعله قائماً بين أيدي هؤلاء، فمن استعصى عليهم يأمره هؤلاء به حتى يعمل ما يجب به! ويكون الأمر لهم، ويصير كالخادم بين أولئك.

فوافق المعز لدين الله على ما قاله وشكره على صراحته. ولما انصرف قال أبو طالب بن القائم بأمر الله للمعز لدين الله:

يا مولانا... وهل وثقت بما نطق به بلكين، وهل يقوم بوفاء ما ذكره؟

فقال الإمام المعز لدين الله:

يا عمّاه، كم بين قول بلكين، وقول جعفر... يجب أن تعلم يا عم أن الأمر الذي طلبه جعفر في أوله، هو آخر ما يصير إليه أمر بلكين، فإذا طالت المدة سينفرد بالأمر... ولكن هذا أولاً أحسن وأجود عند ذوي العقول.. لأنه نهاية ما يفعله.

الادارة الفاطمية في المغرب

وضع الإمام المعز لدين الله للمغرب نظاماً يقوم على الاعتماد على أنصاره الموالين قبل كل شيء، وكان اهتمامه بذلك بالغاً، لأنه كان

يدرك أن رفاهية دولته إنما تقوم على استتباب الأمن بادىء ذي بدء في الولايات، ومن مظاهر الحكم في هذه الولايات، وفي ذلك العهد الاستعانة بأبناء الأنصار الأوائل الذين قامت على سواعدهم دولته الفاطمية. فسلمهم وأخذهم بالشدة، إذا أهملوا أو أساؤوا، وشجع المحسن منهم بترقيته، والإدرار عليه. وبهذا استطاع أن يشعرهم بالخوف والرجاء في آن واحد.

واعتمد الإمام المعز لدين الله على عنصر الشباب، وعينهم في المناصب التي كان يشغلها آباؤهم، وغرضه أن يحيي فيهم الإخلاص لدعوته، ودولته، ويستغل إخلاص آبائهم في استتباب الأمن والاستقرار. وكم من مرة زودهم بنصائحه، وإرشاداته كقوله لهم:

«إنا أردنا أن تصل عوارف آبائنا من أسلافكم فيكم، ونحي ذكرهم بكم، ونلمّ شعثكم، ونفرق من حالكم. فكونوا حيث نريده منكم، ونقدره من الخير فيكم، فأعينونا على ما أردنا الخير بكم، بصالح أعمالكم، وحسن نياتكم وطوياتكم. فإننا نقدر على تغيير حالكم، وسد فقركم وأن نغنيكم، ولا نقدر على صلاح ما تفسدونه من أنفسكم إذا أنتم لم تقبلوا على أمرنا إياكم ووعظاً لكم. فما السعيد كل السعيد إلاّ من قبل عنّا، وامتثل أمرنا وأطاعنا، ولا الشقي إلاّ من خالفنا وارتكب نهينا، وما نريد في كل ما نفعله فيكم مما تحبونه، أو تكرهونه، وتعرفونه، أو تنكرونه إلاّ صلاحكم، والخير لكم في دنياكم، وأخراكم.

إن أحسنّا إلى من نحسن إليه منكم، ورفعنا من نرفعه، وأنعمنا على من ننعم عليه. فما نريد منه بذلك إلاّ أن يعرف فضلنا فيشكره، ويعمل من صالح العمل ما يستوعبه، ويمتري منا المزيد عليه ، ويصل إلى رضوان الله، ويرضي بنا عنه، وإن عاقبنا من نعاقبه، فما نعاقبه إلاّ تأديباً له. وليرجع عما أنكرناه عليه، ونقمناه من أمر إلى ما يرضي الله تعالى عنه، ويرضينا منه فيسعد بذلك في الدنيا والآخرة، وإن قتلنا منكم من نقتله ممن يجب القتل عليه، ولا يسعنا أن نبقيه، فما ذلك منا فيه إلاّ تطهيراً له، وتمحيصاً لذنوبه، وكل ما تجري به أمورنا فيكم، فـهو صلاح لعامتكم».

إن هذه الإرشادات تتضمن إشعاراً لهؤلاء العمال والموظفين بأن الخليفة يراقب أعمالهم، ويوجههم لعمل الخير، وإسعاد المواطنين، وكل هذا يدخل في نطاقٍ من الحكم القائم على الصلاح والعدل، ويتجلّى أيضاً في ردهم على أقواله:

«نحن يا أمير المؤمنين عبيدك، وصناعك، والمعترفون بفضلك، فما أصبناه فبتقويمك وتأديبك، وما أخطأنا فيه، فنحن نرجو منه رأفتك ورحمتك».

فأجابهم:

«يعصمكم الله من الخطأ بتأديبنا وتقويمنا، إذ لا نرى لأحدٍ منكم زلة إلّا نبهناه، ولا غفلة إلّا أيقظناه، ولا تخلفاً إلّا حركناه، ولا تقصيراً إلّا وعظناه. فليس يملك مع هذا إلّا الشقي الذي غلبت عليه شقوته. والله يفيدكم بولايتنا، وجميل رأينا فيكم».

ومما تجدر الإشارة إليه... أن نظام الوراثة لم يكن قائماً. فالإمام المعز لدين الله لم يطبقه في مجال اختيار العمال ، بل اعتمد الكفاءة، والمقدرة، واعتبرها المؤهل الوحيد، مضافاً إلى ذلك أنه لم يترك لأي كان أمر انتقاء العمال، والموظفين الكبار، بل كانت مسؤولياته وحده.... وكل هذا يدل على أنه لم يكن يعهد لأحد بمسؤولية إلّا بعد أن يقف على أخلاقه وتربيته ومدى إخلاصه للدولة.. وهذا قبل إسناد المهمة إليه، وحتى بعدها أيضاً.

ولم ينسَ الإمام المعز لدين الله أبناء المحاربين، والقواد، والولاة الذين أخلصوا له، ولآبائه.. فكان يعطيهم الأولية بالانتقاء، مدللاً بذلك على أنه لا ينسى المجاهدين الذين قدموا حياتهم للدولة، وكل هذا يعطي درساً للأبناء بأن إخلاصهم أيضاً سيبقى مقدراً ومصاناً، كما قدر إخلاص الأولين.. ومن هنا ازداد الإخلاص والتفاني في حبه، وتسابق العمال على خدمة الدولة، وإقامة العدل، ورعاية المواطنين، وإطاعة أوامر الخليفة.

لقد كان النظام الإداري الأساسي في المغرب يقوم على تقسيمات رئيسية، أي «ولايات».. وكان الإمام المعز لدين الله يختار لحكمها من يثق به، وكان حاكم الولاية يستقر في المدينة أو المدن الرئيسية التابعة للولاية بحيث يستطيع الإشراف على المدن والنواحي الأخرى والجهات كافة.

وكانت بلاد المغرب في ذلك العهد مقسمة على الوجه التالي:

ولاية **برقة**: وكان يحكمها غلام الإمام المعز لدين الله «أفلح» الذي أبى أن يترجل لجوهر عندما كان في طريقه إلى فتح مصر.

ويليها ولاية **طرابلس**، وهذه الولاية كانت مصدر الثورات في عهد «عبد الله المهدي» والقائم بأمر الله.

ثم ولاية المغرب الأقصى ومقرها مدينة «تاهرت» وكان حاكمها مسؤولاً عن إقليمي «فاس» و «سجلماسة» وغيرهما، وكانت صقلية تعتبر ولاية أيضاً.

أما في تونس فكانت المنصورية هي العاصمة، وتتبعها الأجزاء التي في المغرب الأوسط كافة.

ومن الجدير بالذكر أنه بعد انتقال الإمام المعز لدين الله إلى مصر حدثت بعض الاضطرابات في بلاد المغرب، فأصبحت هذه البلاد «دار إمارة» بعد أن كانت «دارَ خلافة» وأصبح نائب الخليفة هو المصدر الوحيد للحكم، وكان الخليفة الفاطمي الرابع الإمام المعز لدين الله قد منح «بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي» مهمة النيابة عنه في حكم المغرب، بعد أن خلع عليه، وبدل اسمه من «بلكين إلى يوسف» كما لقبه بـ «أبي الفتوح» و «سيف الدولة» فتسَّلم المهمة، وظلَّ يتلقى الأوامر من الخليفة الفاطمي، إلى أن استقل البيت الصنهاجي عن الفاطميين فيما بعد.

هذا، ويجب أن لا ننسى أن الإمام المعز لدين الله لم يترك لنائبه في المغرب السلطة المطلقة، بل جعل رئاسته الإشراف على بعض الولايات دون ولايات أخرى... حتى أنه عين «زيادة الله بن القديم» على جباية الأموال، و «عبد الجبار الخراساني» و «حسين بن خلف» على الخراج، وعلى الرغم من مركز يوسف، فإنهم كانوا يتعالون عليه، ويعتبرون أن ارتباطهم بالإمام المعز لدين الله مباشرة، يعفيهم من اعتباره رئيساً عليهم. ولكن لابد من القول:

بأن «يوسف» قام بأعمالٍ في المغرب تدل على بعد نظر ودراية ومرونة في أساليب الحكم. فعينّ بعض الموالين له في الوظائف الرئيسية، فجعل على تونس «عبد الله بن محمد الكاتب» وكان مقره في العاصمة المنصورية. وكان كثير التنقل، لا يستقر في مكان، كما أنه ما انفك يراقب تحركات «الزناتيين»، وأنصار «الأمويين» وأخيراً: اتخذ من مدن المغرب الأقصى مقراً له، واستقرَّ في «فاس» بدليل أن رسائل المعز لدين الله كانت تصل إليه باستمرار إلى هذه المدينة.

هذا، ويجب أن لا يغرب عن بالنا، أن يوسف قبض بيد من حديد على شؤون المغرب، ووقف صامداً بوجه تحركات الأمويين، والروم

الذين اغتنموا فرصة ذهاب الإمام المعز لدين الله إلى مصر، فقوى أسطوله، وزاد من عدد جنوده، وحارب بقوة وعزيمة كل من عصاه حتى أنه قبض على بعض أخوته الذين توجّس منهم خيفة فحبسهم، ولكنهم لم يلبثوا أن فروا من السجن، ولجأوا إلى مصر في عهد الخليفة الفاطمي الخامس الإمام العزيز بالله الذي قام بالوساطة بينهم، وتمكن أخيراً من إصلاح الأمور، وإعادتهم إلى المغرب.

ومما تجدر الإشارة إليه أيضاً أنه لم يكن راضياً عن وجود «ابن القديم» الذي عينه الإمام المعز لدين الله على جباية الأموال.. وعندما نشب القتال بين نائبه عبد الله بن الكاتب في المنصورية، وبين ابن القديم الذي أراد القيام بحركة ثورية انقلابية.. عندئذٍ زحف يوسف إلى المنصورية، وقبض على ابن القديم وأنصاره سنة ٣٦٤ هـ وقتله مع أتباعه وذكر أن عددهم بلغ سبعة آلاف.

الطريق إلى القاهرة

غادر الخليفة الرابع المعز لدين الله مدينة المنصورية.. ومنها وصل إلى برقة وكان يرافقه جمع من رجال الدولة، بالإضافة إلى أخوته وأولاده، وأبناء عمه، وثلاثة، «توابيت» تضم «رفات» عبد الله المهدي، والقائم بأمر الله، والمنصور بالله.

وعندما وصل إلى الإسكندرية خرجت الناس بشيبها وشبابها لاستقباله، وكان على رأسهم والي المدينة، وقاضي القضاة «الذهلي»، والأعيان، وكبار رجال الدولة... فجلس عند المنارة للاستراحة... ثم خطب بالجموع وقال:

إنه لم يرد دخول مصر ليزيد في ملكه، ولا لمال يحصل عليه، وإنما جاء لإقامة الحق، والحج، والجهاد، وتطبيق أوامر الله، والحفاظ على سنة الرسول الكريم محمد (ص) ولكي يختم عمره بالأعمال الصالحة... وقد وعظ.. وأطال في الوعظ حتى أبكى الحاضرين.

ومن الإسكندرية تابع المسير، فوصل إلى الجيزة، وهناك خرج إلى استقباله القائد جوهر الصقلي فترجل عندما رآه، وقبّل الأرض بين يديه، وكان في عداد مستقبليه أيضاً الوزير «جعفر بن الفرات» الذي رغب بالاجتماع إليه على انفراد، ثم إنه أبقاه معه ثلاثة أيام في الجيزة، ومن الجيزة تابع المسير. فعبر جنوده المرافقون نهر النيل إلى

مصر، ثم عبر هو أيضاً على سفينة جهزت له خصيصاً، وهكذا يكون قد دخل القاهرة دون أن يمر على الفسطاط، وكان أهلها قد زينوها، وأقاموا الأقواس، وتأهبوا لاستقباله.

ولما دخل القاهرة توجه إلى القصر الذى أعدَّه جوهر... فخرّ لله ساجداً ثم صلَّى ركعتين في إحدى الردهات، وصلَّى خلفه كل من كان معه... وهكذا استقرَّ الإمام المعز لدين الله في القصر الكبير مع أولاده، وأبناء عمه، وحاشيته، وخدمه، وعبيده. وكان جوهر قد أعدَّ كل ما يحتاج إليه الخليفة من أموال، وحلي، وجواهر وأثاث، ورياش - وأوانٍ، وثياب، وسلاح.

ومن الجدير بالذكر أن جوهراً كان يقيم في هذا القصر. فلما وصل المعز لدين الله غادره ولم يحمل معه أي شيء من أثاثه إلَّا ما كان عليه من الثياب، وانتقل إلى دارته التي أعدها لنفسه ولأسرته. وفي اليوم الثاني خرج أشراف مصر، وقضاتها، وعلماؤها لتهنئته، والسلام عليه. وقد وصف المؤرخون اليوم الأول الذي قضاه الإمام المعز لدين الله بقولهم:

«إنه جلس في قصره على سرير من الذهب كان قد صنعه له القائد جوهر، ووضعه في الإيوان الجديد، ثم أذن للناس بالدخول عليه، ووقف جوهر بين يديه، يقدم إليه الناس قوماً بعد قوم معرفاً بهم. وبعد أن فرغ من السلام على الناس تقدم منه القائد جوهر وطلب الإذن بتقديم الهدية التي أعدها له بمناسبة قدومه إلى مصر.. وكانت مؤلفة من:

مائة وخمسين فرساً ملجمة، وبعض السروج. واللجم الموشاة بالذهب، ومنها ما هو مرصَّع بالجواهر.. وواحد وثلاثين من الإبل، وعليها الديباج، والمناطق، والفرش، من النوق المحملة بالحرير، وثلاثين بغلة... سبع منها مسرجة وملجمة، ومائة وثلاثين بغلة للنقل، وأربعة صناديق مشبكة شفافة يرى ما في داخلها من أواني الذهب والفضة، ومئة سيف محلًى بالذهب والفضة. بالإضافة إلى الأواني والأوعية، وبعض التحف الثمينة.

ولما فرغ جوهر من تقديم هديته. نهض «أبو جعفر عبد الله الحسيني» وقدم هديته للمعز لدين الله. وهي أحد عشر سفطاً من متاع «تونة » و «تنيس» و «دمياط» وخيل وبغال.

ركب الإمام المعز لدين الله في اليوم الثاني إلى مسجد القاهرة فصلَّى في الناس، وجلس خلفه «أبو جعفر مسلم العلوي». ولما فرغ من

الصلاة صعد المنبر ومعه جوهر، وعمار بن جعفر.. فخطب وأبلغ في خطابه حتى أبكى المصلين. ولما عاد إلى قصره دعا الناس إلى تناول الطعام عنده... وبعد ذلك خلع على جوهر خلعة مذهبة، وعمامة، وقلّده سيفاً، وأهداه عشرين فرساً ملجمة ومسرجة، وخمسين ألف دينار، ومائتي ألف درهم. وفي المساء ذهب إلى «المقس» للإشراف على الأسطول الذي أعدّه جوهر وأكثر من عدد سفنه.

وكان الخليفة المعز لدين الله يشرف على أجزاء الدولة كافة، بحيث لا تفوته شاردة، ولا واردة، وكان يعتمد في تصريف الأمور، وقضاء الأشغال على نخبة من الموظفين والمساعدين، والمستشارين اختارهم بنفسه، فأعطى بعضهم صفة الوزارة من دون تسمية. ومن الواضح أنه نجح نجاحاً باهراً في سياسته وحكمه، سواء في المغرب ، أم في مصر.

لقد كانت الخلافة مقصورة على البيت الفاطمي، ويشترط فيمن يتولاها أن يحوز على النص من خليفة قبله يشترط فيه أن يكون خليفة أيضاً. وعندما جاء المعز لدين الله تسلَّم الخلافة بقوة، وجمع بين الدولة والدعوة، أي أنه تسلَّم السلطتين الروحية والزمنية، وعمل لكل منهما على ضوء عقله، وتدبيره، ونشاطه. فكان يستمد نفوذه الديني والسياسي من انتسابه لعلي بن أبي طالب، وفاطمة الزهراء. فبذل جهوداً جبارة في سبيل الحفاظ على هذا المركز بدقة وانتظام، وقد وجد أمامه دعاة أقوياء تمكنوا أن يضموا إلى صفوفهم كل من يعترف بالولاية لعلي بن أبي طالب، وأبناء الرسول الأعظم محمد (ص) وهذا النسب ظلَّ معترفاً به في العالم الإسلامي بالرغم من تنكر العباسيين والأمويين له.

هذا، ومن الجلي الواضح، أن الزعامة الإسلامية كانت تمر في صراع مرير على الخلافة الروحية والسياسة ، وقد عرف العالم الإسلامي أخيراً أن المعز لدين الله هو صاحب هذا الحق وحده بلا منازع.

ولما كانت الخلافة هي السلطة العليا للدولة، وتقوم على الدعاية، فإن المعز لدين الله حرص على إعطائها حقها، فوسَّع صلاحياتها، وأفسح المجال لولي عهده بمشاركته في الأعمال الحربية، والإدارية، والسياسية، وذلك كما فعل عبد الله المهدي مع القائم بأمر الله،

والقائم مع المنصور بالله، والمنصور مع المعز لدين الله، والمعز مع ولي عهده الأمير عبد الله الذي عهد إليه بولاية العهد... فلما مات عهد إلى ابنه الثاني العزيز بالله بالولاية. وقد كشف المعز لدين الله في مناسبات عديدة عن خططه المستهدفة النهوض بالرعية، وعبّر عن سهره على راحة أتباعه ورعاياه بقوله:

«للناس شغل بدنياهم، وما يتلذذون به منها، وشغلنا إقامة أودهم، وصلاح أحوالهم، والنظر فيما يعود عليهم، ويحمي حماهم، ويدفع عنهم، ويحقن دماءهم ويحصن حريمهم وأموالهم، ويكف أيدي المتطاولين إليهم بذلك، نقطع ليلنا ونهارنا من ذلك بمعزل، ومنه في غفلة بما هم فيه متشاغلون. فالله المستعان على ما قلدنا من أمورهم . وافترضه علينا من القيام بأسبابهم، ونرغب إليه في إصلاحهم وهدايتهم إلى ما فيه حظهم ونجاتهم في دنياهم وأخراهم».

هكذا كان المعز لدين الله، يعمل للإصلاح، ولصالح رعيته، وهذا يفسر مدى ازدياد نفوذه، وما ناله من ظفر ونصر في فتوحاته شرقاً وغرباً، معتقداً بأن الخلافة منصب عسير تحف به المتاعب، ولكن الله قلده إياه، وفوضه عليه، لأنه المختار من سلالة الرسول الأعظم محمد (ص).

وليس من شك بأنه كان يجمع في يديه السلطات كافة. فكان المحرك لجميع أعمال الدولة. يعين الولاة على الأقاليم، ويزودهم بنصائحه، ولا يترك المجال لغيره للتصرف بشؤون الدولة العليا، بل على العكس كان على اتصال بكل ما يجري فيها، وكان بالإضافة إلى كل ذلك القائد الأعلى للجيش، يعين كبار القواد الذين تفوقوا في الفنون الحربية، وعرفوا بإخلاصهم، وكثيراً ما كان يضع لقواده خطط الهجوم، والدفاع، والحرب، ويشرف على تنفيذها، وينظر في المظالم بنفسه، هذا بالنسبة لأمور الدنيا. أما أمور الدين والدعوة فكان يقبض عليها بيد من حديد... فيعين أيضاً كبار الدعاة، ويزودهم بكتب الباطن، والتعاليم الفلسفية، وكان على اتصال بهم سواء في المشرق، أم في المغرب حتى أصبح له في كل بلد إسلامي أعداد كثيرة من الاتباع والأنصار. وبعد هذا يمكن القول:

بأن الخليفة المعز لدين الله عـرف كيف يمثل منصب الخـلافة والإمامة، وعرف كيف ينتشل الدولة الفاطمية من الأخطار، ويسير بها في طريق مستقيم، ويحولها إلى أمبراطورية ذات شأن.

الخليفة الفاطمي الخامس العزيز بالله

هو الإمام الخامس عشر من جده الإمام علي بن أبي طالب، والخليفة الفاطمي الخامس... اسمه نزار ولقبه «العزيز بالله» وكنيته «أبو المنصور».

ولد سنة ٣٤٤ هـ بمدينة «المنصورية المغربية «تونس» وقدم مع والده الإمام المعز لدين الله إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ.

سمي ولياً للعهد عقب وفاة شقيقه الأكبر «عبد الله» وتسلّم الخلافة بعد وفاة والده الإمام المعز لدين الله سنة ٣٦٥ هـ. وكان له من العمر «٢١» عاماً.

توفي في «بلبيس» سنة ٣٨٦ هـ بينما كان في طريقه إلى الشام على رأس حملة كبرى لمحاربة الروم، وكان له من العمر /٤٢/عاماً.

دُفن على مقربة من والده في إحدى حجرات القصر الشرقي في القاهرة «المعزية».

عرف بسعة اطلاعه، ووفرة مداركه، وثقافته الواسعة.. وكان يجيد عدة لغات أجنبية منها: التركية، والكردية، والرومية، وكان أديباً وخطيباً، وشاعراً، وفارساً يُضرب به المثل، ويشهد له القواد، والفرسان المجربون.

كان الإمام العزيز بالله مولعاً بالصيد، ويولي الرياضة ، كالسباحة، وركوب الخيل، والرماية اهتمامه وذكر أنه كان يذهب في رحلات بعيدة لاقتناص الأسود في أغوار فلسطين وبلاد النوبة. وتقدّر السباع التي اقتنصها بخمسين سبعاً. بالإضافة إلى كل ذلك كان خبيراً بالمجوهرات وأنواعها، وبالأحجار الكريمة وأجناسها، ومصدرها، ومواضع وجودها. وكان كريم اليد ، متواضعاً، طيب القلب، يحب العفو عند المقدرة، ويفضل السلام إذا كان بالإمكان الاستعاضة به عن الحرب، وسفك الدماء. أما ولعه بالبناء والتشييد، والتنظيم فلا يسبقه أحد في هذا المجال، ولعل الآثار التي تركها في القاهرة خير ناطق وشاهد.. وعند الحديث عن البناء والعمران لابد من القول:

بأنه بنى «القصر الغربي» وكان يقع غربي «القصر الشرقي» في المكان المعروف اليوم «بـ خان الخليلي» ومسجد الإمام الحسين. أما الغربي فكان في سوق «النحاسين» وجامع قلاوون، وقد جعل بين القصرين الشرقي والغربي ساحة للعرض، ولتدريب الجنود كانت تدعى« ما بين القصرين»، وبنى قصراً في «عين شمس» سماه «قصر البحر» الذي قال عنه المؤرخ ابن خلكان:

لا يوجد له شبيه في الشرق، ولا في الغرب، ولكنه عرف أنه لم يكمله، فأتمّه ابنه الحاكم بأمر الله، وبنى مسجداً كبيراً لم يكمله أيضاً فأتمه الحاكم بأمر الله وسماه مسجد الحاكم بأمر الله، كما أقام في جامع عمرو منبراً كان آية في الروعة، وفي عهده حول الجامع الأزهر إلى جامعة، وجعل وزيره الأول «يعقوب بن كِلِّس» مشرفاً عليها، وفي عهده شادت والدته «تغريد» مسجداً عظيماً في القرافة، وجعلت إلى جانبه قصراً فخماً أحاطته بحديقة غناء، وبستان جميل، وأنشأت فيه حماماً وبئراً.

ويروى: أنها استحضرت لنقشه، وزخرفته جماعة من الفنانين من أهل البصرة، وكان مربع الزوايا، وفي جوانبه أروقة كما في الأزهر منقوشة نقشاً في غاية الروعة والإبداع. أما بابه فكان ذا مصطبة كبيرة تحت المنارة العالية، مصفحاً بالحديد. أما المقصورة فيدخل إليها من أربعة عشر باباً مربعة أمام كل باب قنطرة مقوسة على عمود من رخام في ثلاثة صفوف ، وكانت الأبواب مجوفة ومدهونة بالأزرق والأحمر، والأخضر، كما كانت السقوف ملونة بمختلف الألوان، وكان أمام الباب الأوسط قنطرة على هيئة قوس ملونة بألوان مختلفة يكاد الناظر إليها يخالها شكلاً طبيعياً. أما القصر فيتصل ببستان جميل، وفيه حمام وبئر كما ذكرنا، وكان الناس يترددون إليه للنزهة والراحة، وفيه قنطرة مقامة على قبو كثيراً ما يستظل به المسافرون.

العزيز بالله والسلطة

أدرك الخليفة الفاطمي الخامس العزيز بالله، كما أدرك آباؤه، وأجداده من قبل، أن الجيش هو العمود الفقري للدولة، وأن الأسطول من أهم مقوماتها لا سيما وأن بعض بلدان الدولة تقع على شواطىء البحر فأولاهما جلّ اهتمامه محاولاً الإضافة على ما كان أنجزه أبوه من قبله، ليجعل الأسطول الفاطمي الأول في العالم.

قسم الإمام العزيز بالله الجيش الفاطمي إلى كتائب، وفرق نظامية، كان لكل منها قيادة خاصة مرتبطة بالقيادة العامة، وأدخل إلى صفوفه عناصر من الأتراك، والأكراد. والديلم، وأطلق عليهم اسم الشرقي. أما الجيش الغربي فكان مؤلفاً من قبائل كتامة، وصنهاجة. وزويلة، وغيرها.. كما أدخل في صفوف الجيشين الشرقي، والغربي عدداً من الجنود المصريين، وذلك للحفاظ على التعادل، والتوازن العام.

وبالإضافة إلى كل ذلك جعل في الجيش فرقة كان يوليها اهتمامه وعنايته وهي: «الفرقة السودانية» وإلى جانبها فرقة أخرى تسمى «الصقالبة» وأفرادها من الأرقاء، وأصلهم من بلاد البلقان، وكانت هناك أيضاً فرقة تسمى «الإخشيدية» وعناصرها من بقايا الإخشيديين.

كان الجيش يضمُّ عناصر مختلفة، وأجناس متعددة، وكان قواده وأفراده يعيشون حياة رغيدة بفضل سهر الخليفة العزيز بالله على شؤونه، وإدخال الإصلاحات عليه، وبما كان يغمره من الرواتب والمنح والعطايا.

أما أسلحته فكانت الرماح، والحراب، والدروع، والأطبار «الفأس» والخناجر والمعافر «على الرؤوس» والمنجنيقات، والدبابات، وهي آلات من الخشب السميكة، ومن جلود الحيوانات التي لا تؤثر فيها النيران، وتتخذ عادة للهجوم بحيث يدخل فيها الجنود، ويُدفعون إلى جدران الحصون لنقبها وتهديمها، والكبش، وهي حجرة صغيرة يجلس في داخلها الجنود، وتستعمل لتهديم الأسوار، ونقب الأبواب والجدران، وهناك «النار الإغريقية» أو «النفطية» وتستخدم لإضرام النار.

ومن المعلوم أن الجيش الفاطمي في ذلك الوقت كان يعتمد على المشاة، بالرغم من أن الكتاميين اشتهروا بالفروسية. ولعل هذا هو سبب تراجعهم في بعض المعارك في فلسطين والشام أمام القرامطة الذين كانوا في حروبهم يعتمدون على الفرسان أكثر من اعتمادهم على المشاة. أما الألوية الفاطمية فكانت خضراء، وتارة بيضاء عندما يكون السلام والأمان.

أما بالنسبة للأسطول، فإن الخليفة العزيز بالله وجه عنايته واهتمامه إليه... فأكثر من بناء السفن الحربية، وجعل في مصر أماكن عديدة لصناعة السفن وإعدادها كالروضة، والفسطاط، والمقس، ودمياط، والإسكندرية... هذا فضلاً عن الأماكن الأخرى التي كانت تعمل في المغرب، وصقلية. ففي المغرب كانت موانىء الأسطول الفاطمي في المهدية وسوسة. أما الأسطول المولج بأوروبا، والروم فكانت مدائنه في جزيرة صقلية.

أما أنواع السفن التي كانت تؤلف الأسطول الفاطمي فهي:

١ ـ «**الشلنديات**» وهي من السفن الحربية المخصصة للهجوم أيضاً.

٢ ـ «**الشواني**» وهي سفن فيها أبراج كبيرة، تشبه البوارج الحربية الكبرى، وكانت مخصصة للهجوم وللدفاع.

٣ ـ «**المسطحات**» وهي من السفن الحربية المخصصة للهجوم أيضاً.

٤ ـ **الطرادات**» وهي سفن صغيرة سريعة الحركة تحمل الواحدة مئة محارب.

٥ ـ «**العشاريات**» من القوارب التي كانت تستعمل في الأنهر الكبيرة،ولكن الأئمة الفاطميين طوروها وأدخلوا عليها التحسينات، واستخدموها في البحار.

٦ ـ «**الحراقات**» وهي سفن قوية تحمل المنجنيقات وآلات التدمير والهجوم.

وكان يقود الأسطول قائد يسمى «أمير البحر» أو «قائد القواد» الذي يكون تحت إمرته عادة عشرات القواد.

ولم يكن بحارة الأسطول من رتبة واحدة، فهم درجات وحاملو رتب وأصناف.

وأقطع العزيز بالله رجالات الأسطول إقطاعات عرفت باسم «أبواب الغزاة» وترك لهم الغنائم، والثياب، والمتاع، ولم يستبقِ للدولة سوى الأسرى، والسلاح، والعتاد.

ومن المشهور عن الإمام العزيز بالله، أنه سار على خطى والده الإمام

«المعز لدين الله» فكان يشاهد بنفسه الأسطول حين خروجه، فيقيم له معالم الأفراح، ويبارك رجاله، ويدعو لهم بالتوفيق.. كما كان يحضر حفلة استقباله عند عودته من المعارك.

وعزّز الإمام العزيز بالله الأسطول التجاري الذي أُنيط به نقل السلع والمواد المصدرة إلى البلدان الأخرى، والعودة محملاً بأرزاق، وبضاعة تلك البلدان.

وكان للدولة الفاطمية في ذلك العهد أسطولان تجاريان : أحدهما: في البحر الأبيض المتوسط، والثاني في البحر الأحمر. فكانت الإسكندرية ودمياط في مصر، وعسقلان، وعكا، وصيدا، وصور في الشام من أهم الموانىء في البحر الأبيض المتوسط كما كانت «عيذاب» من أهم موانىء البحر الأحمر. هذا ويجب أن لا يغيب عنا أن الأسطول التجاري الفاطمي كان مزوداً بأسطول حربي مهمته ردع قراصنة البحر.

العزيز بالله وأعوانه

كان الإمام العزيز بالله موفقاً، باختيار أعوانه ورجال دولته. وبارعاً في توزيع الأدوار والمهمات عليهم، حسبك أنه أعاد القائد الكبير جوهراً الصقلي إلى الخدمة، وكنا قد ذكرنا خبر اعتزاله وانزوائه. فسلّمه مركز القيادة العامة للجيوش الفاطمية على أسس وصلاحيات جديدة، كما سلّم «يعقوب بن كِلّس» صلاحيات الوزير الأول أي «رئيس الوزراء» ومنحه التفويض التام للنهوض باقتصاد البلاد، واعتمد «جبر بن القاسم» وهو مغربي ليكون نائباً عنه عند غيابه، وقد نفّذ هذه المهمة عندما خرج من مصر إلى فلسطين والشام لحرب أفتكين، والقرامطة، وأعطاه صلاحيات الخليفة بالتوقيع، والصرف، والعزل، والنقل، وكل ما يتعلق بشؤون الدولة. ومن الجدير بالذكر بأن «جبر ابن القاسم» كانت له رتبة عالية في الدعوة.

واعتمد «جعفراً بن الفضل بن الفرات» كمستشار خاص به، كما أعتمد «علياً بن عمر العداس» وهو مغربي، وأناط به مهمات دولية أخرى.

أما «عيسى بن نسطورس» القبطي. فقد سلّمه الصلاحيات كافة التي كانت ممنوحة «ليعقوب بن كلّس» بعد وفاته، ولكن بعض المسلمين

حقد عليه ورفع ضده جملة شكايات تؤكد أنه كان يعين النصارى في مناصب الدولة، بعد أن يقضي المسلمين عنها. لما تكاثرت الشكايات أمر الإمام العزيز بالله باعتقاله ولكن «ست الملك» ابنة الخليفة تشفعت له، فأعاده الإمام العزيز بالله إلى منصبه، وظل حتى سنة ٣٨٦ هـ وبعد وفاة الإمام العزيز بالله قبض عليه القائد «ابن عمار» وأعدمه.

تسلَّم الخليفة الإمام العزيز بالله شؤون الدولة الفاطمية، بعد وفاة والده المعز لدين الله حيث أعلنت وفاته دون كتمان، فتراءت أمام أنظاره دولة كبرى واسعة الأطراف، غنية الموارد، معززة الجوانب، مقسمة إلى ولايات وأقاليم، يدير شؤونها، ويضطلع بإدارتها رجال مجربون عرفوا بسعة اطلاعهم، وخبرتهم، وإخلاصهم، وتسكنها شعوب، وقبائل مختلفة الأجناس، واللغات، ويحمي حدودها جيش منظم كبير، وأسطول بحري يمخر عباب البحار شرقاً وغرباً للحفاظ على هيبة الدولة. وحماية حدودها ومرافقها، كل هذا وضعه أمام المسؤوليات الجسام، وأجبره على التفرغ للعمل، والسهر على مصالح الدولة التي أفنى آباؤه وأجداده حياتهم في سبيل إقامتها، والحفاظ على كيانها، والسير بها قدماً نحو مدارج الرقي والتطور والحضارة.

وكان المغرب بجميع أجزائه، يقبض عليه بيد من حديد رجل قوي مجرَّب عرف بإخلاصه وتفانيه في خدمة الدولة الفاطمية والخلفاء الذين أشادوا هذه الدولة. هو «يوسف بن زيري بن مناد» أمير صنهاجة الذي كان الخليفة الرابع الإمام المعز لدين الله قد ولاه شؤون المغرب نيابة عنه، عندما غادره، وجاء إلى مصر للإقامة فيها. فخضع المغرب للنائب الجديد خضوعاً لم يكن يشوبه إلا بعض القلاقل القبيلية الموضعية التي لم تكن تشكل في مجموعها أي خطر على الدولة، وما عدا ذلك فكان المغرب يؤدي ما عليه من ضرائب، وأموال، وخراج، وكأنه إقليم خاضع للقاهرة. هذا بالإضافة إلى مساهمته بإرسال الجنود إلى مصر للمساهمة في الحروب، والفتوحات، وضم البلدان، والأمصار، ولكن كل هذا قد تغير بعد ذلك عندما جاء «منصور بن يوسف» وخلف والده ، فثارت في نفسه نوازع التفرد بالحكم والاستقلال، وفصل المغرب عن مصر. وعندما علم العزيز بالله بما يضمره منصور، جنح إلى الحكمة والعقل لأن الدولة كانت في

وضع لا يسمح لها بالدخول في معارك جانبية، فكتب إليه، وشوقه، وأغراه، ومنحه بعض الصلاحيات والامتيازات، وظلت علاقته أخيراً مع الإمام العزيز بالله على خير ما يكون من الود والوفاق.

أما صقلية فظلت محافظة على هدوئها، واستقرارها تنعم بالراحة والاطمئنان في ظل أسرة «الكلبيين» المعروفين الذين حافظوا حتى النهاية على ولائهم للأسرة الفاطمية، فلم يخطر ببال أحد منهم الخروج أو العصيان. بل ظلت الجزيرة الكبرى على ما هي عليه لا يعكر صفو عيش أهلها إلّا بعض ـ التحركات، والاتصالات، والمحاولات من قبل الروم تارة، والأمويين تارة أخرى لإحداث القلاقل، وإخراج القاعدة الحربية الكبرى عن هدوئها، واستقرارها. على أن كل هذا لم يكن ليغير من وضع الجزيرة الراهن التي كانت مرتبطة ارتباطاً مباشراً، ووثيقاً بالقاهرة.

وكانت مصر تنعم بهدوء واستقرار وازدهار اقتصادي لم يسبق لها أن نعمت به في حياتها دون أن يحول صغر سن الإمام العزيز بالله دونه ودون العمل على تحسين أوضاع الدولة والتقدم بها. وإنه لمن حسن حظه أنه استطاع منذ الأيام الأولى لتسلمه شؤون الخلافة أن يختار الأعوان والولاة والقواد . فمنحهم الصلاحيات . ووزع عليهم المسؤوليات والتعليمات. فلا غرابة بعد ذلك إذا ما رأينا البلاد في عهده تتخطى الصعاب فتصل إلى أعلى مستوى من الازدهار الاقتصادي. فقد تحسنت في ذلك العهد أحوال سكان ريف مصر تحسناً كبيراً، وهاجر الكثير من الأغنياء، ورجال المال، والأعمال إلى القاهرة للإقامة فيها، والعمل في المجالات الاقتصادية، وتوسعت دائرة التجارة، والتصدير، ونمت الزراعة، وكثرت المحاصيل، وتدفقت الأموال على خزائن الدولة.

وهكذا نعم الشعب بالرفاهية، ورغد العيش، وبالإضافة إلى كل ذلك يجب علينا أن لا ننسى «الأموال الخاصة» العائدة للخلفاء الفاطميين التي كانت ترسل من قبل أتباعهم في المشرق والمغرب باسم أموال «الزكاة». فهذه الأموال كانوا يضيفونها إلى أموال الدولة، ويخصصون القسم الأكبر منها لتغطية نفقات الجيش. من هنا يبدو ـ أن مصر انتقلت إلى طور جديد، وعهد جديد من الأمن، والرخاء، والإزدهار، والعمران. واستقرَّت الأمور وتوطَّدت أركان

الخلافة الفاطمية، وامتدَّ نفوذها، وسلطانها إلى ما وراء الحدود والبحار، وكلُّ هذا بفضل السياسة الحكيمة، والإرادة الواقعية التي رسمتها الدولة في المجالين الداخلي، والخارجي.

أما بالنسبة لفلسطين والشام: فحينما تسلَّم الإمام المعز لدين الله مقاليد الحكم، كانت الشام في مهب العواصف والأنواء تعاني من الاضطراب، وعدم الاستقرار.. ومن الجدير بالذكر أنها كانت تخضع للحكم الفاطمي فترة ثم لا ـ تلبث أن تخرج عن هذا الحكم لتستقل أو لتستقبل فاتحاً آخر.

ففي سنة ٣٦٤ هـ. استولى القائد التركي «أفتكين» عليها، بينما جاء القرامطة واستولوا على فلسطين، فكان على الإمام العزيز بالله أن يعمل على استرداد الشام وفلسطين بشتى الوسائل... فبذل لأفتكين شتى المغريات، ورغبه بالإبقاء عليه والياً على الشام، هذا إذا ما بايعه في الخلافة، ودخل تحت طاعته، ولكن أفتكين رفض الطلب، وهذا ما جعل الخليفة الإمام العزيز بالله يضع الخطط لاستعادة فلسطين والشام.

ولكي لا يأتي خبر تمرّد أفتكين منقطعاً عن سياقه، فإننا سنعود إلى الوراء، أي إلى الزمن السابق على زمن الإمام العزيز بالله.

الاضطرابات والقلاقل في فلسطين والشام

عندما تقهقر الحسن القرمطي «الأعصم» عن مصر سنة ٣٦٣ هـ، عاد إلى بلاده، واستولى الفاطميون على الشام، ولكن لم يكن معنى ذلك أن الأمر قد استتب لهم في هذا القطر. فالإمام المعز لدين الله استغل العداء الذي ظهر فجأة بين الزعيم العربي «ظالم بن موهوب العقيلي» وبين «الحسن الأعصم» ، «وأبي المنجا» نائبه في الشام، فعين ظالماً على دمشق، وعندئذٍ قام ظالم، فجهّز جيشاً كبيراً من العرب، وانضم إليه بعض الجنود الفاطميين، فاستولوا على دمشق وقبضوا على أبي المنجا وابنه وكان هذا انتصاراً حاسماً للفاطميين ولقد اعتقد المعز لدين الله أن بلاد الشام أصبحت تحت نفوذه، وأن القرامطة لن يعودوا بعد الآن... وقد تعزز ذلك بإرسال قوى فاطمية، وضعت تحت تصرف ظالم لإقرار الأمن، والسلام، ونشر نفوذ

الفاطميين، وكان على رأس هذا الجيش «علي بن جعفر بن فلاح» نجل القائد الفاطمي «جعفر بن فلاح» الذي قتله القرامطة في دمشق.

وبعد فترة ضاق أهل الشام ذرعاً بظالم بن موهوب، ومن معه من الإعراب، كما ضاقوا بعلي بن جعفر، وجيش المغاربة، فقاموا بثورة ضدهم. ومن الغريب أن ظالماً العقيلي وقف بجانب أهل الشام، أو بلغة أصح كان موقفه كموقف رجال البوليس، فلم يستطع رد أهالي دمشق كما لم يستطع قمع المغاربة. وأخيراً: وقف ضد المغاربة فقاتلوه، وتمكن علي بن جعفر من إلحاق الهزيمة به، وإحراق المدينة ونهبها، والتنكيل بأهلها، وقد استمرت الفتنة قائمة مدة تزيد على الستة أشهر.

بعد هذا نُحيّ ظالم عن حكم دمشق، وولّى علي بن جعفر ابن اخته «جيش بن الصمصامة» على دمشق، ولكن ذلك لم يدم سوى شهر واحد. فاندلعت الثورة من جديد، ولما علم الخليفة الإمام المعز لدين الله بالأمر عين «ريان الخادم» والي طرابلس على دمشق ثم أعاد علي ابن جعفر إلى الرملة، وظلّ هذا القرار معمولاً به إلى حين دخول «أفتكين» دمشق، وعندئذٍ قام ظالم بن موهوب ـ العقليلي، وكان قد عين من قبل الفاطميين والياً على إقليم بعلبك، فاستعان بعلي بن جعفر والي الرملة، وتقدما بجيوشهما لصد أفتكين الذي كان قد استعان بالحمدانيين، وعلى أبواب دمشق وقعت معارك رهيبة، تمكّن أفتكين من إحراز الانتصار فيها ودخول المدينة.

أجل: لم تستقر الأمور في الشام للفاطميين منذ عهد الإمام المعز لدين الله، فمنذ مقتل القائد الفاطمي «جعفر بن فلاح» على أيدي القرامطة، وبلاد الشام عرضة للغزوات تأتيها تارة من الشمال، وتارة أخرى من الجنوب، وفي عهد الإمام العزيز بالله أي بعد أن تم لجوهر الصقلي القضاء التام على جيش القرامطة، وجيش أفتكين معاً، تغلب عليها رجل من أهلها اسمه «قسّام» فخلع طاعة العزيز بالله، واستقل بالأمر دونه، فأرسل إليه العزيز بالله القائد «الفضل بن صالح» ولكنه لم يتمكن من دخول المدينة، فاضطر للمرة الثانية إلى إرسال قائداً آخر هو «بكتكين» فجاء إلى دمشق وحاصرها، ثم دخلها أخيراً، واعتقل «قسّام» وأرسله مخفوراً إلى القاهرة ، ولكن الإمام العزيز

بالله عفا عنه بعد أن قضى مدة في الاعتقال.. وظل بكتكين يحكم الشام خمسة أشهر إلى أن جاء «بكجور» أحد قواد بني حمدان، فحكم دمشق فترة وذلك سنة ٣٧٢ هـ.

أما في فلسطين، فقد قام أحد زعماء العرب وهو «المفرج بن دغفل بن الجراح». فاستولى على الرملة وما جاورها، وكان يظهر الطاعة للفاطميين أولاً، ولكنه عاد سنة ٣٧١ هـ - فخلع طاعتهم.. فسير إليه العزيز بالله «رشيق العزيزي» حيث طرده من فلسطين، ومن الشام أيضاً. فالتجأ إلى أمبراطور الروم، ثم عاد وأعلن طاعته للإمام العزيز بالله فعفا عنه.. أما حلب فكانت تحت حكم «سعد الدولة» بن سيف الدولة الحمداني سنة ٣٨١ هـ. وكان الحمدانيون يدينون بالولاء للعباسيين. أما علاقاتهم بالفاطميين فكانت بعيدة عن الود، وكثيراً ما كانوا يستعينون بالروم للحفاظ على إمارتهم. وللوقوف ضد التوسع الفاطمي.

ثار قرعويه على سعد الدولة، وانتزع حلب منه، فسار سعد الدين إلى حمص حيث أقام الدعوة للفاطميين، ثم استعان بالقائد بكجور، وأقام الدعوة للطائع العباسي، وولاه على حمص، وسرعان ما ساءت العلاقات بين سيف الدولة وبكجور أيضاً، مما اضطر بكجور إلى الاستعانة بالفاطميين لفتح حلب، ولكن حلب استعانت بالروم أيضاً بينما وعد العزيز بالله بكجور بولاية دمشق. إلا أن ذلك لم يصادف هوى لدى الوزير يعقوب بن كلّس فمانع في ذلك، وطلب من بلتكين عدم تسليم دمشق إلى بكجور، وحذر الخليفة العزيز بالله من تسليم البلد إليه، ولكن عندما علم الوزير أن المغاربة يستعدّون لقتله اضطر مرغماً إلى استدعاء بلتكين وقواته، وتسليم الشام إلى بكجور الذي لم ينسَ للوزير معارضته، فأساء إلى أصحابه في دمشق، وقتل نائبه فيها.

وهنا كان لابد للإمام العزيز بالله سنة ٣٧٨ هـ. من تجريد حملة عهد بقيادتها إلى «منير الخادم» وأصدر الكتب إلى جميع الولاة الخاضعين له بمساعدته، والسير معه، وهنا جمع بكجور العرب وغيرهم، والتقى الجيشان عند «داريا» حيث دارت الهزيمة على بكجور، وخاف من وصول «نزّال» والي طرابلس لمؤآزرة منير الخادم وكان قد كوتب بذلك، فبادر بطلب الأمان من «منشا» كاتب الجيش

على أن يسلّم دمشق. فأمنه وغادر دمشق إلى الرقة، فغضب الإمام العزيز بالله على «منشا» لتركه بكجور وتأمينه خوفاً من عودته لدمشق، فعزله عن كتابة الجيش، ثم أرسل إلى بكجور يسترضيه، ويترك له أملاكه وضياعه في دمشق دون مصادرة، وهكذا تسلّم منير الخادم دمشق، وفرح أهلها بولايته، ورجعت الشام ما عدا حلب وضواحيها إلى الحكم الفاطمي.

لم يفقد العزيز بالله الأمل في ضم حلب إلى سلطانه، وكان بكجور عندما فرَّ إلى الرقة قد كتب إلى «بهاء الدولة بن بويه» للدخول في طاعته، كما كتب إلى صاحب ديار بكر يدعوه للانضمام إليه، وكتب إلى سعد الدولة صاحب حلب للعودة إلى ما كان عليه من الطاعة على أن يعطيه حمص، فلم يجد أذناً صاغية، وعندئذٍ أخذ يكتب إلى بعض رفاقه من قواد سعد الدولة، فأجابوه إلى طلبه بالعمل على إحداث انقلاب ضد سعد الدولة وأرسل إلى العزيز بالله يمّنيه بحلب، فمال إلى مساعدته، ولما هاجم بكجور حلب كان على موعد مع نزّال وجيوشه، ولكنه لم يأتِ، كما أن قواد سعد الدولة تخلوا عنه وخافوه، فكانت النتيجة أن حارب وقتل.. وهنا يبدو أن الإمام العزيز بالله قد تخلّى عن فكرة احتلال حلب، مفضلاً الخروج لقتال الروم الذين كانوا يساعدون حلب، ويمدّوا أهلها بالمساعدات، وذلك كي لا تقع إمارتهم في أيدي الفاطميين.

وهكذا فإن النفوذ الفاطمي لم يتوقف عند حلب وخاصة في عهد العزيز بالله، فتطلعات الفاطميين كانت تذهب إلى أبعد من ذلك... إلى بغداد.. وإلى الموصل.. حيث ذكر التاريخ أن حكامها العقيليين قد ضربوا السكة باسم الإمام العزيز بالله، وخطبوا له على المنابر وذلك سنة ٣٨٢ ،في عهد محمد بن المسيب العقيلي.

أما الروم وعلاقاتهم بالفاطميين في عهد الخليفة العزيز بالله، فمن الثابت أنها كانت محكومة بقانون المدّ والجزر، فهؤلاء كما يبدو قد وضعوا خطة عامة لهم تقضي بالوقوف في وجه المدّ الفاطمي، والتصدي لمحاولاتهم التوسعية، وعدم إفساح المجال أمامهم لاحتلال حلب، لأن معنى ذلك اتخاذ هذه المدينة قاعدة لشن الهجمات عليهم فكانوا يحرضون على إبقاء الدولة العباسية في وضعها الراهن،

ومساعدة الحمدانيين على الاحتفاظ بإمارتهم في حلب، ثم مساعدة كافة الحركات التي تندلع سراً أو علانية في الشام وفلسطين لإشغال الفاطميين. كل هذا وكانوا يتظاهرون بأنهم مع الفاطميين، يخطبون ودهم في شتى المناسبات. هذا ومن الجدير بالذكر أنهم بادروا أخيراً، وفي عهد الإمام العزيز بالله إلى عقد معاهدة صلح مع الفاطميين من بنودها:

١ ـ أن يطلق الروم سراح كل أسرى المسلمين

٢ ـ أن يدعى للخليفة العزيز بالله في جامع القسطنطينية.

٣ ـ أن تضع الحرب أوزارها لمدة سبع سنوات.

ولكن هذه المعاهدة نُقضت بعد وقوع حوادث عنيفة في حلب. ومما يجب أن نشير إليه: أن الخليفة العزيز بالله عندما علم بعزم الأمبراطور باسيل على التوجه إلى الشام قرر الخروج بنفسه لملاقاته. فأمر بإعداد الحملة والأسطول. ولكن الأسطول الفاطمي اشتعلت فيه النيران فجأةً سنة ٣٨٦ هـ. في دار الصناعة. وثبت أن التجار الروم الذين كانوا يتعاطون الأعمال التجارية مع مصر هم الذين أضرموا فيه النار، وهذا ما جعل الإمام العزيز بالله يأمر بالقبض عليهم، وإعدام مئة وستين منهم.

العزيز بالله والدعوة الاسماعيلية

أشرنا في الصفحات السابقة إلى أن الأئمة الفاطميين منذ أن تسلموا منصب «الخلافة» كرسوا الجزء الأكبر من أوقاتهم للإشراف على الدعوة السرية، والسهر على مدارس الدعاة، وتثقيفهم، وتدريبهم، وإعدادهم للعمل في الأقطار الإسلامية. فمراكز الدعوة ـ الإسماعيلية في الأقطار كما أشرنا هي للقوة الفعالة التي كانت تهيء الأجواء، وتعطي الانطباعات في كل مكان عن الدولة الفاطمية، كما أنها كانت تمدها بالأموال عند المحن والشدائد، وأوقات الحروب والفتوحات. فضلاً عن أن منظماتها، ومدارسها السرية كانت تعمل دون كلل على استقطاب الأنصار والإخوان، ودمجهم في صفوف الدعوة، ونشر العلوم والأفكار على أوسع نطاق.

من جهة ثانية تؤكد المصادر الفاطمية. بأن عهد الخليفة العزيز بالله كان غنياً بالدعاة، والعلماء، والفلاسفة، فالازدهار الفكري والدعائي في ذلك العهد وصل إلى القمة وخاصة في بلاد الشام. ومدن حمص، وحلب، وطرابلس الشام، وبين القبائل العربية المخيمة على شواطىء الفرات كبني عليم، وبني أسد وغيرهم. أما في القطر العراقي، ومنطقة الخليج العربي فالموقف آنئذٍ يختلف.. وكنا أشرنا إلى أن الدولة القرمطية انتهت في المعركة الأخيرة التي خاضها زعيمها الحسن الأعصم ضد الإمام العزيز بالله، والقائد جوهر الصقلي في الرملة، وزالت كقوة عسكرية، ولكن القرامطة لم يختفوا عن المسرح كإسماعيليين تابعين للدولة الفاطمية، ولكن كل هذا جاء على أسسٍ جديدة.

وفي بلاد فارس كان نشاط الدعاة الإسماعيليين على أشدّه. فالدعوة قادها في ظروف عسيرة أعلام من الفلاسفة والمفكرين الذين لعبوا دوراً بارزاً في مجال العلم والفكر. وسنتحدث عنهم في الجزء الثالث من هذا الكتاب. ويجب أن لا ننسى أن الدعوة كانت تسير سيراً بطيئاً في اليمن، أما في السند فكان النشاط على أشده.

جوهر الصقلّي القائد المظفر

افتتح المعزّ لدين الله عهده بإسناد قيّادة الجيش الفاطمي إلى «جوهر الصقلّي» الذي كان مضطلعاً قبل ذلك بديوان الكتابة والإنشاء. وجوهر هذا لم يشتره المعزّ لدين الله كما تزعم بعض المصادر، بل الذي اشتراه هو الإمام القائم بأمر الله، كما فصّلنا في كتابنا «جوهر الصقلّي».

ولد جوهر بين العامين ٢٩٨ و ٣٠٠هـ وولد المعزّ لدين الله عام ٣١٩هـ مما يعني فارقاً بالسنّ بين الرجلين يقارب العشرين عاماً، فمتى ذهبت المعزّ لشراء جوهر؟ بل متى كانت أسواق النخاسة تعرض الكهول والشيوخ على زبائنها؟

أجل.. اختار المعز لدين الله جوهراً لقيادة جيوشه.. وقد اقترن اسمه كما سيظهر باسم مصر، فقد عرف أنه فاتحها، وموطّد أركانها، ومقيم تعاليم وأفكار الفاطميين في ربوعها... ومن الجدير بالذكر أن كل هذا

قد تمَّ له بعد أن أخضع مراكش، والجزائر، وتونس، وليبيا، وصقلية لدولة المعز لدين الله الفاطمية، وبعد مصر، تأتي فلسطين، وبلاد الشام، والنوبة، والحجاز... وإذا كان اسم المعز لدين الله قد اقترن باسم القاهرة، فمن حق جوهر أن يقرن اسمه بجامعة الأزهر. فهو واضع حجر أساسها، ومقيم أركانها ودعائمها. نُظر إليه كقائد من القواد العباقرة أمثال: خالد بن الوليد، وطارق بن زياد، وغيرهما من القواد المسلمين المشهورين. وجاء من يقول:

بأنه كان أقدر فهماً بإدارة البلاد وسياسة الجنود، وفنون القتال. ولد في جزيرة صقلية ، واتفقت المصادر كافة على القول بأنه رومي الأصل، ولكنه مسلم، بدليل أن والده كان يسمَّى «عبد الله» ومما يثبّت صحة إسلامه تمسكه بأهداب الدين الإسلامي، وحرصه على إعلاء كلمته، وإحياء أمجاده . أخذ بنصيب وافر من الثقافة العربية واللاتينية، وعرف اللغات السائدة في عصره، ودرس العربية. والرومانية وتاريخ الحروب، وأساليب القيادة السياسية والحربية، وكل هذا أكسبه مهارة في الحروب التي خاضها، وخبرة في إدارة البلدان التي افتتحها، وفي سياسة الدول التي أخضعها لحكمه.

ليست هناك أية مصادر تاريخية تشير بالضبط إلى السنة التي ولد فيها، ولكن هناك ما يؤكد بأنه عاش أكثر من ثمانين عاماً، ولهذا رجّح بعض المؤرخين أن تكون ولادته وقعت ما بين سنة ٢٩٨ هـ إلى سنة ٣٠٠ هـ. كما ذكرنا آنفاً. أما وفاته فكانت في سنة ٣٨١ هـ.

شبَّ جوهر وترعرع في حجر الأسرة الفاطمية في المغرب.. أي بين شباب وأمراء الأسرة الحاكمة وقد ذكرنا أن الخليفة الفاطمي الثاني القائم بأمر الله اشتراه من سوق المزاد، بعد أن توسَّم فيه الذكاء والنجابة، فجعله بين أبنائه، وأحاطه برعايته وعطفه، كما أنه وفَّر له أسباب الدرس والتحصيل، ولما كبر سلَّمه المنصور بالله بعض المسؤوليات في القصر، ومنها رئاسة ديوان المراسلات والإنشاء، بالإضافة إلى تدربه على شؤون الإدارة، وطرق الحكم والقيادة. وظلَّ حتى مجيء المعز لدين الله إلى سدة الخلافة وعندئذٍ عينه وزيراً ثم رقَّاه سنة ٣٤٧ هـ. إلى منصب القيادة العامة للجيش، وأمر أن ينضوي تحت قيادته كل من القواد «جعفر بن فلاح» أمير كتامة،

و «زيري بن مناد» أمير صنهاجة و «جعفر بن علي» أمير المسيلة. وهؤلاء القواد عملوا تحت إمرته في حملته الأولى التي أخضع فيها المغربين الأقصى والأوسط.

كادت الثورة الكبرى التي أذكى نارها «أبو يزيد مخلِّد بن كيداد» الخارجي في عهد الخليفتين القائم بأمر الله، والمنصور بالله أن تعصف بالدولة الفاطمية، وتترك المغرب بكافة أجزائه في حالة يرثى لها من الفوضى. فقد استنفدت الثورة المذكورة كافة الأموال والموارد في الدولة، وجعلتها في حالة من الانهيار الاقتصادي حتى أن المنصور بالله عجز مرة عن دفع بعض المرتبات لعمال الدولة وللجند، وأوقفت هذه الثورة كل نشاط أو تفكير بإرسال أية حملة إلى المشرق فظل هم الخليفتين الثاني والثالث محصوراً ضمن نطاق تأديب العصاة والثائرين الذين شقوا عصا الطاعة وقاموا بدافع من الأمويين يعملون للإجهاز على الدولة الفاطمية.

ومن المفيد أن نشير إلى أن عبد الله المهدي استطاع أن يمزق دولة الأدارسة في فاس بواسطة حليفه «موسى بن أبي العافية» وقائده المشهور «مصالة بن حبوس»، ولكن إزالة هذه الدولة من فاس جعل الدولة الفاطمية أمام أخطار عديدة أهمها:

تكتّل الأدارسة وأنصارهم في بلاد الريف، ووقوفهم موقفاً معادياً للفاطميين ثم ارتماؤهم أخيراً في أحضان الأمويين في الأندلس. فأبو موسى بن أبي العافية وأبناؤه انحازوا إلى الأمويين فيما بعد وأعلنوا قيام دولتهم المستقلة عن الفاطميين في المغرب الأقصى. واستقام الأمر لموسى فيما بعد كما قلنا في المغربين الأقصى والأوسط بعد زوال الأدارسة، وقد جرى كل هذا بعدما أخذت مطامع الأمويين تتجه إلى بسط النفوذ... يتجلى ذلك باستيلائهم على مدينة «سبتة» سنة ٣١٩ هـ. وإعلان الخطبة. لهم في كافة البلدان المغربية التي استولى عليها ابن العافية، وقد ساعدهم على ذلك وفاة القائد الفاطمي الكبير «مصالة بن حبوس» والانتصار الذي حققه على «الحسن بن محمد الإدريسي» الملقب «بالحجّام» وهو آخر أمراء الأدارسة في فاس سنة ٣١٣ هـ، وبعد هذا صفا له الجو في أكثر أجزاء المغرب الأقصى.

أما الفاطميون، فكانت غايتهم الاحتفاظ بهيبتهم ولو شكلياً في تلك

البلاد النائية على الأقل، لذلك أرسل عبد الله المهدي جيشاً بقيادة «حمد بن يصال» قائد منطقة «تاهرت» وابن أخي القائد المشهور «مصالة بن حبوس»، فاستطاع بعد سلسلة من المعارك أن يوقع الهزيمة بابن العافية، ويضطره إلى الفرار من فاس، وقد ساعد الأدارسة الفاطميين في هذه المعارك، واشتركوا في القتال إلى جانبهم لاحباً بالفاطميين، ولكن تشفياً، وانتقاماً من ابن العافية الذي عاث فساداً في ديارهم، وكان العامل الأكبر في تهديم دولتهم.

بعد هذه الأحداث عين «حمد بن يصال» «حامد بن حمدان» والياً على فاس، وعاد بعد ذلك إلى قاعدته «تاهرت» ، ولكن لم تمضِ سوى فترة قصيرة حتى قام «أحمد بن أبي الجزامي» وهو من أعداء الفاطميين المعروفين، فاستولى على فاس، وقتل حامداً وأرسل رأسه إلى ابن العافية الذي أرسله بدوره إلى «قرطبة» وهكذا عاد نفوذ الأمويين إلى المنطقة من جديد.

وعندما تسلَّم الإَمام القائم بأمر الله شؤون الخلافة، أرسل قائده «ميسور الفتى» سنة ٣٢٢ هـ ـ فاستولى على فاس، وقبض على الجزامي، وساقه أسيراً إلى «المهدية» وقد تمَّ هذا بعد حصار لفاس دام سبعة أشهر، اشترك فيه الأدارسة إلى جانب الفاطميين أيضاً، وقبل أن يغادر ميسور مدينة فاس عيَّن عليها «الحسن بن القاسم اللواتي» الذي أعاد الخطبة للقائم بأمر الله، وضرب السكة باسمه، وقد استمرَّ ذلك مدة سبعة أعوام. وأخيراً: عاد الجـزامي سنة ٣٣٥ هـ، بعد أن أطلق سراحه من المهدية، فتمكن من خلع اللواتي، وإعادة النفوذ الأموي.

ومهما يكن من أمر... فإن خطر بيت أبي العافية ظلَّ جاثماً على صدور الفاطميين مدة طويلة، ولم يزل هذا الخطر قائماً حتى عهد المعز لدين الله. ومـن الجدير بالذكر: أنه لم يتمكن من القضاء على دولتهم حتى سنة ٣٦٣ هـ وأن «جوهراً الصقلي» برغم انتصاراته العظيمة في حملته الكبرى سنة ٣٤٧ هـ. فإن بيت أبي العافية ظل يتحرك ويعود إلى الأدارسة..

إن موسى بن أبي العافية ساهم في بادىء الأمر، واتفق مع الفاطميين على القضاء على دولة الأدارسة في فاس، وقد كان اتحاد موسى مع

مصالة بن حبوس سنة ٣٠٥ هـ إلى سنة ٣٠٩ هـ آخر سهم وجه إلى صدر أميرهم «يحيى الرابع بن إدريس» الذي فرَّ إلى المهدية ومات فيها سنة ٣٣٢ هـ. وبعد يحيى ظل الأدارسة يتطلعون إلى ملكهم، ويحاولون استعادته فثار الحسن بن محمد الحجّام كما ذكرنا على الوالي الفاطمي سنة ٣٠٠ هـ إلى سنة ٣١٢ هـ وطرده، ثم استبد بأمور فاس، وهزم جيش ابن أبي العافية في بادىء الأمر، ولكنه في النهاية تغلّب عليه وطرده من فاس بعد أن استنجد بالفاطميين فاضطرّ الأدارسة بعد هذه الأحداث إلى الاعتصام في إقليمَ الريف.

أما موسى بن العافية فبعد أن حقق كل ما أراده، تنكّر للفاطميين، وحارب نفوذهم، ووجودهم في المغرب الأقصى بواسطة الأمويين في الأندلس.

أمام هذه الأحداث، والمناورات أدرك الفاطميون والأدارسة معاً أن ابن العافية هو سبب المآسي التي تعرَّض ويتعرَّض لها المغرب الأقصى.

أجل. وضعوا أمامهم صورة عن استبداده بالمغرب الأقصى دونهم وتحالفه مع أعدائهم الأمويين.. ووضع الأدارسة أمام أعينهم انتزاعه منهم إقليم فاس بشتى وسائل الدسائس. ولهذا فإنهم انضموا إلى القائد الفاطمي «ميسور الفتى»، واستردوا كل ما كانوا قد فقدوه. وأخيراً انتقلت السلطة في بلاد المغرب الأقصى، بعد فرار ابن العافية إلى الصحراء، وكان يقودها «القاسم الإدريسي» وأخوه، وهما من أمراء الأدارسة، فعملا على تعزيز نفوذ الفاطميين في المناطق التي استولوا عليها، وظلَّ ذلك حتى سنة ٣٣٧هـ، وبعد القاسم تولَّى ابنه أحمد المعروف «بأبي العيش» فانحرف عن مبدأ الفاطميين، وانحاز إلى الأمويين، وفي عهده استولى الأمويون على «طنجة» دون إذن منه، فحاول التصدي لهم ولكنه لم يتمكن، وأخيراً أذعن وأطاع، وظلَّ حتى مات سنة ٣٤٨هـ.

ومما هو جدير بالذكر أن هذا الإدريسي اشترك مع الناصر الأموي في حروبه مع الإفرنجة.

ثم جاء الإمام المعز لدين الله، فدرس أمور المغرب الأقصى دراسة

وافية، على ضوء الأحداث، فرأى بثاقب بصره، أن الأمويين استطاعوا أن يخضعوا العديد من أمراء المغرب إلى نفوذهم بالقوة تارة، وبالخديعة تارةً أخرى، منتهزين فرصة انشغال الخليفة الفاطمي بأمور جانبية، حتى أنهم ملكوا أكثر بلدان المغرب، وبايعتهم أكثر القبائل «كزناتة» والبربر عموماً، وخطب لهم على المنابر من «تاهرت» حتى «طنجة».

وهنا وضع المعز لدين الله خطته الحكيمة، وعهد إلى جوهر الصقلي بقيادة الحملة العسكرية الكبرى. فألحق بقيادته عدداً من القواد والأمراء الأقوياء ومنهم «جعفر بن فلاح» و «زيري بن مناد» و «جعفر بن علي الأندلسي» وكانت أوامر الخليفة تقضي بإخضاع الثائرين، والمنشقين، والفتك بكل من حاول أو يحاول الانضمام إلى الدولة الأموية.

رايات جوهر

انطلق جوهر من القيروان على رأس جيشه الجرار، وكانت وجهته «تاهرت» ، وغايته القبض على حاكمها «يعلى بن محمد» الذي انضمَّ إلى الأمويين بالرغم من أن تعيينه قد تمَّ على أيدي الفاطميين وعند وصول جوهر تظاهر يعلى بالإخلاص، وأعلن الخضوع دون قتال، ولكن جوهر لم يثق به، بل قبض عليه وعلى أبنائه وأرسلهم إلى سجن المنصورية، وهناك مصادر تقول: إنه قاوم بشدة، ولكن جوهر تمكن من أسره ثم حاكمه وأعدمه. وقد اعتبر هذا فاتحة الانتصارات الجوهرية الكبرى.

ومن تاهرت سار جوهر إلى فاس فحاصرها، وكان حاكمها «أحمد بن أبي بكر بن سهل الجذامي» قد أخذ بالمقاومة، فاستطاع صد جيوش جوهر وإيقافها على أبواب المدينة، مما جعل جوهر يتركها، ويعود إلى سجلماسة، وهناك واجه «محمد بن الفتح ـ المعروف «بابن واسول » والملقب «بالشاكر بالله» وفي المعركة الأولى تمكن جوهر من الانتصار والقبض عليه بينما كان يحاول التسلل إلى منزله لأخذ بعض من أمواله. فساقه إلى المنصورية مع بعض أمراء فاس، والعصاة الآخرين. بعد هذا عاد القائد جوهر إلى فاس ففتحها، ثم قصد أدارسة الريف وكانت رئاستهم في يد «الحسن بن قاسم قنون» الذي أطلق ساقيه للريح متجهاً إلى قرطبة ، وذلك عندما رأى جيوش جوهر

متجهة إليه. وهذا ما أتاح لجوهر الاستيلاء على كافة الأراضي التابعة له ولغيره، كما تمَّ له إحراز الانتصارات بسرعة وتوطيد الأمن في المناطق العاصية، وفي مدن المغرب الأقصى حتى سواحل المحيط الأطلسي، وبعد أن رفع الأعلام الفاطمية على شرفات المنازل العالية، وأعاد الخطبة في المساجد إلى الفاطميين عاد إلى المنصورية، ولدى وصوله استقبل استقبالاً حاراً من قبل الآلاف من الناس، وكان معه في أقفاص من الخشب أمير فاس، وخمسة عشر من شيوخها، وبعض أمراء الأدارسة، وغيرهم من العصاة، وكانوا على ظهور الجمال، وعلى رؤوسهم قلانس من لبد مستطيلة، وفي وسطها قرون. فطيف بهم في بلاد المغرب، وأسواق المهدية، والقيروان... وأخيراً أودعوا السجن.

عاد جوهر بعد عام قضاه في حرب العصاة، والثائرين إلى المنصورية، وهو يجر أذيال النصر... ولكن لابد من التساؤل، ونحن في صدد التحدث عن تلك الانتصارات الرائعة.. هل استطاع هذا القائد الكبير إطفاء اللهيب المتصاعد في المغرب، وهل تمكن من إنهاء أمر الأدارسة، وهل امتنع الأمويون عن القيام بالمؤآمرات وإشعال الثورات ضد الدولة الفاطمية؟

والجواب : يتجلى لنا في الثورة الجديدة التي قام بها «الحسن بن القاسم الإدريسي» الذي فرَّ إلى قرطبة ثم عاد منها ليعلن قيام دولته، فأرسل إليه المعز لدين الله قائده «بلكين بن زيري بن مناد» الصنهاجي فهزمه وأعاد الخطبة إلى الفاطميين.

ومن الجدير بالذكر.. أن الأدارسة بعد هذه المعركة، لم يعد لهم أية مكانة سياسية في المغرب. فقد حلَّ محلهم «بنو حمود» من سنة ٤٠٧ هـ إلى سنة ٤٤٩ هـ. أما «الزناتيون» فقد انتهزوا فرصة ذهاب جوهر إلى مصر، فثاروا على الدولة الفاطمية سنة ٣٥٩ بقيادة «أبي خزار» فخرج المعز لدين الله بنفسه إليه، وعند ما وصل إلى «باغاية» فرَّ «أبو الخزار» من وجهه. فأرسل إليه قائده بلكين بن زيري فاستسلم إليه، وجاء به الى المعز لدين الله الذي أكرمه، وأجرى عليه الأرزاق.

وبعد هذه الأحداث ، اتفق الزناتيون مع صاحب «المسيلة» وأعمال

«الزاب» وأشعلوا ثورة كبرى ضد الفاطميين لم يلبث أن انضمَّ إليها أهالي «باغاية» و «تاهرت» و «تلمسان» فأرسل المعز لدين الله قائده «زيري» لتأديبهم ولكنهم انتصروا عليه، وتمكنوا من قتله، وعندئذٍ عين الإمام المعز لدين الله ولده «بكلين» وأرسله على رأس قوة أخرى، فقاتلهم وانتقم منهم شر انتقام، وأعاد إلى المدن أمنها واستقرارها.

وقعت هذه الأحداث والثورات في المغرب. وجوهر الصقلي بعيد عنها... أما ـ الإمام المعز لدين الله فكان يتولّى القيادة، ويوجه اهتمامه لإيقاف ثورات الأعداء وخنقها في مهدها بما عرف عنه من رجولة ومرونة وإدارة... وهذه التدابير التي قام بها أعادت للدولة الفاطمية هيبتها، وجعلتها في مركز القوة، كما مكنتها من السيطرة على المغرب بجميع أجزائه ومدنه وأراضيه.

جوهر يفتتح مصر

روي: أن القائد المظفَّر «جوهر الصقلي» مرض مرضاً شديداً بعد عودته من المغرب الأقصى.. فحزن المعز لدين الله عليه حزناً بالغاً. وعاده بنفسه.. وهذا شرف لا يناله إلاَّ المقربون... فلما عاد من زيارته قال:

«جوهر لا يموت.. وستفتح مصر على يديه».

وبالفعل تحققت نبوءة الخليفة المعز لدين الله فشفي جوهر من مرضه، وتمَّ فتح مصر على يديه، وخفقت أعلامه في سمائها. فلقد خرج المعز لدين الله وأولاده وأفراد أسرته وشيوخها وكبار رجال الدولة، وذلك يوم كلف جوهر بفتح مصر، وكان الخروج بقصد وداعه، وقبل أن ينطلق باتجاه المشرق، ولكي يضفي عليه المعز لدين الله هالة من التقدير والاحترام أمر إخوته وأبناء عمه وأولاده، وولي عهده بالترجل بين يديه، والسير في خدمته وهو راكب. كما كتب إلى سائر عماله يأمرهم أن يترجلوا مشاة في خدمته. فلما وصل إلى «برقة» أراد عاملها افتداء نفسه عن الترجل، والسير في ركابه وذلك بدفع خمسين ألف دينار ذهباً، فأبى جوهر إلا تنفيذ وصية أمير المؤمنين.

كانت الجيوش الفاطمية منظمة تنظيماً دقيقاً، ومزودة بـالأموال، والرجال، والعتاد، والمؤن، وذكر أن الخليفة المعز لدين الله أنفق على إعداد هذا الجيش أربعة وعشرين مليون دينار، عدا حمولة ألف جمل من الذهب خُصصت للإنفاق على الحملة. وذكر أيضاً أن عدد الجيوش التي توجهت إلى مصر قد بلغ مائة وخمسين ألفاً، ومن الخيول دون ذلك بقليل، هذا فضلاً عن الجيش البحري الذي اتجه من المهدية وصقلية على ظهر سفن الأسطول باتجاه الإسكندرية، وقد وصف هذا الجيش أحد المصريين بقوله:

«إنه جمع مثل عرفات كثرةً وعدداً»

ومن الجدير بالذكر: أن جوهر كان قبل عام قد فتح في الصحارى، والواحات آباراً، وانتظر عليها حتى امتلأت بمياه الأمطار، كما أنه أقام الاستراحات والخيام، وزودها بكل ما يمكن أن يوفر للجيش الزاحف المؤن والمياه.. ويجب أن نشير ونحن في صدد التحدث عن جوهر الصقلي: بأن إحدى الصحف الألمانية كتبت فصلاً عن القائد «رومل» إبان الحرب العالمية الثانية نقتطف منه هذه الجملة:

«إن رومل في زحفه صوب الإسكندرية من ليبيا كان يتبع خطى القائد الفاطمي، «جوهر الصقلي».

وقد أورد النعمان بن حيون ما خلاصته:

بأن الإمام المعز لدين الله عندما ودَّع جوهر منحه كل ما كان عليه من الثياب إلَّا خاتمه.. ومن المشهور أن الشاعر الكبير «ابن هانىء الأندلسي» حضر حفلة الوداع فقال:

رأيتُ بعيني فوقَ ما كنتُ أسمعُ ... وقد راعني يومٌ من الحشر أروع
غـداةَ كأنّ الأفْقَ سُـدَّ بمثلِه ... فعاد غروبُ الشمس من حيث تطلع
فلم أدرِ إذ سلّمت كيف أشيِّعُ ... ولم أدر إذ شيّعتُ كيف أودّع
فلا عسكرٌ من قبلِ عسكرِ جوهرِ ... تَخُبُّ المطايا فيه عشراً وتوضِع
إذا حلّ في أرض بناها مدائناً ... وإن سار عن ارضي ثَوَتْ وهي بلقع

وصل القائد جوهر إلى الإسكندرية، فلم يجد فيها مقاومة تذكر، وأدرك أن أهاليها أصحاب نيات طيبة، وأنهم ليسوا بصدد المقاومة

أو المعارضة، ولهذا أذاع أمراً يومياً على الجيش، بعدم التعرض للأهلين، وتحريم دخول المنازل دون إذن، كما حرّم عليهم تحت طائلة العقاب السرقة، أو النهب، أو التعدي على أي كان.. وفي هذا تتجلى عظمة جوهر، وبعد نظره،وسياسته الحكيمة.. كما أعطى الدليل على أنه القائد الذي يعرف كيف يسوس جنوده، ويحسن التعامل معهم.

ثم إنه كان لا يبخل عليهم بالمال والنفقات ليحول دون تطلعهم إلى أموال أحد، وليجعلهم في غنى عن اقتراف أية مخالفة. وعندما سمع المسؤولون في مصر، وعلى رأسهم الوزير «جعفر بن الفرات» بخبر الإسكندرية اجتمعوا وقرروا المفاوضة والإذعان للأمر الواقع، لأنهم عرفوا أن لا قدرة لهم على التصدي لهذا الجيش الكبير، وكان أن اختاروا «جعفر بن الفرات» وبعض الأشراف العلويين، وآخرين من ذوي المكانة للذهاب والمفاوضة مع جوهر بشأن الصلح، فخرج الوفد من الفسطاط في ١٨ رجب سنة ٣٥٨هـ، والتقوا مع القائد جوهر في «تروجة» القريبة من الإسكندرية، وهناك خرج جوهر. للقائم مرحباً، وتداول معهم في شؤون مصر، وتلقّى التماسهم القاضي: بالتأمين على أنفسهم وأموالهم وبلادهم بالقبول وتلخصت مطالبيهم بما يلي:

أولاً ـ اعتراف من القائد العام، بعهد يقطعه على نفسه بأن يؤمن جميع المصريين جنوداً ومدنيين ـ مسلمين ومسيحيين على أنفسهم وأموالهم وبلادهم.

فأجابهم جوهر بالموافقة، وأكد لهم أنه ما جاء إلاَّ لينشر السلام والطمأنينة بين الناس كافة ويطبق العدل والحرية.. وعلى الأثر أذاع هذا البيان على المصريين.

(بسم الله الرحمن الرحيم)

هذا كتاب من جوهر الصقلي الكاتب عبدُ أمير المؤمنين ـ المعز لدين الله ـ صلوات الله عليه لجماعة أهل مصر والساكنين بها من أهلها ومن غيرهم.

إنه قد ورد من سألتموه الترسل، والاجتماع معي هم: «أبو جعفر مسلم الشريف» أطال الله بقاءه، و«أبو إسماعيل الرسِّي» أيده الله، و«أبو الطيب الهاشمي» أيده الله، و«أبو جعفر أحمد بن نصر» أعزه الله، والقاضي أعزه الله. وذكروا عنكم أنكم التمستم كتاباً يشتمل على أمانكم في

أنفسكم، وأموالكم وبلادكم، وجميع أحوالكم. فعرفتهم ما تقدم به أمر مولانا، وسيدنا أمير المؤمنين صلـوات الله عليه، وحسن نظـره لكم. فلتحمدوا الله على ما أولاكم، وتشكروه على ما حماكم،وتدأبوا فيما يلزمكم، وتسارعوا إلى طاعته العاصمة لكم، العائدة بالسعادة عليكم، وبالسلامة لكم. وهو إنه صلوات الله عليه، لم يكن إخراجه للعساكر المنصورة، والجيوش المظفرة إلّا لما فيه إعزازكم، وحمايتكم، والجهاد عنكم ، إذ قد تخطفتكم الأيدي، واستطال عليكم المستذل، والمتعة نفسه بالإقتدار على بلدكم في هذه السنة، والتغلب عليه، وأسر من فيه، والاحتواء على نعمكم وأموالكم حسب ما فعله في غيركم من أهل بلدان المشرق، وتأكد عزمه، واشتد كلبه. فعاجله مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه بإخراج العساكر المنصورة، وبادره بإنفاذ الجيوش المظفّرة دونكم، ومجاهدته عنكم، وعن كافة المسلمين ببلدان المشرق الذين عمهم الخزي، وشملتهم الدلة واكتنفتهم المصائب، وتتابعت الرزايا، واتصل عندهم الخوف، وكثرت استغاثتهم، وعظم ضجيجهم، وعلا صراخهم فلم يفتهم إلّا من أرمضه أمرهم، ومضّه حالهم، وأبكى عينه ما نالهم، وأسهرها ما حلَّ بهم وهو سيدنا ومولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه.

فرجا بفضل الله عليه، وإحسانه لديه، وما عوّده، وأجراه عليه استنقاذ من أصبح منهم في ذل مقيم وعذاب أليم، وأن يؤمن من استولى عليه الوهل، ويفرح ، روح من لم يزل في خوف ووجل، وآثر إقامة الحج الذي تعطّل، وأهمل العباد، فروضه وحقوقه لخوف المستولي عليهم، وإذ لا يأمنون على أنفسهم، ولا على أموالهم، وإذ قد أوقع بهم مرة بعد أخرى، فسفكت دماؤهم، وابتزت أموالهم، مع اعتماد ما جرت به عاداته من صلاح الطرقات، وقطع عبث العابثين فيها ليتطـرق الناس آمنـين، ويسيروا مطمئنين، ويتحفوا بالأطعمة، والأقوات إذ كان قد انتهى إليه صلوات الله عليه انقطاع طرقاتها لخوف مارتها إذ لا زاجر للمعتدين، ولا دافع للظالمين، ثم تجويد السكة، وصرفها إلى العيّار الذي عليه السكة الميمونة المنصورية المباركة، وقطع الغش منها، إذ كانت هذه الثلاث خصال هي التي لا يتسع لمن ينظر في أمور المسلمين إلّا إصلاحها، واستفراغ الوسع فيما يلزمه منها، وما أوعز به مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه إلى عبده من نشر العدل، وبسط الحق، وحسم الظلم، وقطع العدوان، ونفي الأذى، ورفع الحزن، والقيام في الحق، وإعانة المظلوم، مع الشفقة والإحسان، وجميل النظـر، وكرم الصحبـة، ولطف العشرة، وافتقـاد الأحوال، وحياطة أهل البلد في ليلهم ونهارهم، وحين تصرفهم في أوان ابتغاء معاشهم حتى لا تجري أمورهم إلّا على ما لمّ شعثهم، وأقام أودهم، وأصلح بالهم، وجمع قلوبهم، وألّف كلمتهم على طاعة وليه مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه.،. وما أمر به مولاه من إسقاط الرسوم

الجائرة التي لا يرتضي صلوات الله عليه بإثباتها عليكم، وأن أجريكم في المواريث على كتاب الله، وسنة نبيه (ص) وأضع ما كان يؤخذ من تركات موتاكم لبيت المال من غير وصية من المتوفي بها، فلا استحقاق لمصيرها لبيت المال، وأن أتقدم في رم مساجدكم، وتزيينها بالفرش والإيقاد، وأن أعطي مؤذنيها ـ وقومتها، ومن يؤم الناس فيها أرزاقهم، وأدرُّها عليهم، ولا أقطعها عنهم، ولا أدفعها إلاً من بيت المال، لا بإحالة على من يقبض عنهم، وغير ما ذكره مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه، مما ضمنّه كتابه هذا من ترسل عنكم أيدهم الله، وحباكم أجمعين بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه من أنكم ذكرتم وجوهاً التمستم ذكرها في كتاب أمانكم، فذكرتها إجابة لكم، وتطميناً لأنفسكم وإلا فلم يكن لذكرها معنى، ولا في نشرها فائدة إذ كان الإسلام سنة واحدة، وشريعة متبعة، وهي إقامتكم على مذهبكم، وأن تتركوا على ما كنتم عليه من أداء الفروض في العلم، والاجتماع عليه في جوامعكم، ومساجدكم، وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة رضي الله عنهم، والتابعين بعدهم، وفقهاء الأمصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم، وفتواهم وأن يجري الأذان، والصلاة ، والصيام، وفطره وقيام لياليه، والزكاة، والحج، والجهاد على ما أمر الله في كتابه ونصه نبيه (ص) في سنته، إجراء أهل الذمة على ما كانوا عليه.

ولكم عليَّ أمان الله التام العام الدائم المفصل الشامل الكامل المتجدد المتأكد على الأيام، وكرور الأعوام في أنفسكم وأموالكم، وأهليكم، ونعمكم، وضياعكم، ورباعكم، وقليلكم، وكثيركم، وعلى أن لا يعترض عليكم معترض، ولا يتجنّى عليكم متجنٍ، ولا يتعقب عليكم متعقب، وعلى أنكم تصانون، وتحفظون، وتحرسون، ويُذب عنكم، ويمنع منكم ، فلا يتعرض إلى أذاكم، ولا يسارع أحد في الاعتداء عليكم، ولا في الاستطالة على قويكم فضلاً عن ضعيفكم، وعلى أن لا أزال مجتهداً فيما يعمكم صلاحه، ويشملكم نفعه، ويصل إليكم خيره، وتتعرفون بركته، وتغتبطون معه بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه.

ولكم عليَّ الوفاء بما التزمته، وأعطيتكم إياه، عهد الله، وغليظ ميثاقه، وذمة أنبيائه ورسله، وذمة الأئمة موالينا، أمراء المؤمنين قدس الله أرواحهم، وذمة مولانا أمير المؤمنين «المعز لدين الله» صلوات الله عليه. فتصرحون بها، وتعلنون بالانصراف إليها، وتخرجون إليّ، وتسلمون عليَّ، وتكونون بين يدي إلى أن أعبر الجسر وأنزل في المناخ المبارك، وتحفظون وتحافظون من بعد على الطاعة، وتثابرون عليها، وتسارعون إلى فروضها، ولا تخذلون ولياً لمولانا وسيدنا أمير المؤمنين. صلوات الله عليه، وتلزمون ما أمرتكم به. وفقكم الله. وأرشدكم أجمعين.

كان هذا الأمان على قدر كبير من الاعتدال، وبعد النظر.. ولقد أثبت فيه القائد جوهر «بأنه من أكثر القواد حنكة، وحكمة، وسياسة.. وعلى الرغم من كل هذا فإن بعض الجنود من الإخشيدية، والكافورية اجتمعوا، وقرروا المقاومة، ووضع العراقيل بوجه جوهر، حتى لا يستولي على مصر بهذه السهولة، واعتبروا أن دخوله معناه إزالة كل ما بقي لهم من نفوذ، وذهاب مصدر رزقهم، لهذا عدلوا إلى الحرب، ورفضوا تنفيذ ما جاء في أمان القائد جوهر. وعندما أدرك جوهر خطورة الأوضاع والتحركات أخبر الوفد باسترداد عهده، وبأنه أصبح حراً بالعمل وفق ما تقتضيه الظروف، إلا أن أعضاء الوفد التمسوا منه العدول عن هذا الرأي، فاستجاب لطلبهم، وفي الوقت نفسه قرر الوقوف بوجه العصاة والقضاء عليهم. وقد ذكر أن أعضاء الوفد الذي كان على رأسه الوزير «ابن الفرات» خرجوا من عند جوهر وهم في حالة مضطربة، فقاموا بمظاهرة حماسية اشترك فيها الآلاف من المصريين ضد الإخشيديين والغرباء الذين ساروا في ركابهم.

وتابع جوهر تقدمه! حيث وصل إلى «الجيزة» في الحادي عشر من شعبان سنة ٣٥٨ هـ. وكان الإخشيديون يعسكرون في جزيرة الروضة، وعلى شاطىء النيل الشرقي من ناحية الفسطاط... وهناك قسَّم جوهر جيشه إلى فرقتين... واتبع طريقين... وكان همه الاستيلاء على «المخاضة» الواقعة في «منية شلكان» شمالي الجيزة. إذ منها قرر العبور إلى الفسطاط، ثم استعان بالسفن. المصرية المتواجدة في النيل للعبور، ولهذا صادرها وكانت في طريقها من تنيس، ودمياط، وأسفل الأرض. وعندما تمَّ له ذلك نادى «جعفر بن فلاح» وقال له:

لهذا اليوم أرادك الإمام المعز لدين الله يا جعفر... فعبر النهر بعد أن خلع ثيابه، وتبعه المغاربة... وهكذا أوقع العصاة بين فكي كماشة، القائد جعفر بن فلاح الذي أوقع بهم، وأجبرهم على التقهقر نحو الفسطاط، وكان جوهر من جهة ثانية قد عبر النهر مع جيشه والتقى بهم. وكانوا قد جاؤوا إلى المخاضة للمرابطة فيها وحراستها، وبعد جولة أو جولتين أركنوا إلى الفرار ووجهتهم بلاد الشام، بعد أن فقدوا قوادهم ورؤساءهم.

.. لم تدم المعركة سوى ساعة أو ساعتين، أرسل بعدها جوهر الصقلي الأعلام الفاطمية مع شرطة المدينة، وكان عليها اسم «المعز لدين الله» فوزعت على الأبنية العامة، والرسمية. كما أمر بقرع الأجراس، والمناداة من المآذن باستتباب الأمن.. وبعد أن تمَّ له كل هذا أرسل إلى الشريف «أبي جعفر مسلم بن محمد» عهداً ثانياً جاء فيه:

«وصل كتاب الشريف الجليل أطال الله بقاه، وأدام عزه وتـأييده وتمكينـه يهنىء بما هيأه الله من الفتح المبارك وهو،أيده الله، المهنـأ بما هنـأ به من الفتح الميمون... فوقفت على ما سأل من إعـادة الأمان الأول، وقـد أعدت إليه ما طلب وجعلت إلى الشريف أيده الله عن مولانا وسيدنا أمير المؤمنين أن يؤمن الناس بما شـاء وكيف رأى، وكيف أحب، ويزيـد على مـا كتبته كيف يشاء، فهو أمـاني، وعن إذني، وإذن مولانـا وسيدنـا أمير المؤمنـين صلـوات الله عليه، وقـد كتبت إلى الوزيـر أيـده الله بـالاحتيـاط عـلى دور الهاربين، إلى أن يرجعوا إلى الطاعة، ويدخلوا فيمـا دخلت فيه الجمـاعة، ويعمـل الشريف أيَّده الله عـلى لقائي يـوم الثلاثـاء لسبع عشر خلـون من شعبان».

بعد هذا الانتصار السريع على فلول الإخشيديين وأنصارهم.. عبر القائد جوهر الجسر المقام على نهر النيل بين الجيزة والفسطاط، وكان في استقباله على الضفة الثانية الوزير «ابن الفرات» و «الشريف العلوي» وسائر الأشراف، والقضاة، والعلماء، وكان جوهر يرتدي حلة مذهبة وهكذا القواد من معاونيه، وخاصة الفرسان، ثم عبرت الجمال المحملة بأكياس الذهب، وظلَّ في سيره حتى وصل إلى شمالي المدينة «القطائع» التي أسسها «أحمد بن طولون» وهناك حطَّ الرحال وأمر الجيش بإقامة الخيام، ثم وضع في فكره أساس مدينة «القاهرة» المرتقبة، وبهذا تصبح الدولة الفاطمية ممتدة من المحيط الأطلسي غرباً حتى البحر الأحمر شرقاً، ولا تلبث عندئذٍ «القاهرة المعزية» حتى تنافس بغداد العباسية، ويكون من أثر المنافسة السباق في بعث الحضارة الإسلامية.

وصلت أخبار تلك الانتصارات، والفتح الذي تمَّ بسرعة إلى المغرب، فعمَّ الفرح أرجاء شمالي أفريقيا، وخاصة المناطق الواقعة تحت الحكم الفاطمي، وكان الناس يرددون قول الشاعر ابن هانىء الأندلسي:

تقول بنو العباس هل فتحت مصرُ ... فقل لبني العباس قد قضيَ الأمر
وقد جاوز الإسكندرية جـوهر ... تطالعه البشرى ويحفزه النصرُ

هذا.. ومن جهة ثانية فإن المصريين ، قد توقعوا بعد المعركة الأخيرة أن يعاملهم جوهر معاملة من فتحت بلادهم عنوة، ولكن ما فطر عليه القائد من الأخلاق والتربية عاد وأعطى عهداً ـ ثانياً لأبي جعفر العلوي: بأن المصريين سيعاملون كما لو أن بـلادهم قد فُتحت صلحاً، وهكذا بلباقـة جوهر وحسن تصرفه تآلفت قلوبهم، وظهرت محبتهم، ودانوا له بالطاعة، ورضوا بحكمه، كما أنه دلل على حسن نيتـه بإصـداره عفـواً عن بعض المصـريـين الـذين غـرر بهم الإخشيديـون وأرغموهم على إعلان الثورة على جوهر.

وعاد للمرة الثانية ليؤكد على جنوده عدم اقتران أية مخالفة أو إساءة مع المواطنين، أو استعمال العنف مع الأفراد، أو الخروج على سـنن الآداب:

لنترك جوهر الآن في مصر يبني ويعمر، ويقيم سنن العدالة، ولننتقل إلى فلسطين وبلاد الشام، حيث أن أوامر الخليفة المعز لدين الله قضت باحتلال هذه البلاد... وخطتنا أن نعود بعد ذلك إلى مصر لندرس كل ما يتعلق بجوهر وأعماله.

«جعفر بن فلاح» وفلسطين والشام

ترك جوهر الصقلي للقائد «جعفر بن فلاح» مهمة قيادة الحملة الفاطمية إلى فلسطين وبلاد الشام، كما ترك له حـرية اختيـار المعاونين، وتجهيز جيشه بكل ما يحتاج إليه. وجعفـر بن فلاح ينحدر كما ذكرنا في الصفحات السابقة من أسرة مغربية عريقة تنتسب إلى قبيلة «كتامة»... رافق جوهر في حروبه، وحملاته في المغرب، وأظهر من الرجولة، والعبقرية ما جعلته في نظر الناس القائد الثاني بعد جوهر، وكـانت فرقـة «كتامـة وصنهاجـة» في الجيش الفاطمي المغربي تحت قيادته، وفي ظله ومحسوبة عليه، وهذا ما جعل الخليفة المعز لدين الله يشركه في الفتـح، ويترك له أمر فتح فلسطين وبلاد الشام، لأن «كتامة» هذه القبيلة التي انضوت تحت إمرة الفاطميين منذ عهد عبـد الله المهدي كـانت جديرة بأن تنال من العطف والتقدير لما يقابل خدماتها وتضـحياتها، بالرغم مما كان يبدر من جنودهـا من تصرفـات، شاذة أحيـاناً، مضافاً إلى ذلك أن جوهر كان يعتقد بأن جعفـر هو خـير من

يتسلم قيادة الجيوش السائرة لفتح فلسطين، وبلاد الشام، بما له من شجاعته وحسن قيادته وخبرته بأساليب القتال، وببعد النظر والمهارة بافتتاح البلدان، وإدارتها، وسياسة الشعوب. وقد ذكرت بعض المصادر:

عندما تلقى جوهر الأوامر بإفساح المجال لجعفر بن فلاح بتولي قيادة حملة الفتح أدرك أنه قد ارتاح من القائد المنافس له، وأن هذا القائد سيلاقي الصعاب في بلاد عسيرة المسالك، معقدة الأحوال عرفت بتعصبها، وكراهيتها للفاطميين، مضافاً إلى كل ذلك أنه أصبح القائد العام في مصر الذي لا يوجد من يعكر عليه صفو قيادته... وقد كان جوهر يسمع من حين لآخر ما يقوله جعفر للمقربين منه: بأنه أفضل من جوهر، وأحق منه بالقيادة العامة، والنيابة على مصر، وكان يرى نفسه أنه أمير وابن أمير، بينما جوهر عبد وابن عبد.

كانت فلسطين، وبلاد الشام آنئذٍ خاضعة لحكم الأسرة الإخشيدية، وعندما علم «الحسن بن عبد الله بن طغج الاخشيدي» والي الرملة، ودمشق بخبر الحملة العسكرية الفاطمية المولجة بفتح فلسطين، وبلاد الشام، استخلف «شمول الإخشيدي» على دمشق، وسار بنفسه إلى الرملة على رأس جيش كبير لملاقاة «جعفر بن فلاح»، ولكن «شمول» لم يكن مخلصاً للحسن، فكاتب جعفر سراً ودعاه إلى الإسراع بالقدوم إلى دمشق مع الوعد بأنه سيفتح له أبوابها، وقد صدق بوعده، عندما تقاعس عن إمداد الحسن بالمعونات، عندما اشتبكت جيوشه بالقتال مع الجيش الفاطمي.

وصل جعفر إلى فلسطين، وأخذ يحرز الانتصار تلوَ الانتصار، ويتقدم من نقطة إلى أخرى، وفي كل مرة يتقدم فيها يكتب إلى حكام المدن التي تأتي بعدها، وإلى رؤساء القبائل يدعوهم إلى طاعة الإمام المعز لدين الله، ويعدهم بحسن المكافأة، ولكن الحسن الإخشيدي» قاوم هذه الدعوات وقام يتصدى لجعفر وجيشه، وكان أن دارت الدائرة عليه بعد عدة معارك في الرملة. وفي خاتمة المطاف وقع في الأسر مع العديد من قواده وجنوده، فأرسل إلى الفسطاط بمصر وسجن فيها وبعد ذلك أرسل إلى المغرب حيث ظلَّ هناك حتى وفاته سنة ٣٧١ هـ. وبعد أن تمَّ لجعفر تصفية ـ الأمر مع الحسن بن طغج تابع زحفه،

فوصل إلى «طبرية» وكان عليها «فاتك» غلام «كافور» فحاول المقاومة، ولما عجز لجأ إلى الاعتصام، ولكن جعفر بنى برجاً أمكنه من دخول المدينة والقبض على «فاتك» ومحاكمته ثم إعدامه.

استسلمت كافة القوى المحاربة في بلاد فلسطين وألقت سلاحها فاعتبرت هذه المنطقة الواسعة من ممتلكات الدولة الفاطمية. إلا أن القبائل العربية «كبني عقيل» و «بني فزارة» و «بني مرَّة» وغيرهم عادوا من جديد إلى الانتفاض. فهبوا لمقاومة الزحف، ولكنهم لم يتمكنوا من الصمود طويلاً، لأن جعفر تمكن من تفريقهم، ومنع اجتماعهم، وضربهم بعضهم ببعض، حينما تقرَّب إلى «الفزاريين» و «بني مرة» واتخذهم إلى جانبه ضد «العقيليين»، فأحبط مساعيهم، وسهل على جعفر التقدم نحو دمشق، ولكن العقيليين لم يتوقفوا وتمكنوا من الوصول إلى دمشق، وإغراء أهلها، والبقية الباقية من جنود الإخشيديين. فتجمعوا وتصدوا لجعفر بن فلاح، فوقعت معارك طاحنة قتل فيها الكثير من الفريقين، ولكنها انتهت بانتصار جعفر، وبمواصلة الزحف حتى ضواحي دمشق.

لم يكن جعفر بن فلاح صارماً مع جنده مثل جوهر الصقلي، وسبب ذلك أن جنوده كانوا من قبيلة «كتامة» ولهذا كان يترك لهم حرية التصرف، والتعدي على كرام الناس، والعبث بالأمن، ومعاملة الناس معاملة سيئة، ممَّا أعطى فكرةً رديئة عن الجيش الفاطمي، وقد تجلَّى كل هذا عندما أرسل أهل دمشق وفداً إلى «طبرية» لمفاوضة القائد جعفر، والاتفاق معه على شروط الصلح والاستسلام. فهذا الوفد تعرَّض بعد خروجه إلى أسوأ معاملة من الجند حين قاموا بسلبهم كل ما يحملون من أموال وثياب، وعندما عاد الوفد إلى دمشق عمَّ الخبر أنحاء المدينة فأثر في النفوس، وولَّد الغضب، والحقد، والنقمة، وتكررت التعديات، والتجاوزات في ضواحي دمشق حينما كان الجنود المغاربة يدخلون إلى البيوت الآمنة، فيعيثون فيها فساداً، وينهبون كل ما تقع أيديهم عليه، مما جعل الخطباء في مساجد دمشق يعلنون من على المنابر استنكارهم لهذه الوقائع مع التصميم على الدفاع عن أنفسهم ومقاومة الغزو حتى النفس الأخير.

ولم تعرف الأسباب التي منعت جعفر وهو القائد المحنك من السكوت

على هذه الفضائح والأخطاء وهو الذي رافق جوهراً الصقلي، ورأى كيف كان موقفه من أهالي مصر، والمغرب أثناء فتحهما، وكيف كان يغمر الأهلين بإحسانه وعطفه، ويمنع جنده من الإساءة إليهم، وعدم تعرضهم لأي أذى.

كل هذا من الأسباب التي جعلت جعفر بن فلاح، في موقف حرج لا يدري ماذا عليه أن يفعل فأهالي دمشق جاؤوا إليه أكثر من مرة مرحبين يريدون الدخول في طاعته، فلم يأبه لهم، وحينما كانوا يخرجون من عنده، كان جنده يلحقون بهم، ويسيئون معاملتهم. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فهذه الأحوال أدَّت في النهاية إلى فرار عدد من زعماء البلاد، وأهل الحل والربط فيها «لظالم بن موهوب العقيلي» وغيره من زعماء الإخشيديين، والكافوريين، وإلى اعتقال ـ الكثيرين منهم، حتى أن جثثاً علقت على أبواب المدينة، وقد عزا بعض المؤرخين هذه التصرفات من قبل جعفر... إلى فقدان التوازن وسوء الإدارة والسياسة، أو ربما إلى نشوة الظفر التي أعمت بصره، وحجبت الحقائق عنه.

تمكَّن جعفر سنة ٣٥٩ هـ. من إعلان الخطبة على منابر دمشق باسم «المعز لدين الله» بدلاً عن «المطيع العباسي»، فكان هذا إيذاناً بزوال نفوذ العباسيين عن ديار الشام، وتجلَّى كل ذلك حينما اتخذ جعفر من دمشق قاعدة لقيادته، يوجه منها ضرباته للروم، والفلول العباسيين، والمتعاطفين معهم، ويبدو أن جعفراً بعد أن تمَّ له كل ذلك أراد أن يبرز اسمه كما برز اسم جوهر الصقلي، بل أراد أن يحقق انتصاراتٍ يكون لها صدى واسع في أوساط المعز لدين الله تفوق انتصارت جوهر. ففتح بلاد الشام، وفلسطين لم يكن يروي غليله أو يوقف طموحه، بل تاقت نفسه إلى التصدي للروم، واستخلاص أنطاكية، وما يجاورها منهم، وبالفعل أرسل جيشه، وترك دمشق وما يجاورها في قبضة أيدي قلة من الجند، وكأنه أراد بذلك أن يحارب الأقدار. ويمكن القول:

إنه قد فاته اختيار الوقت المناسب، ولعب الغرور، والغطرس، والأنانية برأسه حتى فقد الصواب... لقد نسي الثورات والانتفاضات التي كانت تنبعث من حين لآخر في وجه الجيوش الفاطمية في ديار الشام، ونسيَ ما أعده القرامطة بقيادة «الحسن الأعصم» بعد أن

قطع عنهم الدية المقررة على أهالي دمشق وقدرها ثلاثة آلاف دينار، ونسيَ المكائد العباسية والأموال التي كانوا يبذلونها للقوى المعارضة للقيام بالثورات، والانتفاضات. فضلاً عن كيد الحمدانيين، والبويهيين، كما أنه نسيَ أن بعض العناصر من جيوشه قد أضرم النار مرة في أسواق دمشق ومنازلها، وحوّل العديد من أحيائها إلى رماد، وعلى إثر ذلك فرَّ الكثير من رجالاتها، وقتل، وسجن بعضهم، وكيف ينسى أهل دمشق قوله لهم مرة: بأنه لا يقبل رجاءهم إلَّا بعد أن يخرجوا إليه، ومعهم نساؤهم يتمرغن في التراب بين يديه. وذلك تكفيراً عن قتل العديد من جنود المغاربة. وكيف ينسى أهل دمشق القبض على رؤسائهم أمثال: «إسحق بن عصودا» وغيره، ومن ثم فرار: «محمد بن عصودا» و «أبي القاسم بن أبي يعلى العباسي» الذي قبض عليه جعفر على مقربة من بلدة «تدمر» بينما هو في طريقه إلى بغداد، وهذا الأخير أرسله جعفر إلى مصر، بعد أن سعى للإفراج عنه. فسأله:

ما الذي حملك على ما صنعت، ومن ندبك إلى ذلك؟

فقال:

ما حدثني به أحد، وإنما هو أمر مقدَّر... فرق له جعفر، ووعده بالسعي للإفراج عنه لأنه من الهاشميين.

تمت لجعفر السيطرة على بلاد الشام وفلسطين بالقوة والإكراه، ولكن هذه السيطرة لم يقدر لها الاستمرار طويلاً، لأن الأخطاء العسكرية والسياسية التي ارتكبت أكثر من أن تحصى، هذا ولا يخفى بأن أوضاع بلاد الشام وسياستها تختلف عن أوضاع مصر.

لم يكن جعفر بن فلاح يملك القدرة التامة للتصرف كقائد ميدان يأمر وينهى، فجيشه الذي كانت أكثريته من الكتاميين كان يعتبر جعفراً أميراً وسيداً وليس قائداً، لهذا فإن الفوضى العشائرية سادت صفوفه، وأصبح الصغير لا يطيع الكبير، كما أن الكبير لم يكن يملك القدرة لردع الصغير عن ارتكاب الجرائم.

وكانت أول خطيئة ارتكبها في بلاد الشام هي: إفساحه المجال لأفراد جيشه بالإساءة إلى الناس، وامتهان حقوقهم، والتعدي على الآمنين، مما جعل الناس يفقدون كل أمل، وينظرون للجيش الفاطمي نظرة تقوم على العداوة والحقد كقولهم:

إنه ما جاء إلّا لينتقم من أهل دمشق، ويسومهم ضروب الأذى والإذلال. أما الخطيئة الثانية فكانت إيقافه المعونة أو الغرامة التي كان يدفعها أهل دمشق للقرامطة، ومقدارها ثلاثة آلاف دينار وكان عليه أن يتجاهل ذلك، حتى لا تتحرك القرامطة ضده، فلو أنه لم يتعرض لذلك لظلّ القرامطة بعيدين عنه، ويحسبون له ألف حساب، ولما كان «الحسن الأعصم» فكر بالزحف على دمشق، ثم على القاهرة.

والخطيئة الثالثة إرساله الجيش الفاطمي إلى أنطاكية للوقوف بوجه الروم، في وقت لم يكن هذا من برنامجه، ولا مطلوباً منه، فالروم كانوا في حرب مع العباسيين، والحمدانيين، وكان أمر التصدي والوقوف بوجههم يقع على عاتق الدولتين المذكورتين، بينما كان المطلوب من جعفر بن فلاح إرجاء كل صدام مع الروم إلى حين تصفو له الأجواء، وتستقر أوضاع جيشه في أرض الشام.

وقد قدر لهذا القائد السيء الحظ، والطيب القلب، أن يموت بعد أن خاض سلسلة من المعارك ببسالة ورجولة أدهشت الكثيرين.

دام حكم «جعفر بن فلاح» للبلاد الشامية عامين تقريباً أي من سنة ٣٥٨هـ. إلى سنة ٣٦٠هـ. ففي عام ٣٦٠هـ. ذهب «الحسن الأعصم» زعيم القرامطة إلى بغداد، بعد وصول الأنباء إليه عن الانتصارات التي حققها «جعفر»، وخبر قطع الغرامة المالية التي كان يدفعها إليه الدمشقيون، فعرض على المطيع العباسي فكرة الهجوم على بلاد الشام. وفلسطين، واستخلاصهما من الفاطميين، ثم الزحف بعد ذلك إلى مصر، على شروط أهمها: أن تبقى هذه البلدان تحت سيطرته وحكمه.

قبل العباسيون الفكرة، وأمدوا الأعصم بالأموال، والسلاح، والعتاد. حتى أن «عز الدولة بختيار» وضع تحت سيطرة «الأعصم» ألف ألف درهم، وألف جوشن، وألف سيف، وألف رمح، وألف قوس، وألف جعبة، كما أن الحمدانيين تعاونوا مع «القرامطة» وأيدوهم، وجندوا لهم - الإخشيديين، والكافوريين، وكانوا قد لجأوا إلى ديارهم، مضافاً إلى ذلك أن عدداً لا بأس به من القبائل انضووا تحت لواء الأعصم حاملين شعار الحرب ضد الفاطميين. وهكذا تألب البويهيون

والحمدانيون.. وجندوا أنفسهم، ووضعوا إمكانياتهم تحت تصرف الأعصم. فالعباسيون كانوا يخشون على ملكهم، وقد أقض مضاجعهم وصول جيوش الفاطميين إلى حدود ممتلكاتهم. أما البويهيون فخافوا على نفوذهم من الضياع، إذا ما حل الفاطميون محل العباسيين في بغداد، كما خشي الحمدانيون على إمارتهم من السقوط في أيدي الفاطميين.

أجل.. لم يتوقف الحسن الأعصم لحظة واحدة. بعد أن تمَّ له تجهيز جيشه، فزحف بسرعة باتجاه دمشق، وكان وصوله إلى مقربة منها مفاجأة لجعفر بن فلاح الذي لم يكن يملك أية معلومات سابقة عن التحركات القرمطية. وعما يدبر له بالخفاء، وإلا لما كان أرسل خيرة جيوشه وقواده إلى أنطاكية بيد أنه لم يعبأ بكل ذلك . بل استهان بقوة القرامطة واعتقد أنه يستطيع بالقوة الصغيرة التي أبقاها في دمشق الوقوف والتصدي للقرامطة، وإيقاف زحفهم... وعلى نهر يزيد وفي موقع «الدكة» تواجه الجيشان، ولم تلبث أن حلّت الهزيمة بجعفر وجيشه، وكان ذلك في شهر ذي الحجة سنة ٣٦٠ هـ.

كان القرامطة كما يحدثنا تاريخهم يعتمدون في حروبهم على عنصر المفاجأة أو ما يسمًى بالحرب الانتحارية الخاطفة، وهذا هو سبب انتصاراتهم في الحروب التي خاضوا غمارها، ولكن هناك مصادر تاريخية ذكرت بأن «جعفر بن فلاح» كان مريضاً عندما خاض المعركة مع القرامطة، وهذا ما جعله يخطىء التقدير والحساب، فسقط ضحية سوء التقدير، ولم ينفعه استدعاء جيشه من أنطاكية بعد فوات الأوان. فهذا الجيش لم يتمكن من إنقاذ قائده من المصير المحتوم في الوقت المناسب.

وفي أغلب الظن. فإن العلاقات بين جعفر بن فلاح وجوهر الصقلي كانت سيئة وربما مقطوعة. فجوهر كما تبين تقاعس في إرسال الإمدادات لجيش الفاطميين في دمشق في الوقت المناسب. أما الأسباب فكثيرة أهمها: أنّ جعفراً لم يأخذ برأي جوهر، ولم يعتبره القائد الأعلى، كما لم يأخذ موافقته عندما أرسل الجيش الفاطمي إلى أنطاكية مما جعل جوهر يقف منه موقفاً معاكساً وقيادة جوهر رئيسية اعترف بها الخليفة الإمام المعز لدين الله، وذلك عندما أرسل جعفر بن فلاح كتابه المشهور إلى المعز لدين الله مباشرة وفيه يخبره

بما قد تمَّ على يديه من الفتوحات والانتصارات في فلسطين وبلاد الشام، ولكن المعز لدين الله غضب، وأرجع الكتاب دون أن يقرأه، وكتب إليه:

«قد اخطأت الرأي لنفسك، نحن أنفذناك مع قائدنا جوهر، فاكتب إليه، فما وصل منك إلينا على يده قرأناه، ولا تتجاوزه بعد، فلسنا نفعل لك ذلك على الوجه الذي أردته، وإن كنت أهله عندنا ولكننا لا نستفسد جوهراً مع طاعته لنا».

وقد عثر محمد بن عصفور على جثة «جعفر بن فلاح» ملقاة في ضواحي «دمشق» فقطع رأسه، وصلبه على حائط داره انتقاماً لأخيه إسحق الذي قتل وصلب بأمر من جعفر، وهكذا انتهت حياة القائد الكبير الذي لم تستطع الجيوش الجرارة هزيمته في المغرب ومصر، وفلسطين، وبلاد الشام، ضحية سوء التدبير، والاستهانة بالأمور، والغرور، والمباهاة، والاعتزاز بالنفس.

أمّا القرامطة ، فلم يتوقفوا عند هذا الحد، بل استولوا على دمشق، وشمالي الشام وجنوبها ومنها تابعوا الزحف في قلب فلسطين دونما مقاومة حتى وصلـوا إلى «الرملة» وكان عليها «سعادة بن حيَّان» فلما أدرك أن لا قدرة له على الصمود، فرَّ إلى يافا، واعتصم فيها، فلحقه الأعصم، وطوَّقه، وترك له على رأس الجيش قائده «أبو المنجا» و «ظالم بن موهوب العقيلي» ولم يكتفِ الأعصم بكل هذا بل جعل الخطبة على المنابر باسم الخليفة العباسي «المطيع» ورفع الأعلام السود شعار العباسيين، كما نقش اسم المطيع على أعلام الجيش وراح يعد العدّة لغزو مصر.

جوهر وإنجازاته في مصر

عندما فتح القائد جوهر الصقلي البلاد المصرية، وبعد استقرار الأمور العامة فيها.. اتخذ قراراً بإبقاء الوزير «جعفر بن فرات» في منصبه، وجعفر هذا كما مـرَّ معنا كـان وزيراً أولاً في عهـد - الإخشيديين، وكان جوهر في مخاطباته ومراسلاته له يناديه باسم «وزير».

ومن الواضح... أن جوهراً كان بحاجة إليه، لأن معرفة ابن الفرات بأحوال مصر وسياستها أجبرته على أن يجعل منه مستشاراً خاصاً

له.. ومن جهة أخرى أراد من الإبقاء عليه إفساح المجال للمغاربة للتدرب على يديه، ولعله بالإضافة إلى كل ذلك رغب أن يؤكد للسنيين بأنه لا يقيم وزناً للتفرقة المذهبية، وأنه ليس بصدد التعرض للأديان، وأن كافة الناس عنده سواسية أمام العدل والقانون ومصلحة الدولة الفاطمية. وقد يكون جوهر فكَّر بأن إقدامه على عزل ابن الفرات عن منصبه وسائر الموظفين السنيين، وإحلال المغاربة الفاطميين مكانهم ربما أحدث اضطراباتٍ عامة في البلاد مما يعرقل أعماله، ويؤخر تنفيذ مشاريعه، ولابد من القول بأن جعفراً كان يرى بأن الوقت لا يزال مبكراً أمام المغاربة لاستلام المناصب الإدارية الكبرى التي يفترض بمن يتسلمها أن يكون متمتعاً بخبرة ومرونة وإدارة.

تمخضت هذه الأفكار عن حلول وسط بين الإدارتين السنِّية والشيعية، وكان جوهر عند تعيين الموظفين المغاربة يضعهم تحت سلطة المصريين، وهي خطة قصد من ورائها إلى تدريب المغاربة على أعمال الدولة تمهيداً لتسليمهم السلطات فيما بعد، وكأني به أراد خلق جيل جديد من المواطنين يستطيع الفاطميون الاعتماد عليهم في مراحل حياتهم السياسية، وهذه التدابير التي نفذها تجلَّت فيها عظمته، وبعد نظره. والظاهر أنها صادفت النجاح العميم في جذب قلوب الرعية أيضاً، وكان فيها الضمانات لبقاء المناصب والإدارات بمنأى عن الفساد والتلاعب والاستغلال. ومما يلفت النظر... إن القائد جوهر عمد إلى تعيين مرافق مغربي مع الوزير ابن الفرات، ومهمته كانت تنحصر بالسير في ركابه أينما سار... في غدواته ورجعاته بحجة المحافظة عليه، وفي الوقت نفسه ليقوم بالرقابة، وإحصاء ما يقوم به من اتصالات واجتماعات.

وعندما جاء المعز لدين الله إلى مصر... عرض ابن الفرات للخليفة أوضاعه، وشرح له كيف أصبح مسلوب الصلاحية، بحيث أنه لا يمارس من الوزارة إلَّا اسمها، ثم تقدم أخيراً باستقالته، فحاول الإمام المعز لدين الله أن يثنيه عن عزمه، ولكنه رفض واعتذر، ولم يجد المعز لدين الله بعد ذلك بداً من قبولها على شرط أن يبقى في مصر، وعلى مقربة من الخليفة للاستفادة من خبرته وخدماته، والاستئناس برأيه في الأمور الطارئة.

أجل شعر ابن الفرات بامتهان كرامته منذ اللحظات الأولى، عندما اغتصب جوهر كافة الصلاحيات من يده، ولكنه لم يكن يتجرأ على إعلان ذلك لأحد، وعندما جاء الإمام المعز لدين الله إلى مصر رفض أن يستقبله في الإسكندرية، ولكن كبار المصريين نصحوه وبينوا له ما تجره هذه العملية عليه، وعلى المصريين من غضب ونقمة، فاقتنع بصواب رأيهم، واستجاب إلى طلبهم مرغماً وعلى مضض، واشترك في الاستقبال.

ومن الطريف أنه عندما دخل على الخليفة المعز لدين الله.. سأله:

أحجَّ الوزير؟

قال:

نعم

وزرت قبر الشيخين.؟

أجاب:

شغلني عنهما رسول الله (ص) كما شغلني أمير المؤمنين عن السلام على ولي العهد...

وكان ولي العهد «الأمير عبد الله» حاضراً... فقال له:

السلام عليك يا ولي عهد المسلمين ورحمة الله وبركاته.

وفي هذه القصة دليل على ذكاء ابن الفرات، وسرعة خاطرة، وإفلاته من الشباك المنصوبة له.

ومهما يكن من أمر... فبعد استقالة ابن الفرات سنة ٣٦٣ هـ. أسند الإمام المعز لدين الله وزارة الدولة المدنية والحربية إلى «يعقوب بن كلّس» والى «عسلوج بن الحسن المغربي»... أما ابن الفرات فقد ظلَّ في مصر يعيش فيها كرجل له مكانة كبرى في الأوساط، وقد نمت بينه وبين يعقوب بن كلِّس» صداقة متينة أدَّت أخيراً إلى زواج ولده «الفضل» من ابنة الوزير يعقوب بن كلِس، وكل هذا ساعد على تقوية أواصر الصداقة بين الرجلين في عهد الخليفتين المعز لدين الله، والعزيز بالله.

وأخيراً: يمكن القول: بأن حياة ابن الفرات مرَّت بمراحل عديدة في مصر... فكان وزيراً أولياً في عهد الإخشيديين، ووزيـراً مسلوب الصلاحيات في عهد القائد جوهر الصقلي، ثم مستشاراً ـ بالإسم في

عهد الخليفة المعز لدين الله، كما أصبح بعد ذلك مواطناً عادياً، وعاد أخيراً إلى الحياة السياسية من جديد، وتسلَّم الوزارة مرتين في عهد الخليفة الفاطمي الخامس العزيز بالله، كما شغل وظيفة صاحب الخراج.. وفي نهاية المطاف مات سنة ٣٩١ هـ.

مما تجدر الإشارة إليه أن الوزير «جعفر بن الفرات» أبعد «يعقوب ابن كلِّس» عن بلاط كافور الإخشيدي، وتمكن من أن يلصق به تهماً عديدة، مما حدا بكافور إلى إيداعه السجن ولكن يعقوب فرَّ من سجنه والتحق بالإمام المعز لدين الله الذي كانٍ في المغرب، وكل هذا سنذكره، عند التحدث عن سيرة «يعقوب بن كلِّس».

جوهر وتنظيم الدولة

وضع القائد جوهر الصقلي للبلاط المصرية نظاماً للحكم يختلف عن النظام الذي كان سائداً في عهد الإخشيديين. ومن المعلوم أن مصر كانت قبل الفتح الفاطمي مقسمة إلى ولايات مستقلة إدارياً ومالياً، ومرتبطة بالقاعدة العامة، فلم يشأ أن يحدث تغييراً كبيراً في التقسيمات الإدارية، إنما أحدث تعيينات جديدة كان لابد منها. فأسند الحكم إلى أشخاص لديهم الخبرة والتجربة، وأكثرهم من المصريين، وجعل في كل ولاية من الولايات التابعة للدولة دواوين يقوم على إدارتها موظفون معاونون للوالي، فكان منهم على سبيل المثال: صاحب الخراج، وصاحب الشرطة، وقاضي القضاة، والمحتسب، وصاحب المظالم... وغيرهم. وجميع هؤلاء كان للوالي الحق بالإشراف على أعمالهم، وتقديم التقارير بذلك إلى نائب الخليفة القائد جوهر صاحب الصلاحيات الوحيد بتوزيع المناصب والمسؤوليات في كافة أجزاء الديار المصرية.

ومن الجدير بالذكر... أن المعز لدين الله بعد وصوله إلى مصر، وافق على هذه التدابير، وأقرَّ الأسس الموضوعة لأنظمة الحكم الفاطمي والمقسمة إلى أربع ولايات. أو أربعة أقاليم:

الأولى ولاية «**قوص**» أو الصعيد.. ويحكمها عادة والٍ مغربي فاطمي يعاونه نائب من أهل مصر.

الثانية ولاية «**الشرقية**» وهي الأراضي الواقعة شرقي دمياط، ومن أشهر مدنها قليوب، وبلبيس.

الثالثة ولاية «**المغربية**» وتشمل البلاد الواقعة بين رشيد ودمياط من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، ومن أشهر مدنها: منوف، وأبيار، والمحلة الكبرى.

الرابعة ولاية «**الإسكندرية**» ويضاف إليها البحرية، ومن أشهر مدنها دمنهور والإسكندرية.

ومما تجدر الإشارة إليه... إن هذه الولايات الأربع كانت كل منها مستقلة عن الأخرى ولكنها تتصل اتصالاً مباشراً بالقائد جوهر الصقلي الذي منح «والي الولاية» صلاحية تعيين العمال على المدن ، والنواحي، والقرى في ولايته مع القيام بكل ما يهم الولاية من النواحي العمرانية، والصحية، والزراعية والإدارية، دون الرجوع إلى الحكومة المركزية، مضافاً إلى ذلك المحافظة على أمن المواطنين، وحريتهم، وراحتهم، والضرب على أيدي العابثين بالأمن، والخارجين على قوانين الدولة. وكان على القاهرة والٍ، كما كان على الفسطاط والٍ آخر، وكانا تابعين أيضاً للحكومة المركزية إلاَّ أن رتبة والي القاهرة كانت أعلى من رتبة والي الفسطاط بالرغم من أنهما متساويان في الراتب.

وقسَّم جوهر بعد ذلك الولاية إلى ما يسمى الكورة، والكورة هي مثل المديرية اليوم، وتشمل مدن وقرى، ويشرف عليها رئيس الكورة، ويعتبر رئيسها بمثابة المدير أو المحافظ اليوم، وله نائب يتمتع بصلاحيات كصلاحيات وكيل المديرية. أما القرية فكان لها عمدة كما هو اليوم. وأشهر الأكوار في عهد الفاطميين: الدقهلية، وجزيرة قويسنا، والشرقية، والغربية، والبحيرة، والجيزة، والفيوم ، وأسيوط.

من الواضح... أن كل ما ذكرناه كان مخصصاً لمصر. أما بلاد النوبة أو السودان، فإن جوهراً اعتبرها من البلدان التابعة لمصر... وطبيعي أنها كانت ترتبط بمصر عندما يكون حاكم مصر قوياً، وتنفصل عندما يكون ضعيفاً. فعندما حطَّ جوهر الرحال في مصر كانت بلاد النوبة مستقلة استقلالاً تاماً، وعلى رأسها ملك مسيحي اسمه «جورج»، وكانت المسيحية فيها منتشرة انتشاراً كبيراً، فأرسل جوهر إلى ملك

النوبة كتاباً يطلب إليه الدخول في الإسلام، أو دفع الجزية، فقوبل هذا الطلب بالترحيب، ولبىَّ الملك جورج الطلب الأخير، ورضي بدفع الجزية إلى الفاطميين، وظلّت علاقة السودان مع مصر الفاطمية علاقة طيبة لا تشوبها أيّة شائبة، فلم تصدر عن هذا البلد أية ثورة أو اضطراب أو عصيان.

ويذكر بعض المؤرخين أن العرب القاطنين على ضفاف النيل الأزرق، قد زاد عددهم في ذلك الوقت حتى أنهم استطاعوا أن يبنوا مسجداً في «سوبة» حاضرة المملكة المسيحية، وتبعد إثني عشر ميلاً عن مدينة الخرطوم.

وبالنسبة لفلسطين، وبلاد الشام، فقد اعتبرتا أيضاً من ملحقات مصر، وقسمتا إلى ولايتين:

الأولى في الجنوب وقاعدتها **الرملة**.

الثانية في الشمال وقاعدتها **دمشق**.

وكان والي الشام يملك صلاحيات الإشراف على ولاية الرملة، والمعنى أن والي الرملة كان عليه أن يتلقى الأوامر من والي دمشق. أما بالنسبة للحجاز، فإن القائد جوهر لم يفكر في إرسال أية حملة إليها، فقد كان للدعاية الفاطمية أثرها في هذا البلد، حتى أن الدعاية وصلت إلى حد استقطاب جماعة الحسينيين، وجعلهم من أتباع الدولة الفاطمية والعاملين لها، وهؤلاء تمكنوا في نهاية المطاف من الاستيلاء على مكة المكرمة، وإقامة الخطبة باسم المعز لدين الله. وهذا الانتصار الذي حققه جوهر قوبل بالترحيب والثناء من قبل المعز لدين الله الذي كان لا يزال في المغرب.

ومما يجب أن نشير إليه... أن الخطبة ظلّت في المدينة ومكة باسم الخليفة المعز لدين الله حتى وفاته، وبعد ذلك قطعت، مما حدا بالخليفة الفاطمي الخامس العزيز بالله إلى إرسال حملة تمكنت من محاصرة مكة والمدينة، وظلّت تضيِّق الحصار على العصاة حتى عادوا، وأعلنوا عن طاعتهم، وأعادوا الخطبة باسم العزيز بالله، وكل هذا اعتبر انتصاراً للدولة الفاطمية على العباسيين.

ومهما يكن من أمر... فإن الفاطميين دللوا في مناسبات عديدة على حرصهم على إقامة الشرائع الإسلامية، وتعزيز سنن الإسلام، فكانوا

يرسلون في كافة المناسبات الكسوات إلى الكعبة، ويبذلون المساعدات، والمعونات الكبيرة للبلاد الحجازية، مما أضفى على أسمائهم هالة من الهيبة والتقدير والاحترام، وهذا بعكس العباسيين.

الشرطة

عندما فتح القائد جوهر الصقلي البلاد المصرية، واستقرَّ فيها، أخذ بدراسة شؤون الشرطة، فرأى أنها منظمة، وموزعة وقائمة بأعمالها، ومسؤولياتها بكل جد ونشاط لحفظ النظام، واستتباب الأمن، والقبض على الجناة، والفارين من وجه العدالة، وتنفيذ أوامر القضاة والمسؤولين.

ومن الجدير بالذكر... أن شرطة مصر... كانت في ذلك الوقت مقسمة إلى فرعين رئيسيين:

الأول فرع شرطة الفسطاط أو السفلى.

الثاني فرع العسكر والقطائع العليا، ويقع شمالي الفسطاط.

كان كل واحد من هذين الفرعين مستقلاً عن الآخر.. فكان صاحب الشرطة السفلى ينوب عن أمير مصر إذا غاب عن الفسطاط، حتى أنه كثيراً ما كانوا يطلقون على هذه المنظمة اسم خلافة الفسطاط، كما أن صاحب الشرطة السفلى والعليا كثيراً ما كانا يصليان بالناس ، ويتوليان أعطيات الجند مضافاً إلى أعمال وصلاحيات أخرى. مما يعطي الدليل على سمو هذا المركز، وعلو قدره. ولم يشأ جوهر أن يغيِّر شيئاً في نظام الشرطتين، بل أبقى الشرطة السفلى بالفسطاط، ونقل الشرطة العليا إلى القاهرة، وقد أسند الشرطة السفلى في الفسطاط إلى «عروبة بن إبراهيم» وإلى «شبلي المعرفي» وهما فاطميان، كما أسند الشرطة العليا في القاهرة إلى رجل فاطمي آخر يدعى «جبرا» وظلَّ جوهر يشرف بنفسه على هاتين الشرطتين، إلى أن جاء الإمام المعز لدين الله من المغرب وعندئذٍ منح الوزيرين «يعقوب ابن كلِّس» و «عسلوج بن الحسن» صلاحيات الإشراف على إدارة الشرطة، وهناك تدبير فاطمي طبق في فترة ما. فكثيراً ما كانت مديرية الشرطة، والقضاء يسندان إلى شخص واحد، وكثيراً ما كانت الحسبة ، والشرطة أيضاً تسندان إلى رجل واحد. أما في الولايات الأخرى، فقد كان هناك موظفون تابعون لصاحب الشرطة

مهمتهم حفظ الأمن، واستتباب النظام، ومساعدة القضاة، وحاكم المدينة.

النظام المالي

وبالنسبة للنظام المالي. فإن جوهراً وجد فيه الدقة والتنظيم وتوزيع الأعمال وخاصة في الدواوين الخاصة بالخراج - وفي دوائر الضرائب العامة، لهذا لم يدخل عليه أي تحسين أو تعديل، بل جعل الإدارة المالية العامة تحت أنظاره ورقابته، وكان من برنامجه أن يجعل الحالة المالية مزدهرة، ومستقرة، ولهذا نراه يُعنى عناية كبرى بتوفير الغذاء والطعام للمصريين، والدليل على ذلك أنه عند حدوث المجاعة المعروفة طالب الإمام المعز لدين الله، وكان لا يزال في المغرب بإرسال الغلال والأموال، وقام هو من جهة بفتح مخازن الحبوب، كما منع الاحتكار، وحال دون صدور أية شكوى عن الرعية، أو حدوث أي اضطراب في مجال التوزيع، كما أنه أمّر على إدارة جباية الخراج «علي بن يحيي بن العرمرم» وهو مصري... .. ولم يعزله من منصبه، بل عيّن إلى جانبه «رجاء بن صولات» وهو مغربي فاطمي. وحين قدوم الإمام المعز لدين الله إلى مصر سلّم شؤون البلاد المالية إلى «يعقوب بن كلِّس» وإلى «عسلوج بن الحسن» وجعل الخراج، والحسبة، والسواحل، والأعشار، والجوالي، والأحباس، والمواريث، والشرطتين تحت أمرتهما، وكتب لهما سجلاً بذلك.

والحقيقة أنه بفضل سهر جوهر على الشؤون المالية بلغ خراج مصر سنة ٣٥٨ هـ. ما مقداره ثلاثة ملايين وأربعمائة ألف دينار... وهذا دليل على حرص جوهر على تنفيذ وعده للمصريين يوم قال لهم:

«ولكم عليَّ أمان الله التام، العام، الدائم، المتصل، الشامل، الكامل، المتجدد، المتأكد على الأيام، وكرور الأعوام، في أنفسكم، وأموالكم، وأهليكم، ونعمكم، وضياعكم، ورباعكم وقليلكم، وكثيركم، وعلى أنه لا يعترض عليكم معترض، ولا يتجنّى عليكم متجنٍ، ولا يتعقب عليكم متعقب».

النظام القضائي

كان القضاء في مصر عند دخول القائد «جوهر الصقلي» بيد «محمد ابن أحمد بن عبد الله بن صالح بن أسامة الذهلي» وهو من أهل البصرة، وكان مالكياً وأديباً وعلامة، وسهلاً في أحكامه، فـأحبه

جوهر، وقرَّبه إليه، وخلع عليه، وأقره في منصبه، ولكن بعد فترة أخذ يحد من نفوذه، فأدخل بعض القضاة المتدرجين في السلك، وألزمهم باتباع سنن الشيعة في بعض الأحكام، كما أخذ يتدخل في شؤون القضاء، ويشدد الرقابة على القضاة وعندما جاء الإمام المعز لدين الله إلى مصر.. أبقى القاضي الذهلي، بالرغم من أنه أبى أن ينزل عن مطيته عندما استقبله كما فعل غيره، وأبى أيضاً أن يقبل الأرض، فلفت موقفه هذا أنظار المعز لدين الله، فسأل خواص حجابه قائلاً:

«من هذا الذي خالف الناس كلهم»

فقيل له: قاضي مصر!..

وعندما لام الذهلي أحد مرافقيه على تصرفه. أجابه بصوت عال:

وما هذا...؟ أهو الشمس التي قال رسول الله (ص): من علامات الساعة طلوع الشمس من مغربها... ألم تسمع قول الله تعالى:

﴿ومن آياته الليل والنهار، والشمس، والقمر.. لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون﴾.

فأرضى هذا القول الإمام المعز لدين الله واستحسنه.

من الجدير بالذكر... أن القاضي الذهلي ظلَّ في منصبه حتى أواخر سنة ٣٦٣ هـ ، وفي هذا العام عيَّن الإمام المعز لدين الله «علي بن النعمان» قاضياً مساعداً فجاء تعيينه مقدمة لصرف الذُهلي. وقد تبين أن المعز لدين الله عيَّن بعد الذُهلي «ابن أبي ثوبان» ولما مات عين «ابن النعمان» وهو من الأسرة النعمانية التي خدمت الدولة الفاطمية خدمات كبيرة منذ أن قامت في شمالي أفريقيا.

أولى القائد جوهر الصقلي شؤون المظالم أهمية خاصة، وقد ذكر: أنه كان يعقد مجلس المظالم بنفسه، ويدرس القضايا والدعاوى التي يقيمها الأفراد والجماعات على الولاة والموظفين عندما يحيدون عن طريق الإنصاف والعدل، وخاصة على عمال الخراج إذا ظلموا، أو تعسفوا في فرض الضرائب وجمعها، وهكذا بالنسبة لكتَّاب الدواوين إذا حاولوا الانحراف مضافاً إلى ذلك المظالم التي يرفعها الجنود بالمرتزقة إذا نقصت أرزاقهم، أو تأخرت تعويضاتهم ورواتبهم، ثم النظر في إقامة العبادات كالحج وصلاة الجمع وتنفيذ الحدود الدينية

والجهاد في سبيل الله، وكان جوهر يجلس في كل يوم سبت وحوله الوزير والفقهاء وغيرهم... وعندما كثرت أشغاله ومهماته أوكل بالمظالم «ابن عيسى مرشد» حتى إذا وصل الإمام المعز لدين الله مصر ، تولى بنفسه مهمة الجلوس للنظر في المظالم إلا إذا شغل بشاغل ما فإنه كان ينيب أحداً عنه.

المنشآت والعمران

لم يشأ جوهر الصقلي أن يقيم مدينة القاهرة في الفسطاط، أو في مدينة العسكر، لأن هاتين البلدتين كانتا غاصتين بالسكان السنيين، ولكن هذا القول يعوزه الدليل.

فالمعروف: أن جوهر إثر دخوله الفسطاط، وضع أساس مدينة القاهرة، وقصر الخلافة، كما خطط للسور الذي يحيط بالمدينة، فجاءت هذه العاصمة كما أرادها محاطة بسور من اللبن الكثيف الكبير الحجم، وإلى الشرق منه كان يقع قصر الخلافة، وكان مكانه في الموقع المعروف «بخان الخليلي» اليوم.. وهناك قصر آخر أقيم بقرب مسجد الإمام الحسين، وكان بينهما الميدان المسمَّى «ما بين القصرين».

كما اختط طريقاً عاماً وسط القاهرة من «باب زويلة» جنوباً، ويتصل بمدينة الفسطاط ماراً بين القصرين حتى «باب الفتوح» وكان يصل إلى الفضاء الواقع في الشمال، أما الجامع الأزهر فكان يقع إلى الجنوب الشرقي من قصر الخليفة.

وبالنسبة للسور المحيط بالقاهرة، فقد تمَّ بناؤه سنة ٣٥٩ هـ. وإلى الجنوب منه تقع مدينة الفسطاط، كما تقع إلى الجهة الغربية «المقس» التي كانت تمتد إلى النيل، وهي المعروفة في ذلك الوقت بميناء القاهرة. وكانت القاهرة عند إنشائها تمتد من منارة جامع الحاكم حتى باب زويلة وكانت حدودها الشرقية هي نفسها حدود القاهرة الحالية. أما من الجهة الغربية فلم تتجاوز شارع الخليج.

ذكرت المصادر التاريخية: أن المعز لدين الله أمر أن تسمَّى «القاهرة»، وكانت عند بنائها قد أطلق عليها اسم «المنصورية» وهذا اسم عاصمة الدولة الفاطمية في المرحلة الأخيرة. ويظهر أن جوهر

أراد أن يسميها «المعزية» ولكن الإمام المعز لدين الله سماها القاهرة،

وجاء في مصدر آخر:

إن القائد جوهر أرسل إلى المعز لدين الله كتاباً يخبره فيه بوصوله إلى الفسطاط، وشروعه ببناء مدينة تكون عاصمة للدولة الفاطمية: فأجابه:

إنها سميت القاهرة لأن حروفها بحساب «الجُمل» تطابق تاريخ تسلم الإمام المعز لدين الله شؤون الخلافة الفاطمية وهي سنة ٣٤٢ هـ. على هذا الشكل:

ا ل ق ا هـ ر هـ = القاهرة
١/ ٣٠/ ١٠٠/ ١/ ٥/ ٢٠٠/ ٥ ٣٤٢

ومما تجدر الإشارة إليه أن جوهراً الصقلي راعى ببناء القاهرة موقعها الحربي فجعلها أقرب إلى الانتفاع بمياه النيل، كما جعلها غرب حافة الصحراء الشرقية أي جبل المقطم، وذلك لأغراض الدفاع من الجهة الشرقية.

وجاء أيضاً أن المعز لدين الله عندما جاء إلى مصر ورأى أن القاهرة لا ساحل لها قال لجوهر «ياجوهر فاتتك عمارتها ها هنا وهو يقصد، «المقس» وهي ضيعة تقع على ساحل النيل.

ومن منشآت جوهر في القاهرة، قصر الخلافة «المعزِّي» الذي شرع ببنائه داخل المدينة الجديدة أي سنة ٣٥٨ هـ وفرغ منه سنة ٣٥٩ هـ ثم أحاطه بسور منيع في العام التالي.

ولما جاء الإمام المعز لدين الله إلى مصر.. كان القصر جاهزاً، ومفروشاً، وكان يضم العديد من دواوين الدولة، ودور السلاح، وقد أعدت فيه المياه درءاً للحريق، كما كثرت فيه الأنفاق السرية. فجاء هذا القصر آية في الفخامة والضخامة، وبلغت حجراته أربعة آلاف حجرة ومن مميزاته كثرة أبوابه. فكان فيه باب الذهب، وتعلوه منظرة يشرف الخليفة منها، وباب العيد، وأمامه رحبة متسعة يقف فيها الجنود يومي العيدين، وباب الديلم، ويصل إلى قبة ـ الزعفران، وهي مقبرة الخلفاء، وسائر أفراد الأسرة المالكة، وموضعها الآن «خان الخليلي».

بناء الأزهر

أما جامع الأزهر، فقد شرع جوهر ببنائه حول منتصف سنة ٣٥٩ هـ، وانتهى من بنائه سنة ٣٦١ هـ. أي بعد عامين.. وقد كتب على أحد قبابه:

«بسم الله الرحمن الرحيم... مما أمر ببنائه عبد الله، ووليه،أبو تميم معد الإمام المعز لدين الله.. أمير المؤمنين. . صلوات الله عليه، وعلى آبائه وأبنائه الأكرمين ... على يد عبده جوهر الكاتب الصقلي، وذلك في ستين وثلاثمائة».

هذا... ويعتبر الأزهر رابع المساجد الجامعة في حواضر مصر، فقد سبق أن بنى عمرو بن العاص في مدينة الفسطاط الجامع المعروف بجامع عمرو سنة ٢١ هـ. وكان يطلق عليه اسم المسجد الجامع، وتاج الجوامع، والجامع العتيق. ثم أسس العباسيون مسجداً ثانياً ـ أنشأه والي مصر «الفضل بن صالح بن علي العباسي» وسمي جامع العسكر، فظلَّ قائماً حتى دخول جوهر مصر. وبنى أحمد بن طولون مسجداً في مدينة القطائع، فظلَّت هذه المساجد الثلاث عامرة حتى جاء جوهر إلى مصر، وبنى الأزهر. ولا يعرف على التحقيق سبب التسمية... فهناك من يقول:

إنه سمي بهذا الاسم نظراً لازدهار العلوم والمعارف فيه... ولكن الحقيقة هي أن هذا الاسم أطلق عليه نسبة لفاطمة الزهراء زوجة الإمام علي بن أبي طالب، وابنة الرسول الكريم محمد (ص).

ولم تكن مساحة الأزهر في زمن جوهر واسعة، ولكن الزيادات تعاقبت عليه فيما بعد، ثم تحوَّل أخيراً من مسجد صغير إلى جامعة لنشر العلوم والمعارف، وقد بلغت أعمدته ثلاثمائة وخمس وسبعين عموداً من أجود أنواع الرخام، وكان في إحدى مقصوراته التي أعدها جوهر وحدها ستة وسبعون عموداً. وهذه المقصورة كانت خاصة بالخليفة المعز لدين الله، ويصل إليها عن طريق خاص.

ومن منشآت جوهر في الجامع الأزهر المحراب القديم أمام المقصورة القديمة، غير أنه أقيمت محاريب أخرى بلغ عددها تسعة. وأقام جوهر للأزهر منارة واحدة، ولكنها ازدادت حتى بلغت خمسة.

إن جوهر الصقلي ما كاد يستقر في مصر، حتى بذل جهوده وعمل على إعداد العقول والأذهان لتقبل العقائد الفاطمية. ففي سنة

٣٥٨ هـ. أي بعد عدة أيام من دخوله مصر، أمر بإقامة الخطبة باسم المعز لدين الله. وفي سنة ٣٥٩ هـ. أمر بأن يضاف على الآذان عبارة «حيَّ على خير العمل» ، ونهى عن التكبير بعد صلاة الجمعة. وكل هذه التدابير والأوامر تدل على مرونة، وبعد نظر. فنهجه بالنسبة لحكم مصر كان نهجاً يقوم على مبدأ الحذر والصبر. والتؤدة. فلم يتعمد مواجهة المصريين بالانتقال بسرعة من المذهب السني إلى المذهب الشيعي، بل أخذ كل هذا بالتدريج، أو بسياسة الخطوة... خطوة.

جعفر الصقلي أمام الأحداث

لم يكن الخليفة الفاطمي الخامس الإمام العزيز بالله مرتاحاً، وهو في بدء عهده إلى أوضاع فلسطين والشام، بل لم يكن يرضى أن تتوطَّد دعائم ملكه في مصر والمغرب دون أن يتمكن من إقرار النظام في فلسطين والشام.

أمام هذه الوقائع فلم يجد بداً من اعتماد القائد جوهر الصقلي لقيادة جيوشه الفاطمية، ولإقـرار الأمن والاستقرار في فلسطين والشام بعد تخليصهما من غـزاة القرامطة وأفتكين.

كان الإمام العزيز بالله يعتقد بأن جوهر هو رجل الساعة، والقائد الذي يمكن أن يعتمد عليه عندما تتأزم الأمور.. وكان جوهر عند حسن ظنه... فعندما دعاه سنة ٣٦٦ هـ.. إلى تسلم القيادة من جديد.. لم يتردد بل بادر إلى إعلان القبول والطاعة، ثم جرَّد الحملة المقررة، وزحف باتجاه فلسطين والشام، وعندما علم القرامطة بهذا الزحف الفاطمي انسحبوا من الرملة إلى الأحساء، فدخلها جوهر دون قتال ومنها انطلق باتجاه دمشق التي كان يحكمها «أفتكين».. وهذا القائد الذي لم يستسلم أو يفكر بالفرار.. راح يعدّ عدة الحرب والدفاع، فاستثار حماس أهل دمشق بقوله لهم:

«وقد علمتم أنني لم أتوسطكم، وأتولى تدبيركم إلا عن رأيكم ومرادكم، وقد لحقني من هذا السلطان ما لا طاقة لي به، وأنا منصرف عنكم، وداخل إلى بلاد الروم، وعامل على طلب موضع أكون فيه، فأستمدّ بما احتاج إليه منه لئلا يلحقكم بقصد، من يقصدكم ما يثقل به الوطأة عليكم، وتصل به المضرَّة إليكم».

فما كان من أهل الشام إلاّ أن جددوا الثقة به وردّوا عليه قائلين:

«أما اخترناك لسياستنا ورياستنا، على أن نمكنك من تركنا ومفارقتنا،. أو تألون جهداً من نفوسنا ومساعدتنا، دونك وبين يديك في المدافعة عنك؟؟».

كان العزيز بالله قد سلَّم جوهراً أماناً لأفتكين، وخاتماً ومجموعة من ثيابه هدية وكتاباً بالعفو عن كل ما صدر عنه. فلما وصل جوهر إلى الرملة كتب إليه كتاباً لطيفاً ذكر فيه ما كتبه الخليفة له من أمان، وما أعدَّه له من الهدايا. وأشار عليه بترك القتال، وترك الأمور تعود إلى نصابها، والمحافظة على دماء الأبرياء من المسلمين.. فشكر أفتكين القائد جوهراً على حسن سعيه لدى الخليفة العزيز بالله، وجدَّد ثقته به، واعتذر بالوقت نفسه عن إجابة الطلب، لأن أهل دمشق لا يوافقون أن يتخلَّى عنهم. وهنا جنَّد أفتكين جيشاً من أهالي دمشق، وانطلق إلى عكا، ومنها إلى طبرية حيث انضمَّت إليه الحاميات القرمطية.. وهناك استعدَّ للقاء القائد جوهر، وكان قد جمَّع إعاشة ومؤونة الجيش من بلاد حوران. ففي المعركة الأولى تراجع أفتكين إلى دمشق سنة ٣٦٦ هـ. وتحصَّن فيها، وعزَّز السور حولها، كما حفر خندقاً كبيراً، وتهيأ هو وجنده للدفاع، فلحق به جوهر. . وفي ضواحي دمشق بدأت المعارك العنيفة الطويلة، ورغم ما أبداه أفتكين من ضروب الشجاعة والقيادة التي كانت موضع إعجاب جوهر، فإنه شعر بحراجة موقفة، مما اضطره إلى الكتابة إلى الحسن الأعصم القرمطي يطلب إليه موافاته سريعاً إلى دمشق للتعاون معه في قتال الفاطميين. فلبَّى الحسن الطلب، وزحف مع قواته إلى دمشق.

أما جوهر، فقد درس الأمر من مختلف وجوهه، وقدَّر قدرة القرامطة وشجاعتهم متذكراً مصير «جعفر بن فلاح» في حروبه مع القرامطة.. فطلب من أفتكين هدنة تخوله الإنسحاب بهدوء، والجلاء عن دمشق وتوابعها، ولم يفعل ذلك إلا بعد أن أدرك أن موارده التموينية كادت تنفد، وإن الإمدادات لا تصل إليه بصورة منتظمة، وإن جيشه أصبح بحالة سيئة من العوز والحاجة للغذاء. خاصة وأن الوقت شتاء مما يتعذَّر إرسال الإمدادات، وهذا ما جعل القائد جوهر يلجأ إلى الحيلة لإنقاذ جيشه، ولكي لا يقع في الخطأ الذي وقع فيه «جعفر ابن فلاح».

أجاب أفتكين جوهر إلى طلبه... فرحل هذا عن دمشق قبل وصول

القرامطة، وأسرع في السير حتى وصل إلى طبرية، وعندما وصل الحسن الأعصم القرمطي إلى دمشق لم يتمهل، بل سار في إثر جوهر وتبعه أفتكين على رأس جيش مؤلف من خمسين ألفاً من الدمشقيين، وهناك وقعت المعارك العنيفة، وحمي وطيسها، واشتد أوارها لدرجة أنه تعذر إحصاء عدد القتلى من الفريقين وأخيراً:

انكفأ القرامطة وأفتكين أمام جوهر، فتراجعوا إلى موقع «نهر الطواحين» الواقع على بعد ثلاثة فراسخ من دمشق، فتبعهم جوهر، ولكنه عندما رأى جيوش الأعداء قد استلموا الماء وهو المورد الوحيد، كتب إلى العزيز بالله كتاباً أخبره فيه بأنه انسحب إلى عسقلان، لأن الأعداء قد تسلموا المياه، وأن جيشه أصبح يشكو من المؤونة والغذاء، مما يجعله عاجزاً عن تحقيق أي انتصار.

وصل جوهر إلى عسقلان، ولكن أفتكين، والحسن الأعصم تبعاه وحاصراه، وظلّ الأمر على هذا الحال حتى عزّت المؤونة، وفقد القوت، وكان الوقت شتاءً، ولا يمكن إرسال المؤن في البحر.... في ذلك الوقت العصيب رأى جوهر أن يلقي بسيفه جانباً، وأن يستخدم العقل والسياسة لا سيما وأنه هو القائد الذي عرف بالمرونة، وبعد النظر، والدراية.. كان يفكر بأن عليه أن يتخلص من هذا الطوق المحكم الذي يطوق جنوده.. كان يفكر بأن عليه واجب إنقاذ هذا الجيش كي لا يقع فريسة بين أيدي القرامطة وأفتكين، وفكّر من جهة ثانية بأن عليه أن يحاول فك هذا التحالف بين أفتكين والحسن القرمطي.. الذي أخذ ينمو، ويتفاعل لدرجة أنه صار يهدد سلطان الفاطميين في كل مكان.

أجل... أراد جوهر أن يصل باللين والدهاء إلى ما عجز عنه بطريق الحرب والقتال، فكتب إلى أفتكين يطلب منه الهدنة، وإحلال الوئام والسلام محل الحرب والقتال، وكرر عليه طالباً الاجتماع به.

تم الإجتماع بين القائدين، وللمرة الأولى استخدم جوهر الحزم واللين معاً، وكانت السياسة والمرونة تطغى على كل كلمة من كلماته... فقال لأفتكين:

ومن أجدر منك بحقن دماء المسلمين، وإخماد هذه الفتنة التي تكاد تعصف بكل شيء.. وذهب جوهر إلى أبعد من ذلك حينما لمّح إليه

بضرورة فك هذا التحالف مع القرامطة الذين لا يملكون أي رصيد من التأييد، وكان جوهر يرمي من وراء ذلك القضاء على هذا التحالف العسكري، تمهيداً لضرب كل واحد منهما بمفرده.

ويروى أنه زاد على قوله قائلاً:

«... قد علمت ما يجمعني وإياك من حرمة الإسلام، وحرمة الدين... هذه فتنة قد طالت وأريقت فيها الدماء ونحن المأخوذون بها عند الله. وقد دعوتك إلى الصلح والوداعة والدخول في السلم والطاعة. وبذلك لك كل اقتراح وإرادة وإحسان وولاية، فأبيت إلا القبول ممن يشب نار الفتنة، ويستر عنك وجه النصيحة.. فراقب الله تعالى وراجع نفسك. وغلِّب رأيك على هوى غيرك».

فأجابه أفتكين:

أنا والله واثق بك. وبصحة الرأي والمشورة منك. لكنني غير متمكن ممّا تدعوني إليه. فلا يرضى القرمطي بدخوله فيه معي..

فرد جوهر:

إذا كان الرأي والأمر على ذلك... فإني أصدقك على أمري تعويلاً على الأمانة ولما أجده من الفتوة عندك، فقد ضاق الأمر، وامتنع الصبر.. إن تمنَّ علي، بنفسي وبهؤلاء المسلمين الذين معي وعندي وتعفي عنهم، لأعود بهم إلى مصر شاكراً لك مقدراً عاطفتك، وتكون قد جمعت بين حقن الدماء، واصطناع المعروف، بل تكون قد طوَّقت عنقي، وأحسنت إليَّ بما لا أنساه، ولابد لي من مقابلتك بهذا الجميل - يوماً من الأيام».

فقال أفتكين:

افعل... وامن عليَّ... ولكن لابد لي من أن أعلِّق سيفي، ورمح الحسن بن أحمد (الأعصم) على باب عسقلان... وتخرج أنت وأصحابك من تحتهما...».

فرضي جوهر بذلك.. ثم إنهما تعاهدا وأعطى أفتكين جوهراً ختمه رهينة على الوفاء بالعهد، وافترق القائدان. فعاد أفتكين إلى عسكره، ورجع جوهر إلى عسقلان حيث أرسل إلى أفتكين الهدايا الثمينة. أما أفتكين فكتب إلى الحسن الأعصم، وكان في الرملة يخبره بما تمَّ بينه وبين جوهر.. فذهب إليه ولامه بقوله:

«لقد أخطأت فيما فعلته وبذلته... فهذا جوهر ذو رأي، وحزم، ومكر، ودهاء، وسياسة، وإنه قد خدعك بما عقده معك حتى ينجو بنفسه وبجيشه، وسترى أنه سيعود إلى صاحبه العزيز، ويحمله على العودة إلينا حيث لا يكون لنا طاقة على محاربته، فيأخذنا بالسيف... أنصحك أن ترجع

عن رأيك، وأن تتركه محاصراً في عسقلان هو وأصحابه حتى يموتوا جوعاً أو نأخذهم بالسيف».

ولكن أفتكين تمسك بعهده لجوهر وقال:

«لقد عاهدته وأقسمت.. وما أستجيز الغدر بعد ذلك، كما إني لا أعود عن عهد عاهدته، وقسم اقسمته، فلا مجال للأخذ والرد...».

وهنا رضخ الأعصم للأمر الواقع، وسكت على مضض.. وأخيراً: علّق أفتكين سيفه، ورمح الأعصم على باب عسقلان... فخرج جوهر وأصحابه سالمين... ومضى إلى مصر.

أجل... لقد استخدم جوهر الحيلة في الحرب، وهي أمضى سلاح، وسار على مبدأ «الغاية تبرر الوسيلة».. وقبل أن يمر هو وأصحابه تحت سيف أفتكين ورمح الأعصم، في وقت كان يعلم أن في هذا الذل والمهانة بالنسبة إليه كقائد لم يسبق له أن خسر معركة، فضلاً عما ألحقه عمله بالدولة الفاطمية من سمعة سيئة، وعار لا يمحى، ولكن ماذا كان عليه أن يفعل، وهو لا يجد سبيلاً لإنقاذ جيشه الجائع المنهوك القوي، وإخراجه من هذا السجن الضيق ـ والعودة به سالماً إلى قواعده إلا بهذه الحيلة... ومن جهة أخرى.. فإن خطة جوهر كانت ترمي إلى كسب عامل الوقت، أي حتى انقضاء فصل الشتاء، بحيث يكون له موقف آخر.. ولم يجهل الأعصم ولم يخف عليه هذه الحيلة بينما انطلت على أفتكين.

عاد جوهر إلى مصر فروى ما آل الأمر وتفاصيل الحال لمولاه الإمام العزيز بالله فسأله هذا عن الحل فقال بأن على الإمام الخروج بنفسه لقتال القوم وإلّا فهم «قادمون على إثري». فأخذ الإمام بنصيحة قائده وأعدّ العدّة ثم خرج على رأس جيش لجب يتقدمه جوهر ولا تنقصه المؤن ولا العتاد.

بلغ خبر الجيش العزيزي سمع أفتكين والأعصم فخرجا للقائه في الرملة حيث اشتبك الجيشان في معركة عنيفة يبدو أن أفتكين قد أبلى فيها بلاء حمل الإمام العزيز بالله على إنفاذ رجل من عنده اسمه «نميرة» إليه ليبلغه رسالة منه تقول :

«يا أفتكين أنا العزيز وقد أزعجتني عن سرير ملكي، وأخرجتني لمباشرة الحرب بنفسي، وأنا مسامحك بجميع ذلك، وصافح لك عنه فاترك ما أنت

عليه ولُذْ بالعفو مني، فلك عهد الله وميثاقه إني أؤمنك وأصطفيك وأنوه باسمك... واهب لك الشام وأتركه في يدك...».

خرج أفتكين وقد تبلّغ رسالة العزيز بالله فوقف بحيث يراه القوم وقبّل الأرض مراراً ومرّغ خديه بالأديم وقال مخاطباً رسول الإمام

«قل لأمير المؤمنين لو تقدّم هذا القول منك لسارعت إليه وأطعت أمرك فأما الآن فليس إلا ما ترى».

فلمّا تبلّغ الإمام الجواب أعاد الرسول إلى أفتكين يطلب منه الدنو بحيث يراه ولكن أفتكين أبى أن ينظر إلى وجه أمير المؤمنين وهو ينابذه الحرب لأن «الأمر قد خرج عن يدي».

ثم حمل أفتكين على ميسرة الجيش الفاطمي فقتل الكثير من رجالها، وفرّق الصفوف، وأطاح بالرؤوس... وشاهد الإمام العزيز بالله ذلك، وكان جوهر يقف إلى جانبه.. فقال:

يا جوهر... إمضِ إلى حيث أفتكين.. وقف بمواجهته، وسدَّ عليه المنافذ، أمّا أنا فسأتولى قيادة فرق الهجوم، وسأضرب جيش القرامطة الضربة الأخيرة.

تقول بعض المصادر إن الإمام العزيز بالله قد ركب بغلة.. وكان على رأسه مظلة عندما نزل إلى الميدان. وهو قول لا ينطبق على الواقع ولا يمكن أن يصدقه العقل بل الحقيقة هي أن الإمام العزيز بالله ركب حصانه ودخل المعركة منقضاً على قلب الجيش القرمطي، وبعد جولة أو جولتين، دبَّ الذعر في صفوفه، وأخذوا بالتراجع، وهكذا بالنسبة لأفتكين فإنه لم يتمكن من الصمود طويلاً أمام جوهر فولّى الأدبار. وفعل الأعصم مثله، ولكن جوهراً أمر بتتبعهم، وأعمل من جهة ثانية السيف في هذه الجيوش التي انقسمت إلى شراذم ضالة في البراري والقفار لا تجد أمامها ملجأ، وقد قدر عدد القتلى في هذه المعركة وحدها بعشرات الآلاف.

رجع الإمام العزيز بالله والقائد جوهر إلى قواعدهما، بعد أن بذل الإمام مائة ألف دينار لمن يأتي بأفتكين حياً، فلم تنقضِ إلا فترة قصيرة حتى قبض عليه بعض الأعراب.. وجاؤوا به إلى العزيز بالله، وعندما مثل أمامه أكرم وفادته، وطيَّب خاطره، وحمله معه إلى القاهرة. أما بقية الأسرى فقد أحسن إليهم أيضاً، وأمّنهم، وكساهم، وأسند إلى بعضهم الأعمال.. أما الحسن الأعصم القرمطي فقد فرّ هارباً لا يلوي على شيء بعد أن فقد جيشه، وعاد إلى

الإحساء يعيش في عزلة تامة، وتعتبر هذه المعركة آخر سهم أطلقه القرامطة، فبعدها لم تقم لهم قائمة واختفوا عن المسرح السياسي.

خرجت القاهرة «المعزِّية» عن بكرة أبيها. عندما وصل الخليفة العزيز بالله إليها، وكان الناس باشتياقٍ لرؤية أفتكين وقد اعتقدوا أنه سينال العقاب. ولكن أخلاق العزيز بالله وحلمه وعفوه عند المقدرة تجلَّت عندما أصدر عفوه عن القائد الذي دوَّخ الدولة الفاطمية ومن الواضح أنه كان لجوهر الفضل الأكبر في حمل العزيز بالله على سلوك هذا السبيل.. ويروى:

إن أفتكين لما دخل على العزيز بالله في سرادقه في القاهرة... بعد أيام من وصوله إليها، وكان يحيط به كبار رجال الدولة ترجل عن فرسه، وقبَّل الأرض بين يديه. وحمل إلى دست قد نصب ليجلس عليه، فلم يكن منه إزاء هذه الحفاوة إلَّا أن رمى بنفسه إلى الأرض، وألقى ما على رأسه، وبكى بكاءً شديداً سمع الحاضرون نشيجه وقال:

«ما استحققت الإبقاء عليَّ، فضلاً عن العفو الكريم، والإحسان الجسيم»، وامتنع عن الجلوس في الدست، وقعد بين يدي العزيز بالله، وهنا تقدم جوهر وخلع عليه لباساً تكرم به عليه، كما أن الإمام العزيز هدأ من روعه. فجدَّد أفتكين الدعاء، وتقبيل الأرض. وشكر جوهراً على وفائه. ومقابلته الإحسان بإحسان مثله.

بالغ الخليفة العزيز بـالله في إكرام أفتكين فأسكنه داراً فسيحة، وأغدق عليه المنح والعطايا، والصلات، وظلَّ مشمولاً برعايته حتى مات مسموماً سنة ٣٧٢ هـ. وقد اتهم الوزير الأول «يعقوب بن كلِّس» بقتله بالسم، وذلك لترفعه عليه كما ذكر، ولهذا أقال الإمام العزيز بالله يعقوب وسجنه في منزله، حتى ظهرت براءته أخيراً.

وهكذا وطَّد جوهر سلطان الفاطميين في الشام وفلسطين كما وطده في مصر، وأصبحتا ولايتين من ولايات الدولة الفاطمية.. وقد أرَّخ الشاعر «الأمير تميم بن الإمام المعز لدين الله» هذه المواقع بهذه القصيدة الرائعة:

وإنَّا لقوم نروع الزمان	ولسنا نراع إذا ما سطا
ومنا الإمام العزيز الذي	به عاد سيف الهدى منتضى
سعى للشآم وقد أصبحت	بها الحرب نزَّاعة للشوى

ولمّا تقابلت الجحفلان ... وعاد كجنح الظلام الضحى
ولم يبق في الصحف من قائل ... هلمّ ولا من مجيب أنا
وقد ولغت في الصدور الرماح ... وصلّت لبيض السيوف الطلى
فلولا الإمام العزيز الذي ... تداركها وهي لا تصطلى
فسكّن عارض شؤبوبها ... وأمسك من سَجْلِهِ ما انهمى
بدا لهم دارعاً في العجاج ... كصبح بدا طالعاً في الدجى
يكرُّ ويبسم في موقف ... عبوس الكماة به قد بدا
ولم يخذل السيف منه يداً ... ولم يسكن الروع منه حشا
يقود إلى الحرب من جنده ... أسود رجال كأسد الشرى
فلم تصدر الرمح حتى انثنى ... ولم تغمد السيف حتى انفرى
ولم يحمل الموت حتى حملت ... ولولاك ما خاب ذاك اللظى
ولمّا رأى فتحها افتكين ... عليه وأخلفه ما رجا
تولّى لينجو فحفّت به ... جيوشك واستوقفته الربا
ولو طلب العفو قبل الهروب ... لكنت له غافراً ما مضى
ولكنه فرَّ يبغي الخلاص ... وقد بلغ الماء أعلى الزُبى
ولم يك كفؤك في حربه ... وإن كان من بأسه المنتهى
وقد هزم الأسد حتى انتهاك ... فلما رآك غدا لا يُرى
فراح وحشو حشاه اسى ... وقد ملئت مقلتاه عمى

العزيز بالله ومراكز القوى

استمرت الخلافة بيد الإمام العزيز بالله واحداً وعشرين عاماً. وكانت الدولة الفاطمية تعتمد منذ قيامها في المغرب حتى عهد الخليفة المعز لدين الله على تأييد القبائل المغربية ذات البأس والعصبية، فتصطفي رجالها للمناصب الكبرى، وللقيادات العليا، ولكن هذا الأمر قد طرأ عليه تعديل في عهد الخليفة الإمام العزيز بالله الذي رسم لدولته سياسة جديدة، وخطة حكيمة تقضي بالحد من نفوذ المغاربة الذين بلغوا درجة كبرى من التسلط والسيطرة. لإيجاد توازن ما في الجيش، وفي المناصب، الكبرى في الدولة. فاختار المشارقة، وقرّبهم، ومحضهم ثقته. كما ولّى بعضهم مراكز عليا في الإدارة، والجيش، وكل هذا في سبيل عدم إعطاء أي فريق امتيازات تقضي بالتحكم والسيطرة فولّى في أواخر أيامه «منجوتكين» التركي القيادة العامة في الشام. وولّى «وفاء الصقلبي» ولاية عكا، و «بشارة الإخشيدي» طبرية، و «ربا» غزة، كما ولّى «برجوان» إمارة القصر، وكل هذا أوجد جواً من الحسد والسخط لدى المغاربة، وجعلهم يحشدون قواهم،

ويتكتلون للوقوف ضد التيار الجارف الذي طلع عليهم فجأةً.. هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن الخليفة العزيز بالله بدا عليه الميل إلى اصطناع النصارى واليهود، وتقريبهم، وقد مرَّ معنا وصف للأدوار التي قام بها في عهده كل من «عيسى بن نسطورس»، وطبيبه الخاص «منصور بن مفشر».

وفي عهد العزيز بالله بلغ نفوذ النصارى الذروة فاستولى الكتاب والرؤساء منهم على معظم أعمال الدولة، واستأثروا بمعظم السلطات والنفوذ، وقد كان لهذا العمل أثر سيء في المجتمع المصري لدى الغاربة خاصة، وقد بلغ الإمام العزيز بالله في خاتمة المطاف ما تتناقله ألسنة الناس عنه، وأدرك أن كل هذا يعرض به وبسمعته. فخفف الكثير من الإجراءات، وسرح بعضهم من وظائف الدولة.. كما أنه قبض مرة على «عيسى بن نسطورس»، وبعض أعوانه، ثم أفرج عنهم بعد أن أخذ منهم الضمانات التي تكفل الحد من إسرافهم في سياسة التمييز والإصطفاء.

وعنى الخليفة الإمام العزيز بالله في شؤون الشام... وكنا ذكرنا أنه اختار لولايتها غلامه «منجوتكين» التركي ـ وقدمه على الجيش ليحاول فتح حلب، إجابة لطلب بعض زعمائها الناقمين على الحمدانيين، فسار منجوتكين إلى حلب بعد أن نظّم شؤون دمشق، وأعاد إليها الهدوء والاستقرار، وكان أمير حلب يومئذٍ «أبو الفضائل ابن حمدان» حفيد سيف الدولة. وعندما رأى بنو حمدان توغل الفاطميين وطموحهم، هرعوا إلى الروم، وعقدوا محالفة مع «باسيل الثاني» أمبراطور القسطنطينية تقضي بإعلان خضوعهم له، وقبولهم أداء الجزية. فلما زحف الجيش الفاطمي من دمشق، استغاث «أبو الفضائل» ووزيره «لؤلؤ» بالأمبراطور باسيل الذي كان منشغلاً بمحاربة البلغاريين فأرسل إليه قائده «نيقفورس» البرجمي أمراً بلزوم محاربة الفاطميين، وردهم عن حلب. فزحف قائد الروم من أنطاكية، والتقى بالفاطميين على ضفاف نهر العاصي. فنشبت معركة ضارية بين الجيشين انتهت بهزيمة الروم، ووقوع قائدهم أسيراً، وقد تأكد: أن الفاطميين طاردوا فلولهم حتى أنطاكية، بعد أن قتلوا منهم عدداً لا يحصى. وعاد منجوتكين بعد ذلك إلى حلب، ولكنه لم يهاجمها بناءً لنصيحة بعض قواده، وارتدَّ إلى دمشق بحجة نفاد

الأقوات. فاستاء العزيز بالله من ذلك، وبعث الأقوات في البحر إلى قائده، وأمره بفتح حلب مهما كانت النتائج، فسار منجوتكين بعد عام إلى حلب أي سنة ٣٨٢ هـ، وضرب الحصار حولها. فارتاع بنو حمدان لذلك، وأرسل الوزير لؤلؤ إلى الأمبراطور يستصرخه ويصوِّر له سوء العاقبة فيما لو سقطت مدينة حلب «هنا خشي الأمبراطور من تقدم الفاطميين نحو حدوده، فسار بنفسه على رأس جيش قُدر عدده بمائة ألف ، متوجهاً إلى حلب، وقد انضمَّ إليه «أبو الفضائل الحمداني» و «لؤلؤ». وممَّا تجدر الإشارة إليه أن باسيل نزل أولاً على حصن «شيزر» وهو على مقربة من مدينة حماه، فانتزعه من حاكمه الفاطمي، ثم زحف إلى حمص، فافتتحها ، وعاث فيها، وقتل من أهلها عدداً كبيراً، ومن حمص سار إلى طرابلس فحاصرها أربعين يوماً، ولكنه لم يظفر بفتحها، وكان الفاطميون في كافة معاركهم مع الروم يلزمون خطة الدفاع. أما باسيل فعاد بعد كل هذا إلى القسطنطينية بعد أن بسط سلطانه على معظم بلاد ساحل الشام.

هذه الانتصارات السريعة، أزعجت الخليفة العزيز بالله، فقرَّر السير إلى الشام بنفسه لمجابهة الروم، فخرج من القاهرة «المعزِّية» إلى «بلبيس» شرقي الدلتا. في جيشه، وكان قد أمر بتجهيز الأسطول الكبير الموجود في المقس. والمسمى أسطول «المعز لدين الله» وكان يتألف من ستمائة مركب، ولكن في ظروف غامضة احترقت بعض المراكب، ومعها عدة الأسطول وسلاحه. فاتهم به جماعة من تجار الروم المقيمين في مصر. ولكن هذا لم يمنع الإمام العزيز بالله من استقدام أسطول آخر ثم أعلن النفير العام في أنحاء دولته حتى اجتمع معه من الجند ما لم يجتمع من قبل، ولكن المرض اشتدَّ عليه فجأةً فتخلف في بلبيس أياماً إلى أن أدركه الموت سنة ٣٨٦ هـ.

هذا ولابد لنا.. ونحن في الطريق لختام الحديث عن هذا الخليفة الكبير من إعطاء لمحة عن الإصلاحات الداخلية في مصر بعهده، والتي وصفت بأنها فاقت كل الحدود، وسبب هذا هو السياسة التي اعتمدها الوزراء، وطريقتهم في تصريف أمور الدولة، وخاصة في مجال الاقتصاد والأمن وتوفير الحياة الفضلى للمواطنين..

فالوزير ابن كلِّس.. وضع كثيراً من الأسس التي سارت عليها الدولة

في سياستها الداخلية خاصة في النواحي الاقتصادية التي أثبت تفوقه، وخبرته فيها، وبعد أن عيّن الإمام العزيز بالله «عيسى بن نسطورس» بعد وفاة ابن كلّس... توفر هذا على ضبط الأمور، وجمع الأموال والخراج وأدار دفة البلاد بمهارة ، واجتاز الأزمات الاقتصادية التي تعرضت لها البلاد فضلاً عن المجاعات التي توالت وتحكمت أكثر من مرة، وعرف عنه أنه شجع أصحاب رؤوس الأموال، وذوي اليسار بالحضور إلى مصر.. فكثر ورود التجار في أيامه بعد نزوحهم عنها، وخروجهم في أيام الغلاء.. وأخذت القوافل التجارية ترد من كل مكان، وقد كان لسياسته الحازمة أكبر الأثر في ارتفاع رصيد الرخاء والازدهار. فتحسنت أحوال البلاد، وفاضت الأموال على خزينة الدولة.

ونعود إلى سيرة الوزير يعقوب بن كلِّس فنقول:

إنه فضلاً عن كل ما كان يهتم به في مجالات عديدة. فإن البلاد نعمت في عهده بمزيد من الأمن والاستقرار الداخلي، فانتشرت ألوية العدل، وساد النظام والحرية، ويعود إلى ابن كلّس الفضل في تنظيم «البريد»، وترتيب المواصلات بين المدن الداخلية، والأقطار المجاورة مما يمكن المواطن من الاطلاع على ما يجري في البلدان الأخرى.

ويروى: أن الخليفة الإمام العزيز بالله اشتاقت نفسه إلى «قراصيا» الشام، فأرسل ابن كلِّس الحمام الزاجل إلى الوالي في الشام. فجاءت القراصيا محمولة على أجنحة الحمام، مما كان له وقع طيب في نفس الخليفة. كما بلغ من اهتمامه بشؤون الناس أنه كان يجلس كل يوم في منزله، يأمر وينهي، ولا ترفع إليه رقعة إلا وقع عليها.

انقسام القرامطة

في بحوثنا الكثيرة، ومقالاتنا، وكتبنا... ذكرنا أن فرع قرامطة الكوفة والسواد وبلاد الشام هم غير قرامطة البحرين... ومن الجدير بالذكر أن قرامطة البحرين هم الذين لعبوا الدور الأهم والأخير على مسرح الأحداث الإسلامية، ومن الثابت أن الفاطميين منذ عهد «عبد الله المهدي» حتى آخر خليفة لهم في مصر لم يقطعوا اتصالهم بهذه الجماعة، وذلك بالرغم مما كان يعتور علاقاتهم من انقطاع بسبب ظروف سياسية، وأوضاع متقلبة طارئة.

تعتبر أسرة «آل الجنّابي» كما ذكرنا الأسرة المؤسسة للقرامطة في البحرين، والتي تعاقب أفرادها على زعامة هذه الجماعة، منذ أن زال كل أثر لقرامطة السواد. وكانوا قد انقسموا إلى معسكرين:

الأول ـ أبناء أبي طاهر ومعهم عدد غير قليل من كبار القرامطة ووجوههم، ومن المؤيدين، والأنصار، وذوي النفوذ...

الثاني ـ وهم الطبقة الحاكمة، وتتمثل في سعيد، وأحمد بن أبي سعيد وإخوته، ومن انضمَّ إليهم من القرامطة، ويرى هؤلاء وجوب الاحتفاظ برئاسة الدولة القرمطية، وتوجيهها الوجهة التي تعود بالنفع العام على القرامطة، رضي بذلك الفاطميون أم لم يرضوا. فقد كانت لدى هذا الفريق نزعة استقلالية، فهم يـأبون السير وراء أية قوة سياسية. وقد ظلت تلك الأحوال سارية منذ موت أبي طاهر سنة ٣٣٢ حتى سنة ٣٥٨ هـ وخلال تلك الفترة تمَّ تحقيق وجهة نظر القرامطة الذين ينتمون لآل أبي سعيد الذين غيروا وبدلوا في النهج القـرمطي الإسماعيـلي، فتقربـوا من العبـاسيـين، والبـويهيـين، والحمدانيين.. وهؤلاء هم المعروفون بعدائهم للفاطميين وهم الذين تمكنوا من الانتصار في المعركة الداخلية، وخاصة عندما أسندت قيادة الحملة العسكرية إلى «الحسن بن أحمد بن أبي سعيد» الأعصم.. وهي الحملة التي أعدت لاحتلال عُمان، ثم أسندت إليه سنة ٣٥٣ هـ حملة أخرى تعرف بحملة طبرية. هذا ومن الجدير بالذكر أن الحسن الأعصم قد أحرز انتصاراً حـاسماً في هـذه المعركة على الحسن بن عبد الله بن طغج الإخشيدي صاحب الشام وقتئذٍ، ولكن سابور وأنصاره رموه باتهامات خطيرة منها اغتصاب قدر كبير من الغنائم والأسلاب، والخضوع للحمدانيين.

وكان من ذلك أن اشتد ساعد فريق سابور، فقاموا بثورة داخلية تمكنوا فيها من عزل «أحمد بن أبي سعيد» وابنه الحسن الأعصم، ولكن سابور لم يتمتع بالحكم طويلاً، لأن الأيدي الغادرة تمكنت من اغتياله، وبعد موته استبدَّ بيت أبي سعيد بحكم القرامطة من جديد. وتسلم القيادة الحسن الأعصم الذي حكم منذ سنة ٣٥٩ هـ حتى سنـة ٣٦٧ هـ ومن المشهور عنـه أنه كـان آلة مسخـرة بيـد العباسيين، والحمدانيين، وبني بويه، يتلاعبون به، ويسيرونه كيفما

شاؤوا، ولا بد من العودة قليلاً إلى الوراء، بالرغم مما في ذلك من التكرار، لإلقاء الأضواء على أسباب الحرب بين القرامطة، والفاطميين، والتي بدأت سنة ٣٥٩ هـ.

فقد ذكر المؤرخ ابن خلدون: «بأنه عندما استولى «جوهر الصقلي» على مصر، و «جعفر بن فلاح» على دمشق.. طالب الحسن الأعصم بالضريبة التي كانت تدفع له من قبل الحسن بن عبد الله بن طغج صاحب دمشق، فمنع جعفر بن فلاح أهالي دمشق من دفعها».. هذا سبب لابد من إضافته إلى أسباب أخرى.

هذا... وقد كان لفرار عدد من زعماء بلاد الشام إلى الإحساء واستنجادهم بالحسن الأعصم، ومنهم ظالم بن موهوب العقيلي الذي قام فيما بعد بدور كبير في تلك الحروب، كان له أثره البارز في تطور الأحداث ولكن لابد من السؤال هنا. لماذا قصدوا الحسن الأعصم، واستنجدوا به على الفاطميين.

ومن الجواب المفترض ندرك مدى العداء المستحكم بين الأعصم القرمطي والفاطميين، ذلك العداء الذي أحسَّه أهل الشام، لذلك قصد زعماؤهم القرامطة ليحتموا بهم من الفاطميين. ويمكن الذهاب إلى أبعد من ذلك والقول:

بأن العداء كان قائماً قبل استيلاء الفاطميين على دمشق سنة ٣٥٩ هـ. والدليل على ذلك ما أشار إليه جوهر في ذلك المنشور الذي وزعه على المصريين، والذي أظهر فيه سخط الفاطميين على القرامطة لاعتداءاتهم على الحجاج، والديار الإسلامية المقدسة. يضاف إلى كل ذلك تدخل الفاطميين في شؤون القرامطة الداخلية كما ذكرنا. فسياستهم كانت ترمي إلى تعيين رؤساء القرامطة من الموالين للفاطميين.

ثم أليس في قتل سابور بن أبي طاهر معنى الخروج والثورة على الفاطميين. وهل أقرَّ الفاطميون تعيين الحسن الأعصم.

لم تخبرنا المصادر التي بين أيدينا أن الفاطميين وافقوا على تعيين «الأعصم» أو أنهم أقروا هذا التعيين. بل إنا نعلم أن تعيين الأعصم

قد تمّ بتدخل العباسيين، والبويهيين، والحمدانيين، ولا غرابة في ذلك فهؤلاء قد عجزوا عن الوقوف في وجه المد الفاطمي، وخافوا على ملكهم من الغزو المنتظر. فلم يكن أمامهم بد من إشعال الحروب الداخلية في الدولة الفاطمية، وإشغالها بأمور جانبية. من جهة أخرى فإن القرامطة كانوا يعتبرون بلاد الشام مجالاً حيوياً لهم منذ أوائل القرن الرابع للهجرة، وزاد تعلقهم بهذه البلاد بعد انتصارهم على الإخشيديين في معركتي طبرية سنة ٣٥٣ هـ ودمشق سنة ٣٥٧ هـ.

اصطدم التوسع الفاطمي في الشرق بمطامع القرامطة، وعلى الأخص بمطامع الطبقة الحاكمة المستقلة. فالفاطميون كانوا يفكرون وهم في المغرب بفتح مصر أولاً ثم فلسطين وبلاد الشام وذلك لجعلها جسراً يعبرون منه للاستيلاء على بغداد العباسية، ولم يكن القرامطة يعتقدون أن كائناً يمكنه الوقوف في وجههم، وصدهم عن تحقيق سياستهم خاصة بعد أن أصبحوا سادة على البلاد ـ الممتدة على شاطىء الخليج الفارسي الغربي من عُمان الى مصب نهري دجلة والفرات بما في ذلك الصحراء. فأصبح من حقهم أن يعترضوا في سنة ٣٤٦ هـ. على معز الدولة بن بويه لاجتيازه هذه الصحراء دون الرجوع إليهم، كما أنهم قد أصبحوا سادة على بلاد الشام، بعد أن هرع حكامها الإخشيديون إلى دفع الجزية لهم.

وكنا ذكرنا أكثر من مرة.. بأن تدخل الفاطميين في شؤونهم الداخلية. والتجاء بعض زعماء دمشق إليهم ، وطلبهم النجدة منهم، وخوف العباسيين والحمدانيين والبويهيين من المد الفاطمي الذي استهدفهم مضافاً إلى ذلك ما أقدم عليه «جعفر بن فلاح» عند دخوله دمشق من منع الدمشقيين عن دفع الضريبة المقررة عليهم للقرامطة... فهذه العوامل مجتمعة أذكت نيران الحرب، وفرقت الشمل بين الفريقين.

ومهما يكن من أمر... فإن الحسن الأعصم أعدَّ لحروبه مع الفاطميين عدتها، فبيَّن لقومه تدخل الفاطميين في شؤونهم ، وأوغر الحقد في نفوسهم، كما إنه طرد من البلاد كافة العناصر من أسرته التي شك في إخلاصها له ، واستمدَّ في الوقت نفسه المعونة من الخارج.

وفي سنة ٣٦٠ هـ. استعان الأعصم بالخليفة المطيع العباسي،

واستمد منه المال والسلاح، والعتاد، ووعده باسترداد بلاد الشام، ومصر من الفاطميين على أن يحل القرامطة مكانهم في حكم هذه البلاد. فلبَّى العباسيون طلبه وأغرقوه بالأموال والمساعدات. وعندما سار الأعصم القرمطي إلى بغداد، وسأل المطيع على لسان عز الدولة بختيار أن يمده بالمال والرجال، ويوليه مصر والشام ليخرج الفاطميين منها.. امتنع المطيع العباسي بادىء ذي بدء عن تلبية طلبه هذا... وتذكر المصادر التاريخية: أن القرامطة بعثوا أبا طريف عدي ابن محمد بن الغمر إلى عز الدولة بختيار يطلبون المساعدة على الفاطميين بالمال والرجال، فأعطاهم ألف ألف درهم، وألف جوشن، وألف سيف، وألف رمح، وألف قوس، وألف جعبة... وقال:

إذا وصل الحسن الأعصم إلى الكوفة فليحمل إليه جميع ذلك.

ومهما يكن من أمر... فإن بغداد رحبت بهذا التحالف، وأمدَّت القرامطة بالمال، والسلاح والرجال، كما سمحوا لجنودهم بالتطوع معهم، وشجعوا الذين فروا من الإخشيدية والكافورية على الانضواء، والمساهمة في الحرب معهم... ومما يجب أن يذكر: أن الحسن الأعصم، جنَّد الآلاف من البدو، وعرب البادية وجعلهم في عداد جيشه، ودفع لهم الأموال التي تلقاها من العباسيين. وعندما سار إلى الكوفة أرسل إلى بختيار الديلمي وهو أحد ملوك الدولة البويهية يطلب منه مالاً وسلاحاً، فأنفذ إليه خزائن السلاح من بغداد، وكتب له على أبي تغلب بن ناصر الدولة بن حمدان بأربعمائة ألف درهم، فرحل من الكوفة، ونزل في الرحبة على نهر الفرات، وعليها أبو تغلب ابن حمدان،فحمل له المال المطلوب، ودفعه إليه وكذلك «العلوفة» وقال له:

> هذا شيء كنت أريد أن أسير فيه بنفسي، وأنت تقوم الآن مقامي فيه، فأنا مقيم في هذا الموضع إلى أن يرد إليَّ خبرك، فإن احتجت إلى مسيري سرت إليك.

وصفوة القول: عندما انتصر القائد جوهر الصقلي على الأعصم في المعركة الأولى على أبواب القاهرة، قضى على الروابط التي تربط الأعصم بالإخشيدية، والكافورية، فتمكن الدعاة والساسة الفاطميون من استقطابهم، وإبعادهم عن القرامطة، ومنهم العديد من جند الأعصم القرامطة الذين أثرت فيهم الدعاية الدينية، وقد بلغ من

اهتمام القائد جوهر الصقلي بالحسن الأعصم أنه خصَّص جائزة كبرى لمن يأتيه برأسه.

الجيش الفاطمي

لما كان الجيش هو العمود الفقري للدول. فإن الإمام المعز لدين الله اعتمد على وجوده وتعزيزه اعتماداً كلياً، وسعى إلى إيجاد جيش قوي منظم يحمي الحمى ويساعد على النهوض بالدولة إلى جانب أسطول كبير لم يلبث أن أصبح أقوى أساطيل العالم في حينه، وقد تمكن المعز لدين الله بواسطة هذا الجيش من أن يستولي على تونس، والجزائر، ومراكش، وليبيا، ثم النفاذ منها إلى مصر، وفلسطين، وبلاد الشام.

... اعتمد المعز لدين الله هو ومن سبقه من الخلفاء الفاطميين على الكتاميين وهؤلاء هم الذين انضووا تحت لواء أبي عبد الله الشيعي من قبل وحاربوا وقدموا دماءهم في سبيل الفاطميين، كما أن المعز لدين الله قرَّب غيرهم ممن آنس فيهم الإخلاص، والاستجابة للدعوة وللدولة معاً، فأسند إليهم المناصب والقيادات، «كالصنهاجيين» و «المصامدة» وغيرهم.

في ذلك العهد كانت جيوش الإمام المعز لدين الله تتكوَّن من عنصرين:

الأول - وهو الجيش الدائم الذي يبقى في صورة مستمرة على أهبة الاستعداد لتلبية مطالب الدولة في كل حين، وإلى جانب هذا الجيش الدائم كتائب من المقطوعة، ولم يكن اعتماد المعز لدين الله على هؤلاء إلَّا بقدر يسير، وحينما يكون بحاجة إليهم لسد النقص في الجيش الدائم. وقد ذكرت المصادر الإسماعيلية: أن هؤلاء المتطوعة كانوا يسارعون إلى تلبية النداء حينما تعصف بالدولة العواصف، فهم من أصحاب العقيدة والإيمان، والمتفانون في طاعة الأئمة. وقد ذكر المعز لدين الله مسارعة هؤلاء إلى الخروج للحرب، كقوله لهم في أحد المواقف:

«بارك الله فيكم، وأحسن صحابتكم، والخلافة عليكم. فقد صدقتم ظني فيكم، وأملي عندكم، وأنتم من معدن البركة، وعنصر الخير. بكم بدأ الله إظهار أمرنا، وبكم يتمه، ويصلحه بحوله وقوته، وقد علمت مسارعتكم إلى ما ندبتم إليه، وإجابتكم لما أردتم له، وأرجو أن تبلغوا من ذلك بحسب الأمل فيكم، ويرفع الله عز وجل بذلك درجاتكم، ويعلي ذكركم ، أنتم

البنون، والأخوة، والأقربون لا يعـدلكم عندي أحـد، وما يبلـغ مبلغكم من قبلي بشر، وما ذلك إلاّ لما لي في قلوبكم.

ما نصر الله ولياً من أوليائه قبلنا بمثل نصرتكم لنـا على ذلك مضى أولكم، وعليه أنتم على محبتنا، ونصرتنا، وموالاتنا.. فأنتم حزب الله ، وأنصاره، وجنده، وأحباؤه

وعرف عن الإمام المعز لدين الله... أنه كان يثير حماسة جنوده بالمال، وبالمناصب ويخوفهم من الله، ومن عقابه. فالمال كان يدره عليهم بكثرة حتى لا يستطيع أحد أن يقارن بين جنوده، وجنود الأمويين، أو العباسيين، ولم تقتصر عطاآته عليهم، بل كان ينفق على ذويهم أثناء غيابهم. كما أنه سنَّ قانوناً يقضي على الدولة بالإنفاق على عائلة من يموت في الحرب والجهاد، وفي كتاب «المجالس والمسايـرات» للقاضي «النعمان بن حيّون» ما يثبت ذلك، ويتجلّى ما ذكرناه بقول أحد المشارقة للخليفة المعز لدين الله:

«أين يبلغ يا أمير المؤمنين عطاء غيرك من عطائك؟ إن الذي يعطيه أعداؤك إلى جندهم هو نزر يسير بالنسبة لعطائك لأوليائك إذا حصل لهم أن أعداءك إنما يعطون الرؤساء من أجنادهم العطاء لهم ولأتباعهم، ومن قدموه عليه من أجنادهم، ولعبيدهم وسائر أسبابهم فيقطع العرفاء من ذلك كثيراً منه لأنفسهم، ويفرقون ما فيه على من قدموا عليه، وربما عاملوهم فيه، ولا يبلغ ما يصل إليهم بعض ما يصل إلى أقل عبيد مولانا... ومولانا يسبغ على أوليائه وعبيده الصلات والأرزاق والكساء، والعلوفة، والجراية على نسائهم وأبنائهم، يقبضون ذلك بأيديهم، وإن خرجوا في بعث حملهم ، ووصلهم، ومن استشهد منهم أو مات أبقى ما كان يجري عليه لخلفه، ويفرق عليهم السلاح، والرواحل والمضارب، وجميع أدوات السفر عندما يسافرون، مع إقطاعهم القطائع، والمزارع، واستعمالهم على الأعمال وتعاهدهم بالهبات الجزلة، والعطايا السنيَّة، وبلغتهم عنـد أوبتهم من البعوث بـالكسـاء، والصـلات، والمـراكب، والحملانات».

وكل هذا يفسّر سبب مغالاة جيوش الفاطميين في طاعة رؤسائهم، وما أحرزوه من النجاح والانتصارات في الحملات التي اشتركوا فيها. أما تخويفهم من الله، فيتجلّى بقول الإمام المعز لدين الله:

«إن الله قد امتحن عباده بالجهاد في سبيله معنا. فنحن نندبهم إليه لنعلم المجاهدين منهم والصابرين. وليرفع الله به درجاتهم، ويجزل مثوباتهم، وينقل حالاتهم. فكم منكم اليوم من ينفذ في هذا الجيش تابعاً يعود

متبرعاً، ومرؤوساً يصير رئيساً.. إنما ترفعكم عندنا وعند ربكم بنياتكم، وأعمالكم، وبها تتوسلون إلينا وإلى بارئكم».

ومن الإصلاحات التي أدلخها الإمام المعز لدين الله على نظام الجندية ما كان يوليه قواده من تقدير واحترام، فكان إذا أرسل قائداً من قواده إلى مكان ما قرنه بنفسه وأبان لجنده أنه نائبه، وأن طاعتهم لقائدهم هي طاعة له. وقد سنَّ بعمله هذا دستوراً من دساتير الجندية له قيمته من الناحية العسكرية، وكان يقول لجنده إذا ودعهم:

«لا يصلح الناس إلا برئيس... وقد قدمت عليكم من علمتموه، واقمته فيكم مقام نفسي ، وجعلته معكم كأذني وعيني، ولكل امرىء منكم على نفسه بصيرة».

واعتمد الإمام المعز لدين الله، وهو بالمغرب على الجيش المؤلف من المغاربة.... بينما جعله في مصر خليطاً من المغاربة، والصقالبة، والسودانيين وغيرهم، ولم يجعل فيه إلَّا عدداً لا يذكر من المصريين.

كان جيش مصر الفاطمية في عهد الإمام المعز لدين الله مؤلفاً من مائتي ألف مقاتل. أما المصادر الفاطمية، فتؤكد بأن عدده كان أربعمائة ألف، وأكثرهم من المشاة، إلَّا الكتاميين فإنهم كانوا يشكلون أكثرية الفرسان، لأن تفوقهم بالفروسية كان مضرب الأمثال.

واعتمد الإمام المعز لدين الله على ديوان الجند للنهوض بالجيش، حتى أنه جعل ديوان الخراج أو بيت المال تحت طاعة الجيش، ورهن إشارته.

الجيش البري

وممّا تجدر الإشارة إليه أن الجيش الفاطمي في عهد الإمام المعز لدين الله كان يتكون من قسمين: **الأمراء. وطوائف الجند** ولكل من هذين القسمين مرتبة لا يتجاوزها إلى غيرها. فالأمراء كانوا يطوقون بأطواق من ذهب في أعناقهم وكان البعض يركب في المراكب بالقضب الفضية التي يخرجها لهم الخليفة من خزانة التجمل.

أما طوائف الجند، فكانوا يعتبرون أصحاب فتوحات، ويكفي أن تكون غالبيتهم من «كتامة» ومن «صنهاجة» ومن «المصامدة» الذين ساهموا مع القائد جوهر الصقلي في فتح مصر والشام.

ومن أشهر فرق الجيش في عهد المعز لدين الله: «السودانية» وكان الإمام المعز لدين الله يعتز بهم، حتى أنه كان يشركهم في ركوبه في احتفالات عيد رأس السنة الهجرية. فكان يختار منهم ثلاثمائة من الشباب الأقوياء، ويعطي لكل منهم درقة وحربة محلاة بالفضة، ويسمّى هؤلاء «أرباب السلاح الصغير». وكان إلى جانبهم «**الصقالبة**» وكان هؤلاء من الأرقاء الذين ابتاعوهم بالمال من بلاد آسيا الصغرى، والبلقان، وكان لهم شأن كبير في عهد المعز لدين الله وبعده. وهناك فرقة «**الأتراك**». وهذه الفرقة كان الإمام المعز لدين الله يعتمد عليها اعتماداً كبيراً، وكانت هناك فرقة «**الإخشيدية**» أيضاً، وكان لكل فرقة من هذه الفرق، قائد خاص مسؤول أمام القائد العام، وعندما استقرَّ الإمام المعز لدين الله في مصر، أدخل في عداد جيشه الكثيرين من الأكراد، والفرنجة، والحجرية الكبار والصغار والديلم، والأعراب من البدو الرحل.

وكان جيشه يتخذ الألوية المختلفة الألوان شعاراً له. فتارة تكون خضراء، وتارة بيضاء، وكثيراً ما كانوا يستخدمون الرايات واسطة للتخاطب بين وحدات الجيش، وكانت للجيش الفاطمي فرقة موسيقية مقرها في قصر الخليفة، وذكر أنها تقدمت ركب الخليفة الإمام المعز لدين الله عندما دخل مصر.

أما أسلحة الجيش الفاطمي فهي: الرماح، والحراب، والدروع، والأطبار، والخناجر، والفؤوس والمغافر ، والمنجنيقات، والدبابات، والأكباش وكانت لهم فرقة كبيرة تسمَّى «النفَّاطة» ومهمتها استخدام النار في الحروب.

الأسطول البحري

كانت للأسطول أهمية كبرى، بالنسبة للفاطميين وقد ذكرنا أنهم اتخذوا مدينة «المهدية» في المغرب قاعدة لأسطولهم، هذا بالإضافة إلى «صقلية» وأخيراً جعلوا من مدينة «سوسة» قاعدة ثالثة، ويجب أن لا يغرب عن بالنا: أن الأسطول الفاطمي كان سيد البحار في البحر المتوسط، وأن مدن روما الكبرى الواقعة على شواطىء هذا البحر كانت دائماً تحت رحمة هذا الأسطول.

ففي عهد الإمام المعز لدين الله غصَّت العاصمة المهدية بالسفن،

وأصبح مرفأها لا يتسع للمزيد منها مما اضطره إلى التفتيش عن قاعدة ثانية تخفف عن المهدية. وتأتي «الصدفة» الزمنية حاملة معها نبأ اكتشاف مدينة «سوسة» وهي على سبعة مراحل، وكانت أزلية الصنع، ومتقنة ينفذ بعضها إلى بعض ، وكانت مدفونة تحت الأرض، وكان هناك صهريج يجري منه الماء إليها، وهذه المراجل إذا ما امتلأت استغنى أهل المدينة عن الماء، وتحوَّل الفائض ذخيرة للمراكب. فرفع ذلك إلى الإمام المعز لدين الله، فسرَّ به، وأمر بإصلاح المراجل، والصهريج، وأصبحت «سوسة» بعد هذا الاكتشاف القاعدة الثانية للأسطول، والدار الصناعية الكبرى لبناء السفن وإصلاحها.

ومن الأفكار المعزية: إنه كان يخطط ليجعل من المنصورية قاعدة ثالثة ويدل على ذلك قوله:

> «لئن امتدَّ المقام هنا... لنجرينَّ البحر بحول الله، وقوته، إلينا في خليج حتى تكون مراكبنا تحط، وتقلع بحضرتنا»..

وبهذا نرى: أن الإمام المعز لدين الله، كان يهتم بتكوين الأساطيل القوِّية وعندما جاء إلى مصر عزَّز دار صناعة السفن في «المقس» كما أنه لم يهمل الدار الثانية في الفسطاط، ولا الثالثة في الإسكندرية، ودمياط.

ولم يكن بناء السفن في مصر راجعاً إلى خوف المعز لدين الله من غارات الروم من جهة، والقرامطة من جهة ثانية، بل كان ذلك راجعاً إلى رغبته في بسط نفوذه على البلاد التي قد يتخذها الأعداء طريقاً للإغارة على مصر، كما كان راجعاً أيضاً إلى ما كان يهدف إليه من اتخاذ مصر، وبلاد الشام نقطة يعبر منها إلى بغداد. أضف إلى ذلك حرصه على أن يكون لأسطوله السيادة والتفوق على سائر أساطيل دول البحر الأبيض المتوسط، ولا غروَ فقد دخلت في حوزته، بعد أن تمَّ له فتح مصر، وفلسطين، والشام، وسيطرته على البلدان الواقعة على شواطىء البحر الأبيض المتوسط من أنطاكية حتى سبتة، كما وقعت في يده موانىء المغرب الأقصى المطلة على المحيط الأطلسي أيضاً.. مضافاً إلى ذلك القواعد البحرية المهمة مثل: صيدا، وصور، وعكا، وبيروت، وعسقلان، وحيفا، ويافا.

وبالنسبة للسفن الفاطمية، فقد كانت مختلفة الأنواع. وأهمها:

«**الشلنديات**» وهي المراكب المسطحة، وتختص بحمل العتاد والجنود. و «**الشواني الحربية**» وهي سفن كبيرة فيها «الأبراج» وأشبه ما تكون بالبوارج الحربية المعدة للهجوم والدفاع. وهناك «**المسطحات**» و «**الطرادات**» و «**العشاريات**» و «**الحراقات**».

وقد قرأنا في كتب التاريخ عن موقف هذا الأسطول من «صور» وسواها في حروبه مع الروم وقرأنا كيف اتخذ القائد جوهر الصقلي من عكا، وعسقلان، مستودعات للإمدادات التي كانت تتدفق على جيوش الفاطميين من بلاد الشام.

ونظراً لأهمية هذه السواحل فقد كان الإمام المعز لدين الله يعين عليها القواد والولاة ـ الأقوياء، وقد قدرت سفن الأسطول الفاطمي التي بنيت في دور الصناعة في مصر بأكثر من ألف قطعة مختلفة الأشكال والأحجام.

وكان للأسطول «أمير يدعى «قائد القوَّاد» وقد تسمَّى بذلك لأنه كان تحت أمرته وبصورة دائمة عشرة قواد، كما كان يطلق عليه اسم «أمير البحر» أو «المستوني» وقد بلغ من عناية الإمام المعز لدين الله أنه كان ينفق عليه بنفسه، ويساعده أحد الوزراء، ولم يكن بحّارة الأسطول من رتبة واحدة.

هذا ومن الجدير بالذكر... أن الخليفة الإمام المعز لدين الله كان يقطع رجال الأسطول إقطاعات عرفت باسم «أبواب الغزاة»، وكان يترك لهم الغنائم، والأموال، والثياب، والمتاع، ولا يستبقي سوى السلاح والأسرى. وعندما كان الأسطول يتأهب للقيام بمهمة ما، كان يحضر بنفسه حفلة الوداع، كما كان يستقبله عند العودة، فيبارك رجال الأسطول، ويمنحهم المكافآت ويدعو لهم بالتوفيق.

ولم تكن عناية الإمام المعز لدين الله، تقتصر على الأسطول الحربي، بل أقام أسطولاً ثانياً للتجارة، وكانت مهمته نقل السلع من مصر إلى البلدان الأخرى، وبالعكس. وهكذا فقد كان للفاطميين أسطولان في ذلك العهد: أحدهما في البحر الأبيض المتوسط والآخر في البحر الأحمر.. فكانت الإسكندرية، ودمياط في مصر، وعسقلان، وعكا، وصور، وصيدا، وحيفا من أهم موانىء الأسطول التجاري، كما كانت «عيذاب» وهي من أهم موانيء البحر الأحمر مزوَّدة بأسطول

حربي يقوم بمهمة حماية الأسطول التجاري، وحماية الثغور من اللصوص، وقراصنة البحار.

كل هذا يعطي الدليل على عناية الإمام المعز لدين الله بأسطوله، وبجيشه الذي كان يعده للمهمات الكبرى، والفتوحات العظمى. ولابد من القول بأن كافة الفتوحات ـ والحروب التي خاضها الجيش الفاطمي يعود الفضل بالانتصارات فيها إلى الأسطول الذي كان يصول ويجول في البحار وهو يحمل راية النصر.

تنظيم القضاء

للفاطميين تشريع خاص يستند إلى فقه النظام الفكري الإسماعيلي، وقد طبق هذا التشريع في المغرب بادىء ذي بدء. فأسندوا القضاء الأعلى إلى رجال يفترض فيهم معرفة قواعد وتشريع العقيدة الإسماعيلية المستمدة من الفقه الجعفري المسنود إلى تعاليم الإمام «جعفر بن محمد» الصادق. وكان على رأس هؤلاء قاض كبير يسمّى «قاضي القضاة» وقد اتخذ لنفسه مهمة تعيين القضاة الآخرين في المناطق والألوية على قاعدة إصدار الأحكام وفق القواعد الفاطمية.

وكان «النعمان بن حيّون» الممثل الأعلى للقضاء في عهد الفاطميين بالمغرب، فقد اتخذه «عبد الله المهدي» قاضياً لدولته، ثم عيّنه «المنصور بالله» قاضي قضاة دولته، ومنحه الصلاحيات والنفوذ، وكتب له عهداً بالقضاء في مدن «المنصورية» و«المهدية» و «القيروان» وسائر مدن أفريقيا الشمالية، وأولاه عطفه، ومحبته، واعترف بنزاهته، وإقامته لقواعد الحق والعدل بين الناس، وبين القوي والضعيف، والظالم والمظلوم.

وكانت مهمة قاضي القضاة في دولة الفاطميين، في تلك الفترة إلقاء الخطبة في المسجد الكبير، يوم الجمعة، وتعيين من ينوب عنه في الأمصار، وعزل من يستحق العزل، ونقل من يرى أن هناك مصلحة في نقله إلى مكان آخر. وكان إضافة إلى ذلك يضع للقضاة الآخرين نظاماً يسيرون عليه في القضاء بين الناس، وأسساً يستطيعون بموجبها الحفاظ على مكانتهم، وأخذ الحق للمظلومين من الظالمين.

ويحدثنا «النعمان بن حيّون» الذي كان قاضياً للقضاة في المغرب بأنه.

كان يسدي النصائح للقضاة، ويرسم لهم الخطوط لإصدار الأحكام، والوقوف على الحق.

وكان الإمام المعز لدين الله يحرص أيضاً على أن يكون قاضي قضاته مثلاً أعلى في الخلق الكريم والفضيلة، فكان يسدي إليه النصح، ويحض القضاة الآخرين على التمسك بأهداب الدين وإقامة العدل بين الرعية... أغنيائهم، وفقرائهم، وأن تكون أحكامهم مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله.. مضافاً إلى كل ذلك أن قاضي القضاة كان يقوم «بالفتيا» إلى جانب نظره في القضايا المذكورة في حاضرة الدولة، والإشراف على القضاة في الأقاليم.

أجل... كانت ترد لعميد سلك القضاء أسئلة كثيرة، ومسائل استعصى حلها، فكان عليه أن يجيب عليها، ويشرح غوامضها شرحاً يتفق مع أصول العقيدة الإسماعيلية التي تستند إلى الفقه الجعفري، وما جاء في الكتاب والسنة، ولم يكن قاضي القضاة «النعمان» مستبداً بالأمور وحده، بل كان يرجع إلى الإمام المعز لدين الله ويستشيره.

كل هذا يدل على علو كعبه في العلوم الدينية، والأصول الفقهية. ولا غروَ فإن الإمام المعز لدين الله كان عالماً حاذقاً حتى اعتبر من كبار المشترعين في العالم الإسلامي في عصره، وعندما جاء إلى مصر اصطحب معه «علياً بن النعمان» وكان قد ولَّاه القضاء مكان والده النعمان الذي بلغ من الكبر عتياً، فآثر بعد وصوله إلى القاهرة الاستراحة، والتفرغ إلى التصنيف والتأليف.

أما «الحسبة» فكانت ذات أهمية قصوى، وقد كان يضطلع بها شخص يسمَّى «المحتسب» ومهمته تنحصر بمراقبة أرباب الحرف، والذين يتعاطون بيع اللحوم، والحلويات، والمواد التي تدخل في نطاق الطعام، ثم المحافظة على الصحة العامة، والإشراف على المأكولات التي تعرض للبيع من الناس، والتأكد من نظافتها، وخلوها من الغش والفساد، كما يدخل في نطاقه الإشراف على الطرق العامة، ومنع إقامة المباني فيها، أو استغلالها بقصد المنفعة الخاصة، مضافاً إلى ذلك المحافظة على الآداب، وضبط الموازين، والمكاييل، ومنع الغش.

وفي العهد الفاطمي بمصر كانت وظيفة المحتسب تعادل وظيفة «النائب العام» بحيث أن صلاحياته كانت تصل إلى حد مراقبة الحمَّالين والسفن، ومنعهم أن يحمِّلوا على سفنهم أو دوابهم أكثر من طاقتها، كما كان يراقب الكتاتيب لمنع المعلمين من ضرب الطلَّاب ضرباً مبرحاً، وفوق هذا كان من حق المحتسب أن يوقع على العقاب الذي يراه مناسباً على سيئي الأخلاق أيضاً.

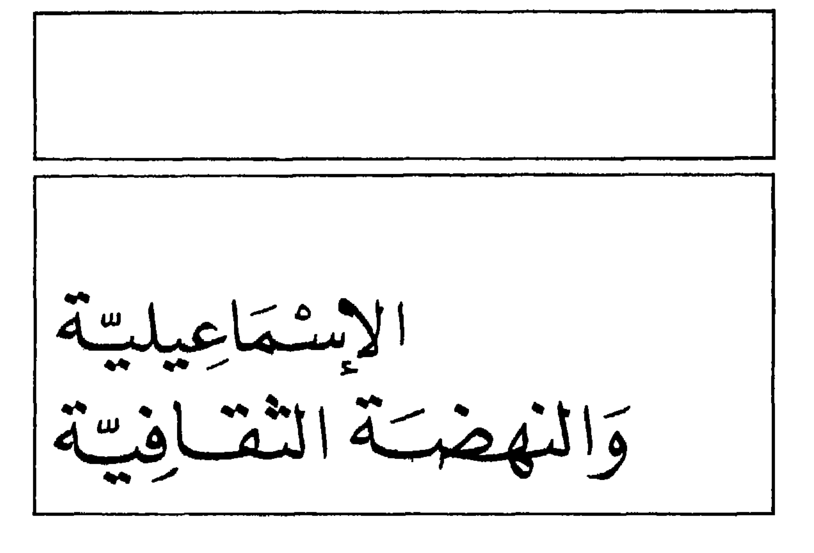
... وكان المحتسب «وأعوانه يساعدون القضاة على استتباب الأمن وتثبيت النظام، وبعضهم يقوم بمهمة البوليس السري لتتبع الجناة، والقبض عليهم، واكتشاف المؤآمرات التي يحيكها أعداء الدولة. وقد أعطى الإمام المعز لدين الله الصلاحيات اللازمة لهؤلاء المحتسبين، وكان ينتقيهم بنفسه من المخلصين له. أما المظالم فكان يوليها أيضاً اهتمامه، وقد تأكد أنه كان يجلس للمظالم بنفسه بعد أن قدم إلى مصر، أو ينوب عنه من يجلس إليها، «كيعقوب بن كلِّس» و «الحسين ابن عمَّار».

وذكر القاضي النعمان:

«إنه رفع إلى الإمام المعز لدين الله... أن بعض الأطراف أتوا يشكون إليه عاملاً كان عليهم، فرفعوا إليه رقعة، وكانوا قد رفعوا قبل ذلك رقعة أخرى.. فقال:

«عجباً لهؤلاء... يرون انا في غفلة عنهم، وعن غيرهم، وما شغلنا إذا اشتغل ملوك الدنيا بلذاتهم إلَّا النظر في أمور من قلدنا الله عز وجل أمره، واسترعانا إياه، وأنتم ترون ما نحن فيه كل يوم، وإنما يلتذ بالدنيا من يرى أنها حظه من الآخرة، ولولا ما نعلمه لنا عند الله عز وجل.. ما نظرنا بعين لما نحن فيها من مزاولتها، وأهلها... ثم نظر إليَّ، أي إلى النعمان وقال: قل لهؤلاء القوم... حسبكم أن تعلموا ان خبركم انتهى... فأمسكوا عن الشكوى، وكان قد بعث في عزل ذلك العامل.. فوافى بعد ذلك بأيام قليلة، واستعمل غيره مكانه».




الإسماعيلية
والنهضة الثقافية



الفاطميون والحركة الفكرية

سنَّ الفاطميون لدعوتهم، ولدولتهم نظاماً دقيقاً محكماً، لا نكاد نرى مثيلاً له في تاريخ الدول والدعوات، حتى في عصرنا هذا الذي قدرت فيه الدعاية حق قدرها، ولعل الفاطميين هم أول من أقاموا للدعاية مناصب رسمية في دولتهم.

ومن الحق علينا أن نذكر:

أنه كان للعباسيين نقباء يدعون لهم قبل أن يستولوا على الحكم، ولكن هؤلاء النقباء لم يعدلهم أي أثر، بعد أن أقاموا دولتهم وتمَّ لهم الأمر، وكان للمعتزلة أيضاً دعاة يدعون لآرائهم في الأقطار الإسلامية، ولكن المعتزلة لم يكن لهم كيان سياسي، كما لم تكن لهم دولة معترف بها.

أما الفاطميون، فكان لهم تنظيم فكري وسياسي واسع قبل ظهور دولتهم على مسرح العالم الإسلامي ثم بعد ظهورها، وهذا ما جعلهم يتفوقون في المجال السياسي، ويفتحون الفتوحات الفكرية في الأقطار والأمصار. وبالرغم من أن دعوتهم كانت «سرية» قبل العصر الفاطمي، وكان الأئمة الفاطميون ودعاتهم يتخذون الستر تقية على أنفسهم، خوفاً من بطش الأعداء، وإفساد المخططات.

وبالنسبة لعصرهم... فإن العلماء اعتبروه من أزهى العصور وخاصة في مصر الإسلامية. ففي خلاله بلغت الحياة العلمية درجة عالية من النمو والازدهار لكثرة العلماء الذين كانوا في مصر، أو الذين وفدوا عليها.. هذا بالإضافة إلى وفرة المؤلفات التي ملأت الخزائن ومراكز العلم، في كل فن من الفنون الأدبية والثقافية.

وكنا قد ذكرنا في أكثر من مكان.. أن الخلفاء أنفسهم كانوا يقربون العلماء، ويشجعون الطلاب، وأنهم أوقفوا أرزاقاً ثابتة للمشتغلين بالعلم حتى يتهيأ لهم التفرغ، للتحصيل العلمي. فأصبحوا في مأمن من الفقر، والتفكير بأرزاقهم... وإننا نرى... بعض العلماء من الأقطار الأخرى ممن كانوا ينقمون على الفاطميين قد وفدوا على مصر، وتأثروا ببعض الآراء التي كانت سائدة في مجتمعاتها العلمية والأدبية، ويخيل إليَّ أن السبب الذي من أجله شجع الفاطميون العلم والعلماء، هو أن المذهب الفاطمي نفسه كان يقوم على العلم وعمل العقل قبل كل شيء. فعن طريق العلم، والجدل، والمناظرات استطاعت التعاليم الفاطمية أن تنتشر في كل أنحاء العالم الإسلامي، وخاصة في الديار المصرية.

كانت عقيدة الفاطميين تقوم على العلم والعمل، وكانت منفتحة على كل العقائد والتيارات الفكرية والفلسفية المعروفة وقد درس دعاتها، مثلهم مثل كل علماء ومفكري عصورهم، الفلسفة اليونانية، واستخدموها كأداة في تكوين وبناء نظامهم الفكري، كما درسوا الديانات القديمة.

وغير خافٍ... أنه كان للإسماعيليين دعاة في جميع أرجاء البلاد الإسلامية ويجادلون أصحاب المذاهب الأخرى، وقد التفَّ حولهم عدد كبير من المسلمين، وأخذوا عنهم علوماً شتى، وهذا معناه أن أفكارهم لم تؤثر في مصر وحدها، بل أثّرت في جميع البلدان الإسلامية. فالداعي الفاطمي كانت معلوماته لا تقتصر على النواحي الإسلامية من فقه، وحديث، وتفسير، وتأويل فحسب، بل كانت تتعداها إلى معرفة أصول المذاهب القديمة من يهودية، ومسيحية، ووثنية.

لم ينس الفاطميون العلوم الأخرى كعلوم اللغة العربية مثلاً وما يلحق بها كرواية الأدب القديم، وشرحه، ونقده، وكانت هذه العلوم تسير جنباً إلى جنب مع غيرها من الدراسات التي أقبل عليها العلماء، والمتعلمون في مصر، وكأني بهؤلاء العلماء قد أصبحوا كعبة يفد عليها طلاب العلم من البلدان الإسلامية الأخرى للاستفادة من علماء مصر والرواية عنهم.

وكما كان الفلاسفة يجتمعون للمباحثة، والمذاكرة في فنونهم، كذلك فعل علماء النحو واللغة فقد كانوا يجتمعون في دار العلم الفاطمية بالقاهرة، وتجري فيما بينهم المباحثات، والمناقشات، وقد بلغ من اهتمام الخليفة العزيز بالله بعلوم اللغة والنحو أن جعل في ديوان الإنشاء لغويين، ونحويين بارزين كانت مهمتهم مراجعة ما كان يصدر عن الكتَّاب من رسائل، ونشرات، وذلك حتى لا يظهر فيها لحن في اللغة، أو خطأ في النحو.

ومن أشهر العلماء الذين ظهروا في ذلك العصر «محمد بن جعفر القزاز» ٩٥٣ ـ ١٠٢١هـ النحوي صاحب كتاب «الجامع في اللغة» «والحروف» «والعثرات». وهذا العالم الكبير استخدمه الإمام العزيز بالله وذكر أنه طَلَبَ إليه تأليف كتاب يجمع فيه سائر الحروف التي ذكر النحويون أن الكلام هو: اسم، وفعل، وحرف، جاء لمعنى. وأن يقصد في تأليفه إلى ذكر الحرف الذي جاء لمعنى ، وأن يجري ما ألفه من ذلك على حروف المعجم؛ وهو لون جديد لم يسبق إليه أحد من النحاة.

وقد بدأ القزاز بجمع مواد هذا الكتاب. فبلغ ما جمعه ألف ورقة... وينسب إلى ابن رشيق قوله: «إن «القزاز» **فضح المتقدمين، وقطع ألسنة المتأخرين**.

وهكذا نرى أن الحركة العقلية في مصر الفاطمية كانت في نمو مطرد في كل نواحيها، وألوانها، وفنونها، كما أن مراكزها قد تعددت، ونشطت حتى أضحت حلقات الدرس قائمة في المساجد، والدور.. في القاهرة، والفسطاط، والإسكندرية، وتنيس، وأسوان، وقوص في الجنوب، كما كان أمراء الأقاليم، والولاة. يجمعون حولهم العلماء والشعراء. وقد أفرد التاريخ صفحات عديدة لهؤلاء الأمراء، ولمجالسهم، وأسماء الشعراء الذين يحضرون تلك المجالس، وكل هذا يدل على أن الحياة في مصر الفاطمية كانت مزدهرة، يدلنا على ذلك العديد من الشعراء والعلماء في مصر، وهجرة الكثيرين منهم إلى مصر للإقامة فيها. فلا غروَ بعد هذا إذا ما تبوأت مركز الزعامة في العالمين العربي والإسلامي.

وعرف الفاطميون بثراء دولتهم في مصر، وبذخهم الذي لا مثيل له

الذي تجلّى باستحداث الأعياد والمواسم، والإفتتان بإقامة الحفلات والأفراح، حتى يخيل إلى كل من يتتبع تاريخهم أن حياتهم في مصر كانت أفراحاً وأعياداً.. أما الأعياد التي كانت مقررة في عهدهم فهي:

مولد النبي محمد (ص) ومولد الإمام علي، وفاطمة، والحسن، والحسين، وعيد مولد الإمام الحاضر... ويتبع كل هذا: عيد رأس السنة، يوم عاشوراء، أول رجب، أول شعبان، أول رمضان، غرة رمضان، عيد الفطر، عيد النحر، عيد الغدير، موسم فتح الخليج، يوم النيروز، يوم الغطاس، ويوم الميلاد.

كان الشعراء في هذه الأعياد يتبارون في إنشاد قصائدهم، ويتنافسون في الإجادة. والإبداع وينعمون بأخذ الجوائز والصلات.

وليست الأعياد والمواسم التي استحدثها الفاطميون فقط، أظهرت ما كان في الحياة الاجتماعية في مصر الفاطمية. فالفاطميون وخاصة في عهد الإمام العزيز بالله أكثروا من المباني، والمنشآت، وعنوا بإحداث المتنزهات، والمناظر، وأكثروا منها للدلالة على حبهم للفنون المختلفة. فهذه الحدائق والرياض التي جملوا بها مدينتهم القاهرة «المعزِّية» وضواحيها لم تكن خاصة بهم وحسب بل كانت لغيرهم من الرعية يتنعمون بمناظرها، ويفيئون إلى ظلالها. فالفاطميون أباحوا للناس دخولها، والاستفادة من جوها، وورودها، فأوجد ذلك عند المصريين لوناً من ألوان الحياة الفاخرة البهيجة، وسمت النفوس إلى حب الطبيعة والجمال. ولقد كان خروج المصريين في ذلك العصر إلى المتنزهات جزءاً هاماً من مقومات حياتهم ، فهناك كانوا يقصفون، ويطربون، وينعمون بجمال الرياض، وأريج الزهور، ومنظر المياه، وخاصة الشعراء الذين كانوا يقصدون هذه الرياض الغناء جماعات، وأفراداً فيتطارحون الشعر، ويتبارون في الإنشاد، ويستوحون من جمال الزهور، والمياه، والطبيعة أشعارهم.

ويجب أن لا يغيب عن بالنا... بأن سكان مصر في تلك الفترة كانوا على حظ وافر من الغنى والثراء، حتى أن العباسيين أخذوا يحسدونهم، وهم في أوج مجدهم، وسعة سلطانهم، وغير خافٍ أن الخلفاء الفاطميين اغدقوا على الشعب بما كانوا يملكونه من متاع وأموال.

لقد تمتع الخلفاء الفاطميون بمباهج الحياة، فأكثروا من إقامة المآدب، واستدعاء الخلّان، والسمَّار.. فأوحى هذا للشعراء بأرق القصائد... وكان ذلك من عوامل ازدهار الشعر خاصة، وأن الخلفاء جعلوا منه وسيلة من وسائل دعوتهم السياسية على نحو ما تقوم به الأحزاب السياسية في أيامنا هذه فتتخذ من بعض الصحف مادة للتعبير عن اتجاهاتها وآرائها.

إن كل ما ذكرناه يدل على أن العصر الفاطمي كان خصباً في الإنتاج العلمي، والفلسفي، والأدبي. بحيث استطاع رجال الفكر في مصر الفاطمية أن يقفوا بجوار غيرهم من شعراء، وأدباء الأقطار الإسلامية. فالعوامل التي تحدثنا عنها، والآثار التي قرأنا ، وكل ما تحدث به الرواة، والمؤرخون عن ذلك العصر الزاهر يؤيد ما ذهبنا إليه: بأن الحياة الفكرية في مصر الفاطمية كانت في أعلى درجة من درجات الرقي، وقبل أن نصل إلى نهاية المطاف نقول: إن أخيلة الأدباء في ذلك العصر، وتعبيرهم، وتصويرهم لبيئتهم، وألوان حياتهم جاءت كلها متناسبة مع واقع حياتهم. فالفاطميون في إنتاجهم الأدبي استخدموا الألوان الحسيَّة واستعملوا الجناس والطباق وألوان البديع الأخرى. فجاءت آثارهم الأدبية تمتاز بالغلو في كل شيء.

الفلسفة والآداب في عهد القائم بأمر الله

إن عبد الله المهدي، وبعده القائم بأمر الله، وقبلهما الآباء والأجداد الذين عاشوا في سلمية، أو في غيرها من البلدان... ساروا جميعهم على نهج واحد بالنسبة للعلم وللمعرفة، فقد استقرَّ في أفكارهم واختمر في عقولهم أن العلم وحده هو الذي يبني الدول، ويسعد الأمم. أما الجهل فإنه يهدم الأركان، ويزيل الآثار، ويتلف الحرث والنسل. فكل جماعة، أو هيئة، أو أمة، أو دولة لا تجعل العلم أساساً لها، فلن يستقر لها أمر، ولن تنهض، أو تصل إلى الهدف المنشود.

والفاطميون كما ذكرنا كانوا يعطفون على العلماء ويمهدون أمامهم سبل العيش بحرية واطمئنان.

والدعوة الإسماعيلية، وخاصة في المشرق أنجبت في مراحل مختلفة

عدداً من العلماء تمكنوا من الجلوس على قمة الإبداع في مجال العلوم والأدب والفلسفة، وليس غريباً أن يحرزوا هذه الانتصارات المبكرة، لأنهم لم يؤمنوا في يوم من الأيام إلّا بالعلم، والعقل وبالقلم الذي كرسوه، واتخذوا منه أداة للتعبير عن مبادئهم، وفلسفتهم، وأسس نظامهم الفكري، وعندما كانوا يشهرون هذا السلاح كان الناس يهرعون إلى الانتساب إلى صفوف دعوتهم، وانتهال العلم منها، والعيش في كنف الحياة العقلية التي كانت تسود مجتمعهم.

وكان «أبو حاتم الرازي» من هؤلاء المؤسسين الأعلام.

أبو حاتم الرازي

هو أبو حاتم أحمد بن حمدان بن أحمد الورسناني المتوفي سنة ٣٢٢هـ/ ٩٣٤ م والمعروف في عالم الأدب باسم «أبو حاتم الرازي».

لعب «أبو حاتم» دوراً بارزاً في الحياة السياسية «بطبرستان» و «الديلم»، وخاصة في إقليمي «الري وأصبهان» ومن المعروف عنه أنه تمكن من التأثير على كبار رجال الدولة في ذلك الوقت أمثال «أسفار شيرويه» و «مرداويج بن زيّار» وغيرهما، وعندما يذكر التاريخ أنه تمكن من ضمهما إلى صفوف دعوته، فيجب علينا أن لا نقلّلِ من أهميته سيما وقد اعتبره أكثر الباحثين من أعلام النهضة العلمية الإسلامية في ذلك العصر البعيد.

لأبي حاتم عدد من المؤلفات ظهر منها حتى الآن ما يقارب الخمسة عشر كتاباً، والباقي اعتبر مفقوداً، أما أبرز مؤلفاته وأهمها فهو كتاب «**الزينة**»، وهذا الكتاب القيم يبحث في اشتقاق الكلمات، ومعانيها، ومرادفاتها، وأكثرها تنحو نحو الفلسفة، والفقه، واللغة، وعلم ما وراء الطبيعة، فضلاً عن بعض المعلومات الجغرافية، والتاريخية والأدبية وكل هذا ورد بأسلوب ممتع وشيق.

وله كتاب «**الإصلاح**» الذي يردّ فيه على صاحب كتاب «المحصول» «النسفي» الذي يعتبر أحد أساتذته، وله كتاب «**أعلام النبوّة**» وفيه يرد على الطبيب المتفلسف «أبي بكر الرازي» ويبدو أن الرازي الأول انتصر وتفوّق على الرازي الثاني ودحض آراءه وحججه وخاصة في موضوع النبوءة التي كان يقف منها الرازي الطبيب موقفاً مغايراً

لمبادئ الإسلام إذ يؤكد بأن النبوة هي تولية ويجوز أن يخص الله بها أي فرد من مخلوقاته سواء أكان هاشمياً أم زنجياً وهو راي أنكره أبو حاتم.

وقد أثبت بالبراهين والآيات أن التولية لا يمكن إلا أن تكون محصورة في بيت معينٍ أو أسرة معينة اختارها الله منذ القديم وفضلها على العالمين، فهي صفوة عباده وخيرة خلقه. وأثبت في الكتاب أيضاً أنه طبيب روحاني يداوي مرضى النفوس المخالفين، والمصابين بالعلل، والانحرافات العقلية.

مما يؤسف له أشد الأسف أن تاريخ «أبي حاتم الرازي»، وسيرته في شبابه، ويوم ولادته وكل ما يتعلق بذلك ظلّ مجهولاً، وإني على يقين بأن هؤلاء الدعاة المجاهدين أغفلوا قصداً تاريخهم وعاشوا بسرية مطلقة، مما جعل المعلومات عنهم نادرة جداً.

«أبو أحمد النسفي»

تعتبر المصادر التاريخية عن هذا الفيلسوف قليلة ونادرة، فنحن لم نحظَ إلّا بنبذة قصيرة عن طفولته وولادته، وشبابه، وعن المدة التي قضاها في بلاد فارس.

ومن الواضح أنه تمكّن من التأثير في آخر أيامه على «نصر بن أحمد الساماني» وأدخله في الدعوة الإسماعيلية، ومن الأخبار التي تروى عنه أنه تمكن من إقناع نصر المذكور بدفع «دية» الداعي الإسماعيلي «المروزي» الذي قتله نصر قبل أن ينتسب إلى الإسماعيلية، وهذه الدية قدرت بمئة وعشرين ألف دينار، أرسلها إلى الخليفة الفاطمي الثاني الإمام القائم بأمر الله.

تجمع المصادر التاريخية على القول: بأنه مات شهيداً، ولكن هذه المصادر لم تحدد مكان الوفاة أو زمانها ولا أسماء القتلة. وينسب إليه كتاب «**المحصول**» الذي أحدث ضجة واستحساناً في الأوساط الإسماعيلية، ولكن «أبا حاتم الرازي» ردَّ عليه، وناقش بعض الآراء والنظريات التي وردت فيه بكتابه الذي سمَّاه «الإصلاح»، فجاء «السجستاني» فوضع كتاباً سمَّاه «النصرة» وقد انتصر فيه لصاحب «المحصول» على «الإصلاح»، وعندما جاء «الكرماني» وضع كتابه

المشهور «الرياض» الذي اعتبره حكماً بين الكتب الثلاث. والطريف في الأمر هو أن الكتب الأربعة هذه هي من تأليف دعاة إسماعيليين نهلوا من نبع واحد، ودرسوا في مدرسة واحدة.

«جعفر بن منصور اليمن» جاء إلى المغرب من اليمن سنة ٣٢٢ هـ. فوضع نفسه في خدمة الدولة الفاطمية، وكان موضع تقدير القائم بأمر الله، والمنصور بالله، وهكذا في عهد «المعز لدين الله. ومن الجدير بالذكر أنه انتقل معه عندما نقل عاصمة ملكه من المغرب إلى القاهرة. في القاهرة عُين «داعي الدعاة» وهي أكبر وظيفة دينية في الدعوة. ترك جعفر عدداً من المؤلفات في موضوع الفلسفة الإسماعيلية أهمها: **أسرار النطقاء، وسرائر النطقاء، والفرائض وحدود الدين، والكشف، والشواهد والبيان، والفترات والقرانات**، وله كتب أخرى مفقودة من مكتبة الدعوة.

يعتبر جعفر بن منصور من أشهر العلماء الذين أنجبتهم الدعوة الإسماعيلية في المغرب، وقد اشتهر بصراحته في كتبه، وجرأته في الكشف عن كثير من الرموز الفلسفية. مات ودفن في مصر سنة ٣٦٣ هـ.

امتاز «جعفر بن منصور» بنشاطه الفكري في حقل التأليف، والتأويل، وكان خصب الإنتاج.

ممَّا تجدر الإشارة إليه: أن القاضي «النعمان بن حيّون» قد مرض وهو بمصر، فزاره، العديد من علية القوم، ومنهم «جعفر بن منصور»، فلما أبل من مرضه سأله «المعز لدين الله» عمن زاره أثناء مرضه، فذكرهم جميعاً دون أن يذكر جعفراً ولكن المعز لدين الله أخذ **يطري** جعفراً ثم قدَّم إلى النعمان رسالة وطلب منه قراءتها، فنالت إعجابه، وظنَّ أنها من تأليف الخليفة، ولكن «المعز لدين الله» أفهمه بأنها من وضع مولاه الرئيس جعفر بن منصور وعندئذٍ أدرك النعمان مكانة جعفر، فذهب إليه ، وعبَّر له عن صدق عواطفه، وتقديره.

«أبو يعقوب السجستاني» عالم جليل، وفيلسوف كبير، وشيخ من شيوخ الدعوة الإسماعيلية

الهادية في القرن الثالث هجري... ظهر أثره في تلميذه «حميد الدين الكرماني» «حجة العراقين» الذي سار على نهجه ودعا إلى تعاليمه، ويكفي أن يكون الكرماني تلميذاً للسجستاني لنضع السجستاني في المرتبة الأولى بين مفكري المسلمين وعلمائهم وفلاسفتهم المشهورين.

عاصر الدعوة الإسماعيلية في عصري الستر والظهور، وعاش في بلاد يذهب أهلها مذهب أهل السنة، فكان مجبراً على الحذر والتقية في حركاته، ودعواته، ولهذا فإننا لا نعرف الكثير عن حياته.

ينسب إلى «سجستان» وهي مقاطعة من جنوب خراسان من أسرة فارسية قيل أنها أسرة بطل الفرس «رستم» ولا ندري حقيقة هذا القول. يذهب المستشرق «ماسينيون» ويؤيده «إيڤانوف» بأنه مات سنة ٣٣١ هـ ولكن لابد لنا من الاعتراض على هذا القول. فالمعروف عن السجستاني أنه كان أستاذاً للكرماني، والكرماني ظلّ حياً حتى سنة ٤١١هـ. فمتى أخذ الكرماني عنه علوم الدعوة إذن؟ وهناك نصٌ صريح في كتاب «الافتخار» للسجستاني يذكر فيه أنه وضعه سنة ٣٦٠ هـ وقد ورد ذكر كتاب «الافتخار» للسجستاني في كتاب «الرياض» للكرماني، ومعنى ذلك أن السجستاني وضع الافتخار قبل الرياض.

لقد كان السجستاني من الفلاسفة الذين تركوا أثراً في الأفكار في عصره، ومن المؤسف أن بعض مؤلفاته مفقود، وأنه مات شهيداً كباقي الدعاة الإسماعيليين المجاهدين وأهم كتبه:

أسس الدعوة، كشف المحجوب، تأويل الشرائع، سوس النعم أو سوس البقاء، الرسالة الباهرة، الافتخار، إثبات النبوآت، الموازين، الينابيع، سلم النجاة، النصرة، المقاليد، مسليات الأحزان، أسرار المعاد والمعاش، المواعظ في الأخلاق، الغريب في معنى الأكسير، مؤنس القلوب، تأليف الأرواح، الأمن من الحيرة، خزائن الأدلة، تحفة المستجيبين.

«النعمان بن حيُّون المغربي التميمي»

هو النعمان بن أبي عبد الله بن محمد بن منصور بن أحمد بن

حيُّون التميمي المغربي»..... عاش في النصف الأول من القرن الثالث الهجري، وتوفي سنة ٣٦٣ هـ. في مدينة القاهرة بعهد الخليفة الفاطمي الرابع الإمام «المعز لدين الله» يعتبر القاضي النعمان رأس الأسرة النعمانية العريقة المعروفة في المغرب، والتي خدمت العلم، وأدَّت أجل الخدمات للدعوة الإسماعيلية في مجال العلم والأدب والفلسفة، فكان إنتاجها الغذاء الشهي للأفكار، والمادة الحيَّة للروح.

خدم عبد الله المهدي في أواخر سني حياته، فكان المشرف على المكتبة الفاطمية، وفي عهد «القائم بأمر الله» تولَّى شؤون القضاء في «طرابلس الغرب»، وفي عهد «المنصور بالله» عين قاضياً في «المنصورية» وحينما نقل الخليفة الفاطمي الرابع قاعدة الخلافة إلى القاهرة، عيَّن النعمان قاضياً للقضاة، وظلَّ في منصبه هذا حتى وفاته.

هو أشهر فقهاء عصره، وأكثرهم إنتاجاً، وأغزرهم مادة، وأخصبهم قريحة.. أما كتبه ومؤلفاته فهي أكثر من أن تحصى، وهي على العموم في الفقه، والأحكام، والقانون، والتأويل، أو قل عنها إنها الذخيرة الحيَّة، والتراث المعبر عن حقيقة الدولة الفاطمية. وهذه هي أهم مؤلفاته:

دعائم الإسلام، الإيضاح، مختصر الإيضاح، الأخبار، الينبوع، الاقتصار، الاتفاق والافتراق، المقتصر، العقيدة المنتخبة، مختصر الآثار، يوم وليلة، الطهارة، كيفية الصلوات، منهاج الفرائض، نهج السبيل إلى معرفة التأويل، أساس التأويل، تأويل دعائم الإسلام، حدود المعرفة، التوحيد والإمامة، إثبات الحقائق، كتاب في الإمامة، القصيدة المختارة، التعاقد والانتقاد، الدعاء، الهمة في آداب أتباع الأئمة، الحلي والشباب، شرح الأخبار، قصيدة ذات المنن، وذات المحن، مناقب بني هاشم، المجالس والمسايرات، افتتاح الدعوة، تأويل الرؤيا، مفاتيح النعمة، تقويم الأحكام، سيرة الأئمة.

الحياة الثقافية في عهد المعز لدين الله

تقدمت الثقافة تقدماً باهراً في عهد الإمام المعز لدين الله، ونهضت

البلاد نهضة علمية كانت موضع أحاديث المؤرخين، وخاصة النهضة التي كانت تتصل اتصالاً مباشراً بالدعـوة الإسماعيليـة وفلسفتها. ففي عهده نبغ دعاة أفذاذ، وشعراء ، وأدباء، كما أن الإمام المعز لدين الله نفسه ساهم في تلك النهضة، فكان دماغها المفكِّر، والمخطط الأكبر لها.

ازدهرت العلوم الإسـلامية في منتصف القـرن الثالث، والـرابع، الهجريين ازدهاراً ملحوظاً، وقد رفع البويهيون، والحمـدانيون لواءها في المشرق، كما ساهم بازدهارها الأمويون في الأندلس.. ولكن المعز لدين الله فاقهم جميعاً، لأنه كان يعتقد بأن أية نهضة لا تكون صحيحة، وتامة إلَّا إذا قادها «آل بيت» الرسول.

ويجب أن نشير إلى... أن الإمام المنصور بالله امتـاز بسعة اطلاعه، ولم تشغله مهام الخلافة، وأعباء الحكم، والحروب التي خاضها عن البحث، والتأليف، والنظر في العلوم، وكان كثيراً ما يحتِّم على ولده «المعز لدين الله» أن ينصرف إلى الدرس، وتأليف الكتب، وقرض الشعر، كما كان يحثُّ العلماء على الاستزادة من العلم.

وهذه البيئة العلمية التي شبَّ فيها المعز لدين الله، كان لها أثرها في تنمية مداركة، وتوسيع اطلاعه، وزيادة معرفته. حتى أنه كان يحاضر العلماء والنحاة، والفقهاء، ويناقشهم مناقشات تدل على سعة علمـه، ومقدرته، وأدبه.

وكانت مكتبة الإمام المعز لدين الله في المنصورية، ثم في القاهرة زاخرة ـ بالكتب القيمة، وقد بلغ من شغفه بهذه المكتبة، أنه كان يعرف مواضع الكتب التي فيها، والمواضيع التي تبحثها. وقد ذكر النعمان:

> «أنه أمر مرةً خازنه أن يحضر له كتاباً، فلم يحضره على الفور، فقام وبحث عن هذا الكتاب ثم قرأه، واستهواه الاطلاع حتى صرف معظم تلك الليلة في القراءة وهو واقف على قدميه... وكان يقول: «والله ما تلذذت بشيء تلذذي بالعلوم والحكمة».

وكان الإمام المعز لدين الله يعقد المجالس العلمية، فيحضرها كبار رجال دولته ـ ومشائخها، وعلماؤها، وأدباؤها، فتظهر مقدرته الفائقة،

وضلوعه في الفلسفة، وعلم التأويل، والحديث، والفقه... يدلنا على ذلك قول النعمان:

«إن الإمام المعز لدين الله نظر في كل فن، وبرع في كل علم فإن تكلم في فن منها أربى على المتكلمين، وكان فيه نسيج وحده في العالمين. أما علم الباطن، ووجوهه فهو بحره الذي لا تخاض لجَّته، ولا يدرك آخره. وأما القول في التوحيد، وتثبيت الدين، والرد على اقتراف البدع والملحدين والغلاة، فهو واحده، وعلمه، ومناره، وعمدته. وأما الفقه والحلال، والحرام. ومسائل الفتيا، والأحكام، فذلك مجاله، وميدانه، وصنعته، وديوانه. وأما الطب والهندسة، وعلم النجوم والفلسفة، فأهل النفاذ في كل فن من ذلك وكلهم ذلك عيال عليه. يخترع لهم في كل يوم من الصنائع، ويبدع لهم فيه البدائع، من دقائق معانيه، وما تحار أذهانهم فيه».

وكان الإمام المعز لدين الله شغوفاً بكتب الباطن خاصة، حتى أنه كان يجد في ذلك لذة وفخراً يصغر أمامهما جاه الخلافة... فهو يقول:

«إني لأجد من اللذة، والراحة، والمسرة... في النظر في الحكمة ما لو وجده أهل الدنيا لاطرحوها لها، ولولا ما أوجب الله سبحانه عليَّ من أمور الدنيا لأهلها ، وإقامة ظاهرها ومصالحهم فيها لرفضتها بالتلذذ بالحكمة، والنظر فيها».

وكان الإمام المعز لدين الله يستحث همم المغاربة، والمشارقة على السواء للتزود من العلم، ويلوم من يتقاعس منهم عن ذلك، وكان يحلم بأن يحكم شعباً مثقفاً، وكثيراً ما كان يصرح لجلسائه بأنه مما يحزُّ في نفسه أن يرى الناس ينهمكون في اللهو، والعبث، دون أن يحبوا البحث والاطلاع، وتغذية عقولهم بالعلوم والمعارف، وأكثر من ذلك كان إذا أصابه أرق، أو أحسَّ بالملل من مشاغل الحياة، أكبَّ على الكتب يرتشف منها العلوم والمعارف والفنون.. وكنا ذكرنا أنه كان يجيد كافة اللغات السائدة في عصره. وكان أيضاً يعمل على تشجيع العلماء، فيقربهم إليه، ويدر عليهم الأموال، كما كان يشرف على مؤلفاتهم وبحوثهم، ويتناولها بالتعديل والتغيير والتصحيح، فيحذف ما يريد، ويضيف إليها ما هو ضروري من الآراء، أما نقده للمؤلفين فكان النقد البنّاء الذي يصدر من العالم الضلِع.

ومن الجدير بالذكر... أن بعض الأمراء الفاطميين. والمستجيبين من أهل الدعوة طلبوا إلى النعمان وضع كتاب في أخبار الأئمة الفاطميين

ـاديثهم. فوضع كتاباً سمَّاه «الدينار» ثم قدمه للإمام المعز لدين الله، ومع علو قدر النعمان، وطول باعه، وسعة اطلاعه في التأليف فإنه أمده بكثير من الآراء، وقد كتب إليه يقول:

«وقفت على الكتاب، وتصفحته فرأيت فيه ما أعجبني من صحة الرواية، وجودة الاختصار، ولكن فيه كلمات تعتاص على كثير من أوليائنا معرفتها، فاشرحها بما يقرب من أفهامهم فيستوي في معرفته، والإحاطة بعلم ألفاظه الشريف والمشروف. فإنه يجيء طريفاً قريب المأخذ ، وسمِّه كتاب «الاختصار لصحيح الآثار، عن الأئمة الأطهار» فإن ذلك أشبه به من كتاب «الدينار».

وكان القاضي النعمان مع قدرته يقف من الإمام المعز لدين الله موقف التلميذ من معلمه، وقد تجلَّى ذلك عندما كان ينصُّ عليه الفصول، ويفرِّع له الفروع من كتاب «دعائم الإسلام».

.. وهكذا بالنسبة للدعاة الآخرين. «كجعفر بن منصور اليمن»، «ويعقوب بن كلِّس» وغيرهما، ومن أشهر العلوم التي اشتغل بها العلماء في عصره: التفسير، والحديث، والمناظرة، والفقه، والتأويل، والكلام، والعقائد، والإرشاد، والفلسفة.

وصفوة القول: إن المعز لدين الله كان من أفذاذ عصره في العلم، والأدب، والتصنيف، حتى إنه نسب إليه الكثير من الكتب مثل كتاب «الروضة» و «الرسالة المسيحية» و «كتاب المناجاة» وغيرها من الكتب التي لم نعثر لها على أي أثر، وكل هذا بالإضافة إلى نهضة الشعر في عصره، التي حمل لواءها «ابن هانى الأندلسي» وابن الإمام المعز لدين الله «تميم».

ولم يقف نشاط الإمام المعز لدين الله على نشر الثقافة العامة وحدها، بل تجاوزه إلى نشر افكار النظام الإسماعيلي، ووضع لها نظاماً متدرجاً مفصلاً للإستفادة منها، ولكي تجد في عقول رجال الدعوة والمستجيبين، والمؤمنين مجالاً خصباً. فكان يجتمع إلى الدعاة الكبار في أماكن خاصة، ويقرأ عليهم المحاضرات والدروس، والتعاليم، في أصول وقواعد النظام، والحكمة، وعلم الحقيقة، وكانت هذه الاجتماعات تسمَّى «مجالس الحكمة» ثم تطورت فيما بعد فأصبحت تدرس في المساجد، وفي قاعات قصر الخلافة.

...لقد كان الخلفاء الفاطميون الذين عاشوا في المغرب يعنون بنشر

تعاليم الدعوة. فالإمام المنصور بالله كان كثيراً ما يشرح لابنه وولي عهده، بعض كتب الباطن الرمزية، أو الفلسفية المعقدة.. حتى أنه كان يقول له:

«كنت احب ان اعيش لك أكثر مما عشت لافيدك وازيدك»

ولمّا ولي الإمام المعز لدين الله الخلافة اعتبر أن هذا الواجب يجب أن يكون جزءاً من سياسة الدولة. فسنَّ السنن.. وحتَّم على أتباعه قبولها، والعمل بها.

وخصَّص الإمام المعز لدين الله وقتاً لأخذ العهود على المستجيبين، والداخلين حديثاً في الدعوة، وكان لا يرضى إذا قام أحد غيره بهذه المهمة، ولهذا وفد الناس من المشرق والمغرب وكثر عدد المنتسبين، وعظمت رغباتهم، وأقبلوا يقطعون البحار والقفار لنيل بركاته، وسماع وصاياه.

وكان يعنى عناية خاصة بتلقين دعاته علم الباطن. فأخرج من خزائنه الخاصة. الكتب التي ورثها عن آبائه، وجعلها في متناول كبار الدعاة.

ومن الجدير بالذكر.. أن هؤلاء الدعاة كانوا ينقسمون إلى صفوف لكل منهم علم خاص به.

ويجب أن نذكر:

إن كتب الدعوة التي تكلمنا عنها.. كانت زاخرة بالنصائح التي توجه إلى الدعاة ـ ليسيروا على هديها في تلقين العقيدة، وليكونوا من الفراسة بحيث يستطيعون من أن يميزوا بين المستجيبين، ويلقنوا كل واحد منهم مقدار ما يستحقه. وهذه الكتب أيضاً رسمت خطة الدعوة الرسمية التي يجب على الداعي سلوكها لتلقين مواد المبادىء، فيسير معهم في خطى وئيدة حتى لا تضيع البذور في أرض سبخة، ولا ينحرف عن السبيل، أو ينعكس عليه قصده، فتصاب الدعوة بالخيبة والخذلان، وقد أوضح الإمام المعز لدين الله ذلك بقوله:

«ينبغي للداعي اختبار أمر من يدعوهم، وتعرف أحوالهم رجلاً رجلاً. وتمييز كل امرىء منهم ومعرفة ما يصلح له أن يؤتى إليه، ويحمله عليه من أمر الله، وأمر أوليائه، ومقدار ما يحمله من ذلك ومدى قوته وطاقته،

ومتى يوصل ذلك إليه، وكيف يغذوه به، وامتحان الرجال، وتعرف الأحوال ومقدار القوى، ومبلغ الطاقات والقدرات».

وهكذا رسم للدعاة خطة تنظيم العلاقة بين الدعاة والمستجيبين، والسبيل الذي يجب أن يسلكوه مع مدعويهم ، فأبان لهم وجوب الظهور بمظهر الوقار، والإجلال ليكون ذلك مدعاة إلى تفاني المدعويين في الالتفاف حولهم، وأن يكون مصدر هيبة الداعي ووقاره. ويكون:

«حسن الصوت، خفيض الجناح، لين الجانب، حسن العشرة، جميل المخالفة من غير تجبر، ولا تكبر، بل يكون التواضع سيماه، والوقار همته».

كان للفاطميين في البلاد التي يدعون فيها لدعوتهم، تشريع خاص في معاملتهم أهالي تلك البلاد، كما كانت لهم ثقافة، وصلاة، وآذان، وعبادات مقررة... ولا غروَ فإن كل إسماعيلي مهما بعدت دياره، كان يحن إلى الدولة الفاطمية، ويسعى إلى دعمها، وتلبية ما تفرضه عليه نظمها، ومبادئها. وبهذا نستطيع أن نقول:

إن الإمام المعز لدين الله... وجَّه الدعوة الباطنية توجيهاً صحيحاً، كما وجَّه الدولة توجيهاً سياسياً عظيماً، ويتجلَّى كل ذلك بما نطق به الدعاة الذين جاؤوا من المشرق وعندما كانوا يتأهبون للعودة إلى ديارهم. قالوا:

«لا جعل الله آخر عهدنا بك، فما أشد علينا فراقك، لولا ما نرجوه في امتثال أمرك، وإنَّا لذلك شخصنا عنك. وفارقناك».

فقال لهم:

«إذا كان اعتقادكم ولايتنا، وامتثال أمرنا، وطاعتنا، والتسليم لنا، ووصلكم ذلك قولًا، وفعلًا، فأنتم معنا حيث كنتم.. فأرواحنا متصلة بأرواحكم، ومودتنا، بمودتكم، ومن كان على خلاف ذلك لم ينفعه قربه منا، لأن الاتصال لا يكون بتقارب الأجسام، وإنما يكون بتقارب الأنفس. فأنفسكم على ما كنتم وصفتم قريبة من أنفسنا، وإن بعدت الأجسام ونأت المنازل، ومطابقة النفوس أخص، وأقرب، وأصدق من مطابقة الأهل، والقرابة. وأنتم واجدون منا ما لا تجدونه من الآباء والأمهات، إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم، شكرنا ذلك من أمركم، وعرفنا فضله لكم، وجزيناه به، وإن أسأتم صفحنا عما يجب صفحه عنكم، وكل إنسان منكم ينظر لنفسه، ويكدح لها. ونحن ننظر، ونعنى لصلاح جميعكم، فأعينونا على ذلك بتقوى الله، وامتثال أمره، والانتهاء بنهيه. فإنكم إذا فعلتم ذلك أصلح الله

حالكم، وأجزل أجوركم، وأقرَّ أعينكم، وأعيننا بكم، وعن قريب ترون من صنع الله، وفضله ما تحبونه إن شاء الله».

وكانت التعاليم التي أقرها الإمام المعز لدين الله، وجعلها دستوراً تحث الدعاة وللمستجيبين أن يبدأوا بصلاح أنفسهم. فهم أحق الناس بالورع والصلاح، والتقوى، والعفاف، والعمل بكل صالحة، واجتناب كل مكروه. وهذا باب يدخل منه جماعة المؤمنين. . كقول الإمام «جعفر بن محمد» الصادق، لكافة شيعته الذين اعتنقوا تعاليم دعوته:

«فينبغي للداعي أن يحكم أو هذا الوجه من نفسه، ويكون أسبق أهل دعوته به، وأقربهم منه، وأحقهم بفوائده.. من حسنت نيته، وصفت طويته، ودقَّ ذهنه، وصحَّ اعتقاده، وجاد عقله، وملك سره، وقام بفرضه ما كان مما كثر أو قل.. شرف عند الناس من كانت هذه حاله، أو انحطَّ لديهم أو صغر، أو كبر عندهم، إلَّا أن يحتاج الداعي إلى استمالة الأشراف في حال ما يستميلهم، كما تستمال المؤلفة قلوبهم على مقدار أحوالهم، فإن التقريب على الدين، والتفصيل به، والترفيع لأهله... أقرب إلى اغتباط الناس به، ودخولهم فيه.

وينبغي للداعي أن يتهيَّب عند أهل دعوته، وأن لا يعودهم الجرأة عليه، ولا يبسطهم كل البسط لديه، فيهون عندهم، ويصغر أمره لديهم، فإنه كلما كان أهيب عندهم، كانوا أكثر انتفاعاً به. وأحرى عنده، وليكن تهيبه ذلك بحسن الصمت، وخفض الجناح، ولين الجانب، وحسن العشرة، وجميل المخالقة، ومن تجبر عليهم، ولا تكبر في أمره عليهم، بل يكون التواضع سيماه، والوقار همته.

وقد جاء عن الإمام «جعفر بن محمد» الصادق أنه قال:

«اطلبوا العلم، وتزينوا بالوقار، والحلم، وتواضعوا لمن تتعلمون منه، ولمن تعلمونه، ولا تكونوا علماء جبارين، فيذهب باطلكم بحقكم» وقال:

«من طلب العلم ليدافع به العلماء، ويجاري به السفهاء، أو ليصرف به وجوه الناس إليه، ويتكبر عليهم، فليتبوأ مقعده من النار.. إن الرئاسة لا تصلح إلَّا لأهلها».

فينبغي للداعي أن يكون مهيباً في غير تكبر، ولا صلف، متواضعاً لا لمهانة ولا لضعف، فإن اجتمع له أمره، واستحكم، واتصل له مراده، وانتظم وعده في أهل دعوته وعظم، فليحسن إلى محسنهم، ويقربهم على درجاتهم، وينزلهم على طبقات أعمالهم، ولا يهمل أمرهم، فيدع عقوبتهم على ما يتضح له من ذنوبهم، ويصح له من إساءتهم.

وقال الإمام علي:

«إن الله جلّ ذكره أدّب هذه الأمة بالسيف والسوط... ليس عند الإمام فيها هوادة، ولو علم الله جلّ ذكره أن عباده يصلحهم التجاوز عنهم لأمر به، ولكن جلّ ثناؤه حدّ حدود الذنب بهم إذا علم ـ لا شريك له ـ أن بها صلاحهم، فجعل حد القاتل في القتل التعمدي وجعل في الخطأ الدية، وحكم في الزاني المتحصّن بالرجم، وفي البكر بالجلد، وفي السارق بالقطع، وفي المحارب بالصلب، أو النفي، وقطع اليد، والرجل، والقاذف بالجلد، وفي الشارب بالحد، في حدود فصّلها، وأحكام افترضها وأجراها».

وقال أبو عبد الله جعفر الصادق:

«كونوا لنا دعاة صامتين.. ثم بيّن ذلك، وأخبرهم أنهم إذا عملوا صالحاً، علم الناس أنهم خير، فدخلوا في جملتهم، وكانوا دعاتهم بأعمالهم، وقلوبهم، لا بألسنتهم، وكل مؤمن يعمل الخير فهو داعٍ إلى الأئمة، ولكن سبيله الذي حدّد له لا ينبغي أن يتجاوزه، أو يقصد عنه، ـ فرأس أمر الدعاة إلى أولياء الله، وسيد أعمالهم، وقطب أمورهم صلاح أنفسهم بالدين الصادق والورع الحاجز، والدعاء بالحكمة البالغة، والموعظة الحسنة.

ثم ينبغي للداعي اختيار أمر من يدعوهم، وتعرف أحوالهم رجلاً رجلاً، وتميز كل امرىء منهم، ومعرفة ما يصلح له أن يؤتى إليه، ويحمله من أمر الله، وأمر أوليائه، ومقدار ما يحمله من ذلك، ومدى قوته وطاقته، ومتى يوصل ذلك إليه، وكيف يغذوه به، وامتحان الرجال وتعرُّف أحوالهم، ومقدار القوى، ومبلغ الطاقات.

أبو الفرج يعقوب ابن يوسف بن كلّس

علم من أعلام الدولة الفاطمية، وشخصية من أعظم الشخصيات التي خدمت الدولة الفاطمية، وكان لها أكبر الأثر في الحياة الفكرية، والسياسية في مصر.

هو: «أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس». ولد في بغداد من أسرة عراقية يهودية، ونشأ فيها حيث درس الكتابة والقراءة والحساب. وبعد أن كبر اتخذ التجارة مهنة له ومكتسباً ، فبدأ بمعاونة والده في هذا المجال، ثم رحل إلى دمشق في بعض المسائل التجارية، وبعدها

أرسله والده إلــى «الرملة» فأقام فيها، وصار وكيلاً لبعض التجّار، وبعد مدة انتقل منها إلى مصر للقيام فيها ببعض الأعمال التجارية، وكان يحكمها في تلك الفترة «كافور الأخشيدي» وذلك سنة ٣٣١ هـ وهناك تمكن بفضل مرونته وجرأته من الاتصال بكافور. فأحله محل العطف والرعاية، وعندما آنس فيه علو النفس، والجد، والهمة، والنشاط، والأمانة، عيَّنه في ديوانه الخـاص، وأسند إليـه مهمة استشارية، وفي هذا الوقت اعتنق الإسلام، فزادت حظوته عند كافور، ولزم دراسة القرآن الكريم. ورتَّب له كافور بعض العلماء الذين تولوا تدريسه أصول الدين الإسلامي. فاجتهد في الدرس والتحصيل حتى بلغ فيهما درجة عالية، وقد أثار تقرب كافور منه حسد الوزير «جعفر بن الفرات» فنصب له الحبائل لإخراجه من البلاد، وبعد وفاة كافور ألقى «ابن الفرات» القبض عليه وسجنه، ولكنه تمكّن من الفرار، وهرب إلى المغرب حيث اتصل بالخليفة الفاطمي الإمام المعز لدين الله، فقرَّبه، وعطف عليه، وظل يعمل في بلاطه حتى تم له فتح مصر، فجاء إليها مع الإمام المعز لدين الله. مما تجدر الإشارة إليه أنه بعد عودته إلى مصر عين وزيراً أول ، وكان ابن الفرات لا يزال في مصر، فلم ينتقم منه بل بالعكس قرَّبه منه وعطف عليه وأخيراً زوَّج ابنته من ولد جعفر «فضل».

وتذكر بعض المصادر أن الدعاة الفاطميين تمكنوا من التأثير عليه، واستقطابه منذ أن كان في بلاط كافور، فتجنّد للدولة الفاطمية منذ ذلك الوقت، وظلّ قائماً في خدمتها، حتى حين فراره والتحاقه بها، ومن الواضح أنه كان يزوِّد الفاطميين في المغرب سراً ويعلمهم بكل شاردة، وواردة عن مصر وأحوالها.

بعد استقرار الإمام المعز لدين الله في مصر، عيَّنه على الخراج، والحسبة، والأموال، فاستمرَّ في عمله، واكتسب عطف الخليفة وثقته، وبعد ذلك ولَّاه النظر في جميع أمور قصره، وبعد وفاة الإمام المعز لدين الله ازدادت مكانته عند الخليفة الفاطمي الخامس «العزيز بالله» وكان في تلك الفترة قد تعمَّق في دراسة الدين الإسلامي، والفقه الفاطمي الجعفري خاصة، فأصبح من أعلام علماء الدعوة الفاطمية.

في سنة ٣٧٣ هـ. اعتقل في قصره لعدة شهور، ثم أطلق سراحه من قبل

الخليفة سنة ٣٧٤ هـ. وأصدر أمراً بحمله في موكب رسمي إلى القصر.. وهناك قرأ الإمام العزيز بالله سجلا بإعادته إلى منصبه من جديد.

ظلَّ سبب هذا الاعتقال خافياً وغير معلوم، ولكن بعض المصادر ذكرت: أن بعض أعدائه ألصق به تهمة دس السم بالطعام للقائد التركي «أفتكين». ولكن براءته ظهرت من تلك التهمة.

كان له في الدولة الفاطمية سلطان واسع ومكانة رفيعة، وكان محباً للعلم وللعلماء، مشجعاً لهم، يغدق المنح، والعطايا، على الكتاب، والشعراء... وكان يجتمع في منزله بالعلماء والفقهاء، ويقيم أيضاً الكتّاب لنسخ القرآن الكريم، وآخرين لنسخ كتب الحديث، والفقه، والأدب، والطب.. وكان كل يوم ينصب خواناً لخاصته من أهل العلم والكتّاب، وخواص الأتباع والجلساء وقد عرف من هؤلاء كل من:

«الحسين بن عبد الرحيم الزلازلي ، مصنف كتاب «الأسجاع». «والتميمي المقدسي» الطبيب، و «البويهي» الذي أخذ ابن كلس عنه علم العروض. أما في الفقه الفاطمي، فقد بلغ درجة أهلته لأن يؤلف الكتب، وقد رتَّب لنفسه مجلساً في كل ليلة جمعة يقرأ فيها مصنفاته على الناس، وكان يحضر هذا المجلس القضاة، والفقهاء، والقراء، والنحاة، وجميع أرباب الفضائل، ووجوه الدولة، كما أنه رتَّب مجلساً للفقهاء، والمتكلمين، وأهل الجدل، وجميعهم كانوا يشتركون بالمناظرات بين يديه.

وقد بلغت مؤلفاته العشرين مجلداً فقدت جميعها، ولم يبق منها إلاّ «**الرسالة الوزيرية**» في مختصر الفقه، وهذا الكتاب طلب الخليفة الفاطمي السابع «الظاهر لإعزاز دين الله» من الناس أن يحفظوه، ومن القضاة أن يصدروا فتاويهم عنه. هذا ويجب أن لا ننسى أن ابن كِلّس هو صاحب فكرة تحويل الجامع الأزهر إلى جامعة علمية، وقد عرف أنه رتَّب للعلماء وللمدرسين الذين يدرسون فيه الرواتب والأرزاق ، ومعنى هذا كله أنه رعى العلم، والعلماء، وشجَّع الأدب والأدباء، فاتسعت بمساعيه دائرة الثقافة، وازداد الإقبال على العلم. كما أن الشعر لقي على يديه التشجيع، فقد سمح للشعراء بالإنشاد أمامه، وكان يغدق عليهم الهبات، والعطايا.

وتذكر كتب التاريخ أن الخليفة الخامس الإمام العزيز بالله، عاده

أثناء مرضه الأخير، وحزن عندما تحكّم فيه المرض، وله كلمة مأثورة في ذلك تدل على مبلغ مكانته، وحظوته لديه:

«وددتُ انك تبتاع، فابتاعك بمالي، أو تفدى فأفديك بولدي»

توفي «يعقوب بن كلس» سنة ٣٨٠ هـ. في القاهرة «المعزية» واجتمع الناس فيما بين القصر وداره لتشييعه إلى مقره الأخير، وخرج الخليفة العزيز بالله على بغلة، والناس يمشون بين يديه وخلفه، وكان بغير مظلة، والحزن ظاهر عليه، وأقام ثلاثة أيام لا يأكل على مائدته، ولا يحضرها من اعتاد حضورها. وأقام الناس عند قبره شهراً، وغدا الشعراء إلى قبره، فرثاه مائة منهم أجيزوا جميعهم، وهذا يدل على مكانته في نفس الخليفة، وفي نفس معاصريه والشعب عامة

تجدر الإشارة إلى أن ابن كلّس هو الذي أشار على الخليفة الإمام العزيز بالله بإعادة القائد الكبير جوهر الصقلي إلى قيادة الجيوش الفاطمية، وكنا ذكرنا أن الإمام المعز لدين الله قد نحّاه بعد أن حضر من المغرب إلى الديار المصرية، ويجب أن نذكر أنه هو صاحب فكرة التخفيف من سيطرة قبيلة «كتامة» والحد من نفوذها في الجيش الفاطمي.. فكان يقول: بضرورة إدخال عناصر شرقية في جيش الدولة الفاطمية لإيجاد ما يسمّى بالتوازن، وهذا سبّب غضب المغاربة عليه، فتآمروا على قتله أكثر من مرة. من جهة أخرى كان يعقوب على اتصال وثيق بالأتراك، وإنه أدخل العديد منهم في الجيش الفاطمي بواسطة صهره التركي «رشيق العزيزي» الذي تولّى إحدى القيادات في الجيش الفاطمي، وكان له دور فعال في الحروب الفلسطينية، والشامية.

وكان الوزير «ابن كلّس» قد جعل من داره قصراً ينافس قصر الخليفة بما كان يذخر فيه من رياش، وبما يضمه بين جوانبه من حاشية، وخزائن الكسوة والأشربة، والأموال، والتحف. فقد جعل على كل من هذه الأقسام ناظراً خاصاً يديرها، ويشرف على أمورها، كما أنه اتخذ حرساً خاصاً له بلغ عددهم أربعة آلاف من العبيد، والمماليك، وهم الذين كانوا يطلقون عليهم اسم «الوزيرية» كما رتب في داره الحجاب نواباً، وأحلهم أعلى المراتب، وألبسهم الحرير، والديباج، وقلّدهم السيوف. وجعل لهم المناطق، وكان له العبيد،

والجواري، والأطباء الذين كان ينتدبهم للكشف على المرض من هذا الحشد الهائل من الناس، كما وجد إلى جانب هؤلاء عدد من الكتاب، والعلماء، والأدباء، والشعراء، والمتكلمين، وأرباب الصنائع يلازمون الدار، ولكل منهم مكان منفرد، خاص به.

وأقام «ابن كلِّس» في داره عدة مطابخ لتقديم الطعام لهؤلاء جميعاً علاوة على المطابخ الخاصة التي كانت تقوم بخدمته، وخدمة جلسائه وخواصه، وضيوفه.

وفي شهر رمضان كان يقيم مآدب الإفطار للفقهاء، ووجوه الناس، وأهل الستر، والتعفف، ولجماعات كثيرة من الفقراء، والمحرومين.

وخلَّف ابن كلِّس ثروة كبيرة من الأملاك، والضياع، والعين، والورق، وأواني الذهب، والفضة، والجواهر، والطيب، والعنبر، والثياب، والفرش، والكتب، والعبيد، والخيل، والبغال، والإبل، والغلال، والخزائن التي كانت مملوءة بالتحف الغالية. ولكنها قدرت بأربعة ملايين دينار... وهنا لابد من التساؤل.. لمن ترك يعقوب هذه الثروة الضخمة؟ فالتاريخ لم يذكر لنا شيئاً عن أولاده، وأسرته سوى قوله:

إنه كان له إبنتان زوجهنّ إلى كلٍ من «فضل بن الفرات» وإلى القائد التركي «رشيق العزيزي».. وهناك مصدر تاريخي ذكر أن دار ابن كلِّس تحوَّلت بعد وفاته إلى ما يشبه المتحف، ونقلت المكتبة التي كانت فيها إلى مكان آخر.

.. وكان ابن كلِّس بعد أن وطَّد نفوذه، وبسط سلطانه قد نقل دواوين الدولة كلها إلى داره. فجعل فيها مركز الحكم، ومصدر السلطات، أو ما يسمَّى دار الوزارة، وبهذا تكون من ممتلكاته الخاصة، مضافاً إلى ذلك أنه جعل فيها ديواناً خاصاً للخليفة، وأعماله، وشؤونه، وديواناً لقيادة الجيش العليا، وأعمال الحرب، وديواناً للمالية، والخراج، والسجلات، والإنشاء، والمستندات، وكان على كل ديوان رئيس مسؤول يرجع إليه في الأمور الطارئة والمسائل العليا. كما جعل في داره خزائن الأموال العائدة للدولة، والكسوة، وقسمَّها إلى أقسام عديدة، وجعل على كل قسم ناظراً مسؤولاً. أما هذه الدار فكانت تقع في حارة الوزيرية إلى الجنوب الغربي من القصر الصغير، وعلى مقربة من باب الفرج على الخليج.

وكانت مدينة قائمة بذاتها... فيها كل ما يطلبه الشعب من حاجاته ومتطلباته عندما يحتاج إلى ما يتعلق بأموره وحياته. وكنّا ذكرنا أنه كان يقيم في هذه الدار بجناح خاص أعده لنفسه، وفي هذا الجناح كان يخصص أياماً يجتمع فيها مع عامة الناس بحيث كان قد أباح الحرية المطلقة بالدخول لكل من يريد عرض قضاياه، أو مظالمه، أو الاستماع إلى الدروس. وبالإضافة إلى ذلك خصَّص يوماً في الأسبوع للقضاة، وللفقهاء، وللقراء، وللنحاة، ولأصحاب الحديث بالتفرغ لإعطاء الدروس، والوعظ، والإرشاد، للراغبين ، وطلبة العلم... وهذا بالإضافة إلى ما أعده من ندوات في جامع الأزهر. أما مجلس المناظرة بين المتكلمين وأهل الجدل، فقد كان يعقده برئاسته مرة في الشهر. وكان المتكلمون قد ارتضوا به حكماً فاصلاً بينهم.

كما أنه عيَّن في داره عدداً من الكتاب لنسخ القرآن الكريم، وكتب الطب، والفقه، والأدب، وجعل على مقربة منهم فرقة خاصة مهمتها مقابلة، وضبط كل ما يكتبه الكتاب ونتيجة لذلك أصبحت لديه مكتبة عظيمة لم يكن لها مثيل في ذلك العصر.

ومن المشهور عن «ابن كِلّس» ميله إلى الترف والأناقة. فقد كان يكثر من ارتداء الملابس الثمينة. وكان لديه خزانة خاصة للكسوة لها ناظر يشرف عليها، وكانت تضم أفخر الثياب، وأثمنها، وخاصة ما كان منها مصنوعاً وخاصاً بالحفلات، والأعياد. واشتهر إلى جانب كل هذا بحبه للبنيان والعمران، وشق الشوارع، والطرقات، وإقامة الملاعب، والساحات، والحدائق، حتى أنه أنشأ عدداً من المساكن، والمساجد، ودور العلم، وكلها كانت تحمل اسمه.

وكان «ابن كِلّس» يمتلك طاقة كبرى من الذكاء والعبقرية. فإلى جانب خبرته العالية في الشؤون المالية والاقتصادية.. كان عالماً بالإدارة، ومتضلعاً بمعرفة أحوال الريف، والقرى، والزراعة، وأمور الري، وأنواع الغلال الصالحة، وقد ذكر بأنه أجرى إصلاحات كثيرة في هذا الحقل، وأنه لم يكن يسأل عن شيء من هذا إلّا وأجاب عليه، عن يقين، ومعرفة، ودراية.

.. وبفضل سياسته الاقتصادية التي مارسها، وطبقها في الديار المصرية، وبفضل حسن إدارته نعمت الدولة الفاطمية بالهدوء،

والازدهار الاقتصادي، والرفاه المالي. فامتلأت خزائن الدولة بالثروات، حتى أن خراج الدولة وصل في عهده إلى أربعة ملايين دينار. ولكن لابد من القول: بأن البلاد المصرية سنة ٣٧٣ هـ. مرَّت بفترة غلاء، وفوضى ومجاعة، وانتشار الأوبئة نتيجة لانخفاض نهر النيل.. وفي هذا العام قبض الخليفة الإمام العزيز بالله على ابن كلِّس، وحجزه في داره، ومنع الناس من الدخول عليه، وبعد فترة وثق الخليفة من براءته، وافتقد نصائحه، وتدابيره، وحسن سياسته، ولم يجد في تلك الأيام العصيبة، في أنحاء الدولة من يحل محله، وينقذ البلاد مما هي عليه. فما كان منه إلَّا أن أعطاه الحرية، وأعاده مكرماً. فزاد نفوذه، وخاصة بعد أن وجد العلاج الناجع للأزمة، وأقبلت عليه الدنيا من جديد، وهرع الناس يمدون إليه الأيدي بالتحية.

كان ابن كلِّس مسلماً عن حقيقة وإيمان، وكان ديناً ومتمسكاً بأهداب الدين، يطبق قواعد الإسلام، وأصولها، وأحكامها. وكان إسماعيلياً شيعياً، ويتوضح هذا في اهتماماته، ومؤلفاته. فالفقه الجعفري كان بنظره، واعتقاده المادة الوحيدة التي يجب اعتمادها، والأخذ عنها، ولهذا جعل له فرعاً خاصاً في الأزهر بحيث كان فريق من المدرسين، والفقهاء الاختصاصيين يتولون تدريس هذه المادة، وتعميمها على الراغبين. وتعتبر الرسالة الوزيرية المصدر الأول، والأساس، لأحكام، وفروع هذه المادة.

هذا ويجب أن لا ننسى أنه في عهده وفد على مصر نخبة من العلماء من شتى أنحاء الأقطار الإسلامية، فانضووا تحت لوائه، وقد مهَّد لهم سبيل الدرس والتحصيل والتدريس، وأجري عليهم الرواتب والأرزاق ومنهم: «أبو عبيد الله محمد بن جعفر التميمي المغربي» المعروف بالقزَّاز القيرواني «النحوي» وكان يلقب بشيخ اللغة في المغرب وقيل فيه «إن القزَّاز فضح المتقدمين، وقطع ألسنة المتأخرين».

وقال أبو حيان التوحيدي: إنه سأل التميمي الشاعر المصري عن ابن كلِّس فقال:

> ذلك رجل له دار ضيافة ، وله زوَّار، ويعطي على القصد ، والتأميل، والطمع، والطلب، وليس عنده امتحان، فالراحل شاكر..

ومن الشعراء الذين خصَّهم برعايته: **أبو الجرع**، وأبوالرقعمق، **والأنطاكي، والدمشقي**، والرسّي، وابن بشر.. وغيرهم.

وكان ابن كِلّس.. الذي أطلقوا عليه لقب الوزير الأجلّ مثلاً أعلى في الإخلاص للدولة الفاطمية كريم اليد. جزيل العطاء، محسناً للناس، محبا لعمل الخير.. وإذا قلنا إن مائة شاعر رثوه يوم وفاته، أدركنا منزلته، ولكن من هم هؤلاء الشعراء، وأين قصائدهم؟ ... في الواقع لم يبق لنا من تلك الآثار إلَّا قصيدة «أبي الرقعمق» في مدحه:

لم يَدَعْ للعزيز في سائر الأرضِ — عدواً إلَّا وأخمد نارَه
ولهذا اجتباه دون سواه — واصطفاهُ لنفسه واختاره
لم تشيَّد له الوزارة مجداً — لا ولا قيل رفَّعت مقداره
بل كساها وقد تحزمها الدهـ — ـر جلالاً وبهجةً ونضارة

ومنها:

هكذا كل فاضل يده تمـ — ـسي وتضحي نفَّاعة ضرَّارة
فاستجره فليس يأمن إلَّا — من تفيَّأ ظلاله واستجاره

ابن هانىء الأندلسي

هو: «محمد بن هانىء بن محمد بن سعدون الأزدي الأندلسي». ولد في قرية «سكون» من قرى «إشبيلية» سنة ٣٢٠ هـ، أو في سنة ٣٢٦ هـ. على اختلاف الروايتين. يكنّ بأبي قاسم، وبأبي الحسن. ويقال له ابن هانىء الأندلسي تمييزاً له عن الحسن بن هانىء الحكمي الشاعر الذي اشتهر بأبي نؤآس.

قيل إنه من ولد «يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي...» وقيل بل هو ولد أخيه «روح بن حاتم».. ويزيد بن حاتم هذا هو الذي سيَّره أبو جعفر المنصور العباسي في ستين ألف فارس إلى أفريقيا لقتال عمر بن حفص، فوصلها سنة ١٥٤ هـ، وظفر بعمر المذكور وقتله، فلما مات يزيد في شهر رمضان سنة ١٧٠ هـ. استعمل هرون الرشيد أخاه روح على أفريقيا، وكان قبل ذلك نائباً على فلسطين.

ينسب إلى الأزد، وهي قبيلة يمنيّه تجمع فروعاً كثيرة، ولهذا سمَّى قصائده «أزدية يمنيّه» وكان والده هانىء من إحدى قرى المهديّة بأفريقيا الشمالية، وكان أيضاً شاعراً أديباً. فانتقل إلى الأندلس

وأقام في أشبيلية حيث ولد له محمد، فنشأ فيها، وحصل له حظ وافر في الأدب، ونظم الشعر، ومهر فيه، وكان تأدبه في دار العلم بقرطبة، ثم استوطن والده «البيرة»، وكان أيضاً مع مهارته في الشعر عارفاً بعلوم أخرى لا سيما علم الهيئة كما يظهر من قصيدته الفائية، وكان له حذق ثابت في فك المعمّى.

إن أول من اتصل به ابن هانىء هو صاحب أشبيلية. فأعزه وأكرمه، وأقام معه زمناً، ثـم فـارقه بعد أن نقم أهل أشبيلية على الملك، وأساؤوا. القول فيه، وذلك لإقامة الشاعر عنده باعتباره كان يدين بالعقيدة الإسماعيلية، وعندما هموا بقتله أشار الملك عليه بالغيبة عن المدينة مدة ينسى بها خبره، فتركها وعمره يومئذٍ سبعة وعشرون عاماً.. والغريب أنه لا توجد في ديوانه أية قصيدة في مدح صاحب أشبيلية، مع أن ابن هانىء أقام عنده زمناً طويلاً.

بعد ذلك خرج الشاعر إلى عدوة المغرب، فلقَي القائد جوهر الصقلي، وامتدحه، فأعطاه مائتي درهم فاستقلها ، وسأل عن كريم يمدحه فقيل له: عليك بأحد الجعفرين: جعفر بن فلاح. أو جعفر بن علي أمير «المسيلة» وهي من مدن الزاب، وكان والياً عليها مع أخيه يحيى من قبل الفاطميين، فقصدهما ومدحهما بالقصائد الرائعة، فبالغاً في إكرامه، والإحسان إليه، وسارت أشعاره فيهما كل مكـان، وظل عندهما في أرغد عيش، وأعز جانب، فنمي خبره إلى الخليفة الفاطمي الإمام المعز لدين الله فطلبه منهما، فوجهّاه إلـى القيروان في جملة طُرفٍ وتحف بعثا بها إليه.. وهكذا أقام عند المعز لدين الله ، إلى أن كان من أمر قتله.

هذا ومن الجدير بالذكر أنه لقَي المصاعب، والأهوال حتى وصل إلى البلاط الفاطمي المعزي ولهذا يقول:

ولـو عَلِقَتْهُ من أُميّـةَ أحْبُـلٌ	لَجُبَّ سَنامٌ من بني الشعر تامك[١]
ولمّا التَقَتْ أسيافُها ورماحُهـا	شِراعاً وقد سُدّتْ عليّ المسالك[٢]
أجَزْتُ عليها عـابراً وتـركْتُهَا	كأنّ المَنَايا تحتَ جنبي أرائِك
وما نَقَمُوا إلاّ قـديمَ تَشَيُّعي	فنَجّى هِزَبْراً شَدُّهُ المُتَدارك[٣]

(١) جب: قطع. السنام: حدبة الجمل. التامك: المرتفع.

(٢) شراعاً: مسددة.

(٣) المتدارك: المتلاحق.

امتدح ابن هانيء الأندلسي الخليفة الإمام المعز لدين الله بغرر القصائد، وعيون الشعر، فبالغ في الإنعام عليه، وأقام عنده، وهو منعّم مكرَّم إلى أن ارتحل من المغرب إلى مصر، وكان الحظ الذي حصل له عنده أجلّ من أن يوصف. ولم يكن هناك ممدوح أعزَّ شاعره كما أعزَّ الإمام المعز لدين الله ابن هانيء.

ولمَّا بلغ المعز لدين الله خبر وفاته وهو بمصر... تأسَّف عليه وقال:

«لا حولَ ولا قوة إلَّا بالله... هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق، فلم يقدر لنا ذلك».

أما وفاته.. فقد وردت في كتب التاريخ في صور مختلفة... فهناك مصدر يقول:

إنه بينما كان يسير متوجهاً إلى مصر للحاق بالإمام المعز لدين الله.. إذ وجد مقتولاً بجانب البحر.

وقال ابن خلكان:

«لما توجه الإمام المعز لدين الله إلى الديار المصرية «شيَّعه ابن هانىء، ورجع إلى المغرب لأخذ عياله والالتحاق به، فتجهَّز وتبعه، ولمَّا وصل إلى برقة أضافه شخص من أهلها، فأقام عنده أياماً في مجلس الأنس، فيقال إنهم عربدوا عليه. فقتلوه».

وقيل إنه «خرج من تلك الدار وهو سكران فنام في الطريق ،وأصبح ميتاً، ولم يعرف سبب موته، وقيل: إنه وجد في ساقية من سواقي برقة مخنوقاً بتكة سراويله، وكان ذلك بكرة يوم الأربعاء لسبع ليال بقين من رجب سنة ٣٦٢ هـ. وعمره ست وثلاثون سنة، وقيل: إثنتان وأربعون».

هذا وقد اتفق ابن خلدون، وأبو الفداء، وابن الأثير على أن ابن هانىء كان مع الإمام المعز لدين الله عندما توجه إلى مصر، ولمَّا وصل إلى برقة قتل غيلة. أما لسان الدين بن الخطيب فيذكر أن ابن هانيء توجه إلى مصر ليلحق بالإمام المعز لدين الله الذي كان آنذاك فيها، وعند وصوله إلـى برقة «سكر ونام عرياناً وكان البرد شديدا فأفلج»، ويخالف هذه الرواية ياقوت الحموي فيذكر: إنه وجد مخنوقاً بتكة سرواله، ولم يعرف السبب.

من هنا يتبين أن المؤرخين لم يتفقوا على كيفية موت الشاعر، ولكنهم اتفقوا على تاريخ الوفاة، وأكدوا حصولها في برقة.

أما ولادته ومكانها.. فابن خلكان، وياقوت، وصاحب الإحاطة، والمطمح، والمقري، وشذرات الذهب، ووفيات الأعيان، جميعهم لم يتفقوا على التاريخ، كما أنهم اختلفوا في عمره عند الوفاة، فمنهم من قال بإثنتين وأربعين، ومنهم من لم يستطع البت، والتأكيد.

مدح ابن هانىء الأندلسي الإمام المعز لدين الله، وهنأه بالظفر الذي أحرزه على الروم في معركة «المجاز» وهذه المعركة وقعت سنة ٣٥٤ هـ. والذي يهمنا منها أن ابن هانىء أخذ في قصيدته يصوّر نفسه وكأنه في آخر عهد الشباب.. إننا نرى الدموع تترقرق على خديه أسفاً على شباب ولَّى، وغصن أوشك أن يذوي، كما إننا نحسُّ معه بالمرارة والألم لهذا الشيب الذي أخذ في ذلك الوقت يغزو رأسه. إنه يقول:

لا مثلَ وَجدي بريَعانِ الشبابِ وقَدْ ... رأيتُ أُمْلودَ غُصْني غيرَ أُملود
والشيبُ يضربُ في فَودَيّ بارقُهُ ... والدّهرُ يَقدَحُ في شمْلي بتَبديدِ
ورابَني لَوْنُ رأسي إنّه اختلفتْ ... فيه الغمائمُ من بِيضٍ ومن سود

وفي هذا دليل على أن ابن هانىء كان قد جاوز الأربعين عاماً عند موته أما عن والده.. فيقول ابن الأبّار.

هو من إحدى قرى «المهدية» وقد دخل الأندلس، فولد له ابنه أبو القاسم، ويزيد - ابن خلكان على التعريف بهانىء بن محمد بن سعدون الأزدي فيقول:

«وكان هانىء شاعراً أديباً. فانتقل إلى الأندلس حيث ولد له محمد في مدينة أشبيلية، وفي هذا تأكيد على أن والده كان غريباً عندما دخل الأندلس، وأقام فيها لسبب من الأسباب... ولكن ما هو هذا السبب؟ أكان ذلك طمعاً في مركز يشغله، أو رزق يجنيه، وهو الأديب الشاعر.. علماً بأن الأدب في ذلك العصر كان يمكن صاحبه من الوصول إلى المراكز السامية».

وليس غريباً أن تصبو نفس الشاعر الأديب إلى الجاه والثروة، ولكن التاريخ لا يذكر أنه اتصل بأمير، أو مدح وزيراً.. وهذا معناه أنه لم يأتِ طمعاً في ثروة أو جاه، بل جاء ليبلغ رسالته الدعائية الفاطمية، ويبشر بتلك الأفكار التي شغلت المغرب، والمشرق على السواء... هذا ومن جهة أخرى فإننا لا نعلم شيئاً عن حياة ابن هانىء الخاصة، ونجهل فيما إذا كان قد تزوّج، أو أنجب أولاداً.

كذلك فإننا لا نعلم شيئاً عن الأساتذة الذين درس عليهم ابن هانىء

الأدب والشعر، وعندما نستعرض العلماء الذين اشتهروا في عصرهم... يبرز أمامنا: إبراهيم بن عبد الله المعافري من أهل أشبيلية، وكان عالماً بالشعر مطبوعاً عليه. وهناك محمد بن يحيى بن عبد السلام الأزدي من قرطبة، وكان حجة باللغة العربية... فهل درس ابن هانىء عليهما، أو على أحدهما؟، وهناك من يقول: إنه اكتفى بوالده الذي سهر عليه، وأدّبه، وعلمّه.

قال الوزير لسان الدين بن الخطيب:

«كان (ابن هانىء) من فحول الشعراء ، وأمثال النظم، وبرهان البلاغة، لا يدرك شأوه ولا يشق غباره، مع المشاركة في العلوم، والنفوذ في فك المعمَّى»

وقال إنه وصفه، في كتابه «تخليص الذهب المعقود» بما نصه: «العقاب الكاسرة، والصمصامة الباترة، والشوارد التي تهادتها الآفاق، والغابات التي أعجز عنها السِباق»

ونقل عن ابن شرف في مقاماته أنه قال:

وأما ابن هانىء محمد فنجدي الكلام، سردي النظام، وله غزل معرّي لا عذري».

ويقول ابن خلكان:

«وليس في المغاربة من هو في طبقته، لا من متقدميهم، ولا من متأخريهم، بل هو أشعرهم على الإطلاق، وهو عندهم كالمتنبىء عند المشارقة».

ويفخر به أبو الوليد الشقندي في مناظرته لأبي يحيى بن المعلم الطنجي في مجلس صاحب سبتة، وقد أوردها المقري صاحب «نفح الطيب» بكمالها، فيقول:

«هل منكم الذي طار في مشارق الأرض ومغاربها قوله: وهو أبو القاسم محمد بن هانىء الألبيري:

فُتِقَتْ لكم ريحُ الجِلادِ بعنبرٍ ... وأمدَّكُم فَلَقُ الصبّاحِ المسْفِرِ[1]
وجَنَيْتُمُ ثَمَـرَ الوقـائِعِ يـانِعاً ... بالنصرِ من وَرَقِ الحديدِ الأخضرِ[2]

وقد سمعت فائيته في النجوم، ولولا طولها لأنشدتها هنا، فإنها من أحسن ما قيل في معناها». ويذكره الحميدي في سفره فيقول:

محمد بن هانىء شاعر أندلسي كثير الشعر، محسن جواد، إلا أن قعقعة

---

(١) فتق المسك: استخرجت رائحته. الريح: الرائحة. الجلاد: الحرب.
(٢) ورق الحديد: السيوف.

الألفاظ أغلب على شعره، أنشدني له أبو محمد عبد الله بن عثمان بن مروان النحوي قوله في جعفر القائد المعروف بابن الأندلسية:

المُدْنَفَانِ منَ البرِيَّةِ كلُّهَا ... جسمي وطَرْفٌ بابِليٌّ أحوَرُ[1]
والمُشرِقاتُ النَّيِّراتُ ثلاثةٌ: ... الشمسُ والقمرُ المنيرُ وجعفرُ

ومما يستحسن من قوله:

ولمَّا التقَتْ الحاظنُا ووشاتُنا ... وأعلَنَ سِرُّ الوَشْي ما الوَشْيُ كاتم
تأوَّهَ إنْسيٌّ منَ الخِدْرِ ناشِجٌ ... فأسْعَدَ وَحْشيٌّ من السِّدْرِ باغم[2]

ويشبهه محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي المعروف بابن الأبَّار، بأبي تمام بقوله:

هو وأبو عمرو ـ ابن الدراج ـ القسطلي نظيران لحبيب، والمتنبيء.

ومدحه الفتح بن خاقان بقوله:

«هو علقٌ خطير، وروض أدب مطير.. غاص في طلب الغريب حتى أخرج دره المكنون ـ وبهرج بافتتانه فيه كل الفنون، وله نظمٌ تتمنى الثريا أن تتوَّج به وتقلَّد، ويود البدر أن يكتب فيه ما اخترع وولَّد. زهَت به الأندلس وتاهت، وحاسنت ببدائعه الأشمس وزاهت، فحسد المغرب فيه المشرق، وغصَّ به من بالعراق وأشرف، غير أنه نبتت به أكناتها لأنه سلك مسلك المعري وتجرَّد من التدين، وأبدى الغلو فمجته الأنفس، وازعجته الأندلس، فخرج على غير اختيار، وما عرج على هذه الديار، فله بدائع يتحيَّر فيها ويحار، ويخال لرقتها أنها أسحار. فإنه اعتمد التهذيب والتحرير، واتبع في أغراضه الفرزدق مع جرير، وأما تشبيهاته فخرق فيها المعتاد، وما شاء منها أقتاد».

وقال الذهبي:

وأبوه شاعر أديب، وليس يلحقه أحد في الشعر من أهل الأندلس، وهو نظير المتنبيء.

وقال ابن رشيق في: «العمدة في باب اللفظ والمعنى»:

«وفرقه أصحاب جلبة وقعقعة بلا طائل معنى إلا القليل النادر كأبي القاسم بن هانيء ومن جرى مجراه، فإنه يقول أول مذهبته:

أصاخَت فقالت وقْعُ أجردَ شَيظمٍ ... وشامَتْ فقالتْ لَمْعُ أبيض مِخْذَمِ
وما ذُعِرَتْ إلّا لجَرْسِ حُلِيِّهَا ... ولا لَمَحَتْ إلّا بُرىً في مُخَدَّمِ

(١) المدنفان، مثنى مدنف: من ثقل عليه المرض. البابلي: الساحر، نسبة إلى بابل التي ينسب إليها السحر والخمر.

(٢) الناشج: الغاص بالبكاء. السدر: شجر النبق. والبغام صوت الظبية فهي باغم.

وليس تحت هذا كله إلّا الفساد، وخلاف المراد، ما الذي يفيدنا أن تكون هذه المنسوب بها لبست حليها، فتوهمته بعد الإصافة والرمق. وقع فرس. أو لمع سيف، غير انها مغزوة في دارها أو جاهلة بما حملته من زينتها، ولم يخف عنا مراده أنها كانت تترقبه !! فما هذا كله؟».

وينقل الشيخ تقي الدين أبو بكر علي المعروف بابن حجة الحموي في باب تجاهل العارف للمبالغة في الممدوح قول ابن هانىء:

أبَني العَوالي السَّمْهَرِيّة والسّيو ... فِ المَشرَفيّةِ والعَـديدِ الأكثـر
مَنْ منكُمُ المَلِـكُ المُطاعُ كـأنّهُ ... تحتَ السَّوابغِ تُبّـعٌ في حِمْيَر
كلُّ الملوكِ من السروجِ سواقِطٌ ... إلّا المُمَلَّكَ فوق ظهـرِ الأشقر

ويقول:

«قيل أنه لما تجاهل في هذا البيت عن معرفة الممدوح، ترجَّل الجيش بكماله تعظيماً للممدوح إذ هو ملكهم، وهذه القصيدة سارت بها الركبان والحداة تشدو ببلاغتها، وهي أحب من «قفا نبك» في الشهرة لفصاحتها ومطلعها: «فُتِقت لكم ريحُ»... أقول: إن هذه الاستعارات المرشحة، يرشح ندى البلاغة من بين أوراقها، وتتعثر فحول الشعراء في حلبة سباقها».

وقال ياقوت الحموي:

«أبو القاسم الأزدي الأندلسي.. أديب شاعر مغلق... أشعر المتقدمين والمتأخرين من المغاربة، وهو عندهم كالمتنبيء عند أهل المشرق».

وقال يوسف بن يحيى بن الحسين بن المؤيد:

«أبو القاسم... ويلقب أيضاً بأبي الحسن بن هانىء الأندلسي الأزدي المشهور بمتنبيء المغرب شاعر الإمام المعز لدين الله المشهور... فاضل ينظم الكواكب، ويترك الطائرين للحاقه صرعى على المناكب... إن وصف الوغى ترك أبا الطيب كالببغاء، أو أطرى المحبوب ترك حبيباً في صد يعقوب.. أو مدح ذا الكرم الهنيء الشبم... ترك زهيراً يكدح بعلاجه في هرم فهو أشعر المغاربة.. معانيه لكل دمية ـ كالوشاح، بل لكل روضة كالأقاح».

أما أبو العلاء المعري.. فكان إذا سمع شعر ابن هانىء يقول:

«ما أشبهه برحى تطحن قروناً للقعقعة التي في ألفاظه، ويزعم أنه طائل تحت الألفاظ».

وقـد ردَّ ابن خلكان على المعري بقوله: «لعمري ما أنصفه في هذا المقال، وما حمله على هذا إلّا فرط تعصبه للمتنبيء، ولم يكن إلّا من المحسنين في النظم».

ومن المستشرقين الذين ذكروا ابن هانيء في كتبهم «فان كريمر» و «هامر» و «هوارث» وقد ترجم فان كريمر بعض اشعاره إلى اللغة الألمانية. وقال:

«قوة البيان، وكثرة التمثيلات، وجودة الألفاظ التي لا يكاد يقدر عليها من الشعراء إلا قليل، وهي الأوصاف التي نشرت صيته، ورفعت ذكره، وجعلته من الشعراء المحسنين، ولهذا سمّته المغاربة «متنبيء المغرب» فلا شبهة في كونه مستحقاً لهذا الاسم، وديوانه أهم الدواوين عندنا لأنه ذريعة لنا إلى الاطلاع على عقائد الخلفاء الفاطميين ومقاصدهم».

ومهما يكن من أمر.. فابن هانيء عرف بأنه شاعر المعز لدين الله، وله فيه غرر القصائد التي خرجت في بعض الأحيان على المألوف من القول بالنسبة لعامة المسلمين. على أن المطلعين على التأويل - الباطني، والفلسفة الإسماعيلية يرون في أقواله كل ما يتفق وتعاليم هذه الفلسفة.. ومن قوله في قصيدة أنشدها عندما خرج الإمام المعز لدين الله لوداع القائد جوهر الصقلي، عندما توجه إلى مصر لفتحها:

رأيْتُ بعيني فوقَ ما كنتُ أسمعُ ... وقد راعني يوْمٌ من الحَشر أرْوَعُ
غداةَ كأنَّ الأفْقَ سُدَّ بمثِله ... فعادَ غروبُ الشمس من حَيثُ تطلع
تسيرُ الجبال الجامدات بسيَرِهِ ... وتسجُدُ من أدْنَى الحفيفِ وتركَعُ
إذا حلَّ في أرض بناها مَدَائِناً ... وإن سار عن أرض ثَوَتْ وهي بلقع
فسِرْ أيها المَلْكُ المُطاعُ مُؤَيَّداً ... فللدِّينِ والدنيا إليك تَطَلُّعُ
سيعلم مَن ناواك كيف مصيرُهُ ... ويُبْصِرُ مَن قارعتَهُ كيفَ يُقْرَع[1]
إذا صُلْتَ لم يَكرُمْ على السيفِ سيِّدٌ ... وإن قلتَ لم يُقْدِمْ على النطق مِصْقَع[2]

ومن غرر أقواله في الإمام المعز لدين الله:

وطفقت أسأل عن أغرَّ محجَّل ... فإذا الأنام جبلَّة دهماءُ
حتى دفعت إلى المعزِّ خليفةً ... فعلمت أن المطلبَ الخلفاء
جود كأن اليمَّ فيه نفاثة ... وكأنما الدنيا عليه غثاء
ملَكٌ إذا نطقت علاه بمدحه ... خرس الوفود وأفحم الخطباء

ومنها

هذا أمينُ اللّهِ بَينَ عِبادِهِ ... وبلادِهِ إنْ عُدَّتِ الأمناء
للنّاس إجماعٌ على تفضْيله ... حتى استوَى اللُّؤماءُ والكُرمَاء
نَزَلَتْ ملائكةُ السماءِ بنصرِهِ ... وأطاعَهُ الإصْباحُ والإمساء

(١) ناواك، مسهل ناوأك: عاداك. قارعته: ضاربته. يقرع: يغلب بالمقارعة.
(٢) المصقع: الخطيب البليغ.

وقال أيضاً في الإمام المعز لدين الله:

في الغيْثِ شِبهٌ من نَداكَ كأنّما ... مَسَحْت على الأنواءِ منك يَمين
أمّا الغِنى فهو الـذّى أولَيْتَنَا ... فكأنّ جودَك بـالخُلودِ رَهِـين
لو يستطيعُ البَحْرُ لاستَعدَى على ... جَـدْوَى يَدَيـكَ وإنّـهُ لَقَمِين[1]
أمْدِده أو فاصْفَحْ له عَنْ نَيْلِهِ ... فلقد تَخَوّفَ أن يُقـالَ ضَنين

وقال فيه أيضاً:

وما لسماءٍ أن تُعَـدّ نجومُهـا ... إذا عُـدّ آبـاءٌ لـهُ وجُـدود
فأسيافُهُ تلك العواري نصولُها ... إلى اليوم لم تُعْرَفْ لهُنّ غُمود
ومِنْ خَيْلِهِ تلك الجوافِلُ إنّها ... إلى الآن لم تُحْطَطْ لهُنّ لُبود
إمَـامٌ لهُ ممّـا جهِلتَ حقيقـةٌ ... وليس لـهُ مما علمتَ نَـديـد

وقال فيه أيضاً:

والوَصْفُ يُمكِنُ فيهِ إلّا أنّـهُ ... لا يُطْلَقُ التّشبيـهُ والتّمثيـل
والناسُ إن قِيسوا إليه فإنّهُمْ ... عَرَضٌ له في جـوهرٍ محمـول

وقال:

ولقـد رأيتُكَ لا بلَحْظٍ عـاكِفٍ ... فرأيتُ من شِيَمِ النبيّ شُكولاً
ولقد سمعتُكَ لا بسَمعي هيبَةً ... لكنْ وجدَتُكَ جـوهراً معقـولاً

لقد درسنا أقوال النقاد في ابن هانىء، وما وصف به من الغلو والمبالغة في مدح الإمام المعز لدين الله حتى رماه أكثرهم بالخروج على الدين والكفر والإلحاد.

ودرسنا ما قاله هانىء في إمامة المعز لدين الله على ضوء الفلسفة الإسماعيلية، والذي يجب علينا قوله في هذا الصدد: هو أن هؤلاء النقاد لو عرفوا التأويل الباطني حق معرفته، وأصول النظام الفكري الإسماعيلي لأعادوا النظر فيما قالوه.

ومن الثابت، أن بعض الشعراء الفحول، أرسلوا الشعر بممدوحيهم بغية نيل عطاء أو حاجة.. بعكس ابن هانىء فإنه عندما مدح الإمام المعز لدين الله، فإنه كان يعتقد بثواب نياله على فعله، وبأجرٍ روحاني يتقاضاه ثمن طاعته. من هنا نستطيع أن نقول بأن هذه القصائد التي أطلقنا عليها اسم «المعزيات» في ديوانه الماثل للطبع.. هي ثمرات روحية صادقة خارجة من صميمه، وأفكار معبـرة تعبيراً واضحاً عن عقيدته.

---

(١) القمين: الخليق ـ الجدير.

تميم بن الامام المعز لدين الله

تعتبر حياة الشاعر «تميم بن الإمام المعز لدين الله» مقفلة من جميع أبوابها.. فالمراجع التي بين أيدينا لا تقدم إلا النزر اليسير عن حياته، ولا تصف لنا الأيام التي عاشها في المغرب وفي مصر، وقد أجمعت هذه المراجع على أن تميماً هو ابن الخليفة الفاطمي الرابع المعز لدين الله الأكبر ، وأخو الخليفة الخامس العزيز بالله.

هذا ما أورده الثعالبي في التميمة، والباخرزي في الدمية، وابن خلكان في الوفيات، وياقوت الحموي في معجم الأدباء، وابن فضـل في المسالك، والمقريزي في الخطط، وابن تغري بردي في النجوم الزاهرة، والسيوطي في حسن المحاضرة.

ولد تميم سنة ٣٣٧ هـ. في مدينة المهدية بالمغرب الأوسط، وهي المدينة التي بناها «عبـد الله المهدي» سنة ٣٠٨ هـ. وجعلها عاصمة لدولته الفاطمية، وقد ظلت كذلك إلى أن بنى الخليفة الثالث المنصور بالله مدينة المنصورية «أي تونس» سنة ٣٣٧ هـ.

لقد جاءت ولادة تميم بعد القضاء على ثورة الخوارج العاتية بعام واحد... أي في خلافة الإمام المنصور بالله. ومن الطريف حقاً أن أباه المعز لدين الله كني بأبي تميم، ولمّا يولد تميم بعد، ومعنى هذا أن تميماً هو الابن الأكبر للمعز لدين الله، وقد أكدت المصادر أنه كان للمعز لدين الله أولاد آخرون هم: عبد الله، والعزيز، وعقيل، نشأوا جميعهم في قصر الخلافة في المهدية ثم بالمنصورية، جاءوا مع والدهم إلى مصر.

نحن لا نعلم كيف نشأ تميم، كما لا نعلم شيئاً عن أساتذته ومربيه، بالرغم من معرفتنا بشغف جده الإمام المنصور بالله، ووالده المعز لدين الله، بالعلوم والشعر والآداب، ولعل هذه البيئة ـ الثقافية التي أحاطت بتميم أثرّت في تكوينه، وتوجيهه منذ الصغر.

قدم تميم إلى مصر، وهو في سن الخامسة والعشرين، وسكن القصر الكبير في القاهرة، ومن الواضح أن الإمام المعز لدين الله كان حريصاً على ألاّ يعهد إلى تميم بأي عمل من الأعمال، ولا ندري سبب ذلك؟

فعندما هاجم القرامطة مصر سنة ٣٦٣ هـ. للمرة الثانية عهد الإمام المعز لدين الله إلى ولده «الأمير عبد الله» بقيادة الجيوش الفاطمية،

وظلَّ تميم بمعزل عن كل عمل سياسي، بل من المؤكد أنه أهمل إهمالاً شديداً، وعندما مات ولي العهد «الأمير عبد الله» سنة ٣٦٤ هـ. تطلَّع الناس إلى تميم ، ولكن المعز لدين الله صرفها عنه للمرة الثانية، وجعلها في ابنه الثالث «العزيز بالله»... وهنا عرف تميم أن الأمر قد خرج من يده إلى الأبد.

ويذهب ابن الأبَّار إلى القول: بأن الإمام المعز لدين الله لم يولِ تميماً بدعوى أنه لم ينجب ولداً... ولكن الحقيقة غير ذلك فتميم أنجب ولداً هو «علي» وكان الناس ينادونه «بأبي علي»..ومن الواضح أنه بعد إبعاده عن مركز الخلافة استسلم لحكم الأقدار، فلم نسمع عنه بعد ذلك أنه دبَّر فتنة لزعزعة أخيه، أو قام بمؤامرة ضد الدولة. بل على العكس فقد أظهر خضوعه، وأعلن وفاءه، وكان أخوه العزيز بالله يهبه الهبات الكثيرة، ويغدق عليه الأموال الطائلة.

ويروي ابن الأبّار:

«إن الخليفة العزيز بالله وهبه البستان المعروف بالمعشوق بخطة راشدة، وقد عرف فيما بعد باسم «جنّة الأمير تميم» كما جعل له القصور المنيفة على ضفاف بركة الحبش»...

ويزيد ابن الأبّار على ذلك بقوله:

«تنزَّه الإمام العزيز بالله مرة إلى بركة الحبش، فلمَّا قرب من قصور أخيه سأل عن تميم؟ فخرج إليه راجلاً حافياً حتى لقيه.. فسلَّم عليه بالخلافة وقال:

يا أمير المؤمنين قد وجبت على عبدك الضيافة قال: نعم... ودخل معه إلى بستانه وقد أمر بجنينة من الجنائن التي كانت بين يديه، وأقسم على تميم أن يركبها ويسايره، فلما توسط البستان نظر إلى ثمر يلوح الذهب عليه فتعجب منه واستظرفه، ودنا من شجرة فأخذ منها ليمونة واحدة وإذا مكتوب عليها:

أنا الليمون قد غذيت عروقي   ببـرد الماء في حـرزٍ حـريـز

فجعلها في كمه وقال:

هذه ضيافتي عندك، وانصرف إلى قصره، فبعث إلى «جعفر بن قرهب» صاحب بيت المال، فقال له: ما عندك من الدنانير ضرب هذه السنة؟ وكان العام في أوله.. فقال:

مئة وستون ألفاً.. فأمر بحملها من ساعته إلى الأمير تميم مع راشد العزيزي وقال له:

أمير المؤمنين يقرؤك السلام، ويقول لك استعن بهذه على مؤونتك».

وكان تميم كريماً يسرف في الكرم. أمَّا شعره فامتاز بالرقة، والعذوبة، والتشبيهات، الجميلة، وقد نلمس في روحه الشعرية الصنعة المصرية، والذوق الأندلسي الذي صبغ شعره بلونه الجذَّاب، وديباجته الرائعة، وموسيقاه الشجية.

ونرى في شعره أيضاً جلباباً نسجه البيان المغربي الساحر، ودبجه خيال قرطبة واشبيلية وغيرهما من المدن الأندلسية التي نقشت الطبيعة فيها أبدع صورها وألوانها.

مات تميم سنة ٣٧٥ هـ. فيكون قد عمّر ثمانية وثلاثين عاماً، ودفن في القاهرة المعزِّية وفي المقبرة الفاطمية المعروفة «بقبة الزعفران» وكأني به كان يردد وهو على فراش الموت:

إلى كم تهدم الأحداث ركني ... وترميني بجورٍ واعتداء
يعاقبني الزمان بغير ذنبٍ ... وتخذلني يدي وذوو اصطفائي
حياتي بين واشٍ أو حسودٍ ... وساعٍ بي يُسرُّ بطول دائي

كان تميم من عشاق الطبيعة، يعبُّ منها ما يشاء، ويقطف منها الصور والألوان فيضعها على صفحات لوحاته الخالدة.. كقوله:

إذا حان من شمس النهار غروب ... تـذكَّر مشتـاقٌ وحنَّ غـريبُ
وإني لأهوى الريح من كل ما بدا ... بريّاه من ريح الشمال هبوبُ
وما بلدُ الإنسان إلَّا الذي له ... بـه سكن يشتـاقـه وحبيبُ

ويعرِّج تميم على أماكن اللهوَ في ساعات مبكرة ليخلو بمن يحب.. فيقول:

كم بدير القصير لي من بكور ... ورواح على الصبا والعقار
حيث أخلو بمن أحب من القصفِ ... قليل الوقار لست أداري
كم صبوحٍ شددته بغبوق ... وظلام وصلته بنهار
إنمَّا العيشُ أن تروح عشياً ... قاصفاً عازفاً خليع العذار

ومن روائعه وصفه لرحلة قام بها في النيل:

يوم لنا في النيل مختصر ... ولكلّ يوم مسرة قصر
والسفن تصعدُ كالخيول بنا ... فيه وجيش الماء ينحدر
فكأنما أمواجه عكن ... وكأنما داراته سرر

لقد عرضنا أدب تميم وشعره في دراستنا عنه التي صدرت سنة ١٩٨٢ م، وأعتقد أنها تعطي صورة واضحة عن هذا الشاعر المرهف

الذي غنَّى أجمل الألحان، وترك أرق الأغاريد، وذهب من هذه الدنيا وهو يردد:

ولولا احتمال النفس كل مشقة إذن لتساوى في العلا الحرُّ والعبدُ
كذا السيف لا تستخبر العين عتقه إذا لم تفارقه الحمائل والغمد
وليس لكل الناس يُستحسن الغنى كما ليس في كل الطلى يحسنُ العقد

الخليفة الأديب

لم يعرف التاريخ الإسلامي أسرة كان لها من الأثر في الحياة الفكرية ما للأسرة الفاطمية... والإمام العزيز بالله أحد فروع هذه الأسرة كان ممن يمتلكون ناصية الأدب والشعر. فقد روى الثعالبي في أجنحة «اليتيمة»، وابن تغري بردي في كتاب النجوم الزاهرة قوله وهو يذكر أحد أولاده في عيد من الأعياد:

نحن بنو المصطفى ذوو محنٍ يجرعها في الحياة كاظمنا
عجيبة في الأنام محنتنا أولنا مبتلى وخاتمنا
يفرحُ هذا الورى بعيدهم طرّاً وأعيادنا مآتمنا

ففي هذه الأبيات تظهر شاعرية الإمام العزيز بالله الفياضة الزاخرة بالعاطفة الصادقة المعبرة عن ألم دفين، وحزن كمين. ويبدو أن حزنه هنا لم يقتصر على فقده لولده فحسب، بل يتجاوزه إلى إعلان حزنه على ما أصاب أهل البيت من محن وكوارث حتى أصبحت أعيادهم مآتم. ومن شعره أيضاً:

ولمّا رأيت الدين رثت حباله وأصبح ممحُّو الضيا والمعالم
وأصبحت الأشرار من كل أمةٍ تسوم عباد الله خزم المخاطم
وتحكمِ في أموالها ودمائها بغير كتاب الله عند التحاكم
غضبتُ لدين الحق غضبة ثائرٍ غيورٍ عليها مانع للمحارم
وسيرت نحو الشرق بحر كتائبٍ تموجُ بأبطالٍ رجال قماقم
يقودون جرد الخيل تخطر بالقنا وبالمشرفيات الرقاق الصوارم
أنا ابن رسول الله غير مدافعٍ وأشرف خلق الله من عهد آدم
لي الشرف العالي الذي خضعت له رقاب بني حواء من كل عالم
بنا فتحت أبواب كل هدايةٍ ومنّا بحمد الله خير الخواتم
فقل لبني العباس والقول واضح بأنهم أسرى بأيدي الأعاجم
لقد غصبوا من آل مروان حقنا وميراثنا سحقاً لظالم ظالم
ولم يحفظوا فينا وصية أحمد ولا ما تداعوا من مناسب هاشم
سنسقيهم كأساً كما قد سقاهم أوائلنا والله أعدل حاكم

ويروى:

أن منصور بن مقشّر النصراني طبيب الإمام العزيز بالله اعتلّ سنة

٣٨٥ هـ. وتأخر عن الركوب مع الخليفة. فلمّا تماثل من علته كتب إليه رقعة بخطه جاء فيها:

«طبيبنا سلمه الله».

سلَّم الله الطبيب، وأتمَّ النعمة عليه.. وصلت إلينا البشارة بما وهبك الله من عافية. والله لقد عدل عندنا ما رزقنا نحن من الصحة في جسمنا. فتممَّ الله عليك النعمة، وكمل لنا صحتك، وعجل بها، ولا أشمت بنا فيك عدواً، ولا حاسداً، وردَّ كيد من يريد الكيد في نحره، وابتلاه بما لا طاقة له بعد الكفاية فيك، واقالتك العثرة، ورجوعك إلى أفضل ما عودك، وصلَّى الله على خيرة خلقه النبي محمد (ص)» .

ولم أجد أبلغ من قصيدة الإسكندراني المعروفة «بذات الدوحة» في مدح الخليفة الإمام العزيز بالله.. ففيها التعبير عمَّا كان يتمتع به الإمام الفاطمي من التقدير. فهو يقول:

إلى أن تسامت بالعزيز ولم تكن ... بغير أبي المنصور لو كان يلثقُ
فباهت على الأيام أيامه التي ... تكاد لها صمُّ الجنادل تورق
سحائب جود لا يغيب غمامها ... وبحر سماحٍ بالندى يتدفق
لئن فقد الناس المعز لدينه ... فقد قام بالدين العزيز الموفق
تجددت الدنيا علينا بيمنه ... فلا العيش مذموم ولا الدهر أخرق
ولا الجود ممنوع ولا المجد خامل ... ولا العرق مقطوع ولا الفكر مطلق
تضوَّع نشر العدل في كل بلدةٍ ... ونشر ثناء الطيب للطيب يعبق
فضائل مولانا العزيز جليلة ... إذا عُدَّ فضل فهو بالفضل يسبق
عليه صلاة الله ما لاح كوكب ... وما فاح في الأيك الحمام المطوَّق

لقد عرف عن الإمام العزيز بالله سعة صدره، وطيبة قلبه، وعفوه عند المقدرة، وقد تجلَّى ذلك في مناسبات عديدة. ويروى: أن الشاعر الحسن بن بشر الدمشقي هجا الوزير الأول يعقوب بن كلِّس بقوله:

قل لأبي نصر صاحب القصر ... والمتأتي لنقض ذي الأمر
إنقض عرى الملك للوزير تفز ... منه بحسن الثناء والذكر
وأعطِ أو امنع ولا تخف أحداً ... فصاحب القصر ليس في القصر
وليس يدري ما يراد به ... وهو إذا ما درى فما يدري

فشكاه الوزير إبن كلِّس إلى الخليفة العزيز بالله. فأجابه:

«هذا شيء اشتركنا فيه في الهجاء، فشاركني في العفو عنه، ثم إنه عاد فهجاه، ثم عرّض بالفضل بن الفرات قائلاً:

تنصَّر فالتنصر دين حقٍ ... عليه زماننا هذا يدلُّ

وقـل ثــلاثــة عـزُّوا وجلُّـوا وعُطِّلَ ما سواهم فهو عطـلُ
فيعقوب الوزير أب وهذا العزيز ابــن وروح القـدس فضـل

فشكاه الوزير ابن كِلّس ثانية إلى الخليفة العزيز بالله، ولكنه عفا عنه أيضاً

ووصلت إلينا رسالة كتبها الخليفة الإمام العزيز بالله إلى أحد عماله في مصر يبشره بالفتح حين خرج إلى قتال القرامطة سنة ٣٦٧ هـ. وفيها الكثير من الخصائص الفاطمية سواء من حيث العقائد أو من حيث الأسلوب. وهي:

«من عبد الله، ووليه نزار، أبي المنصور العزيز بالله أمير المؤمنين إلى... الحسين بن القاسم.

سلام عليك، فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو، ويسأله أن يصلّي على جده محمد نبيه، ورسوله (ص) وعلى الأئمة من عترته الأبرار الطاهرين المطهّرين، وسلم تسليماً.

أمَّا بعد: فالحمد لله الملك العظيم العليم الحليم، ذي الطول الكريم.. والمنّ الجسيم والعز المديد، والمحال الشديد، وليّ الحق ونصيره، وماحق الباطل ومبيره، المتكفل بالنصر، والتمكين، والتأييد، والتحصين لأوليائه المتقين، وخلفائه المصطفين الذابين عن دينه، والقائمين بحقه، **والدالين على توحيده.** الحاكم بإعلاء كلمتهم، وإفلاج حججهم، وظهورهم على أعدائه المشاقيّن له، الضالين عن سبيله، الملحدين في آياته، الجاهدين لنعمائه، المنزل رجزه، وقوارع بأسه على من عصاه فحاده، وصدَّ عنه فناده، القاضي بالعواقب الحسنى والفوز، والنعمى لمن أسلم وجهه له، وتوكل عليه في أمره، وفوَّض إليه حكمه.. كل ذلك فضلاً منه، وعطاءً وعدلاً، وقضاء فضلاً، وهو الحاكم العادل الذي لا يظلم الناس شيئاً، ولكن الناس أنفسهم يظلمون...»

ثم يقص الامام على نائبه خبر القائد التركي وكيف تمادى في غيه وكيف استمر الإمام مع ذلك «مواصلاً إلى اللعين الاعذار ومتابعاً الإنذار» إلى أن يقول:

«... فبعدما طمع قادة الحين الغالب، والقدر الجالب، وما أراد الله عز وجل من استدراجه إلى موضع نكاله، ومنهل وباله، ورحل عن «بيسان» رحيل من استعجلته البليّة، واستدعته الرزيّة. فحل بموضع يعرف «بكفر سلام» كافراً بحدود الإسلام، متجرئاً على الله، محارباً لنجل نبيه عليه

السلام، وأقام بها متلبداً في حيرته، متردداً في سكرته، ثم استجره شؤمه، وقاده حينه، ولؤمه إلى أن رحل فنزل «بكفر سابا البريد» فأنبأه اسمها بما حلّ به من السبي المبيد، والخزي الشديد، ثم لم يلبث أن ضرب مضاربه المأكولة، ونصب أعلامه المخذولة، وأقام صفوفه المغلولة، وظهرت آلة الحرب إقداماً، وأضفى عن اللقاء إحجاماً..

تدمير المكتبات الاسماعيلية

إن العهد الزاهر الذي نعمت به الديار المصرية في عهد الخليفتين المعز لدين الله والعزيز بالله قد لا تفيه حقه صفحات عديدة، فالآثار لا تزال باقية وشاهدة على تلك الحضارة الإسلامية التي أدخلها الفـاطميون على مصر، ولعل أبرزها المكتبة الفاطمية التي خلفها الأئمة الفاطميـون والتي قيل فيها إنه لم يكن في البلاد الإسلامية دار للكتب أعظم من تلك التي كانت في القصر الكبير في القاهرة «المعزية» ومن عجائب هذه المكتبة أنه كان فيها ألف ومئتا نسخة من تاريخ الطبري وحده. ومن الثابت أنها كانت تشتمل عـلى الف وستمائة الف كتاب.. يؤيد ذلك ما ذكره القاضي الفاضل «عبد الرحيم بن علي» بأنه لمّا أنشأ المدرسة الفاضلية بالقاهرة جعل فيها مئة ألف مجلد من كتب القصر الفاطمي. ويروى بأن عدد الخزائن المعدة للكتب في القصر كان أربعين خزانة لا يصل إليها أحد، عدا خزائن القصر البرّانية، وكانت تشتمل على مجلدات في كل فن من فنون العلوم الإسلامية، فمن فقه على سائر المذاهب إلى نحو ولغة، وكلام، وحديث، وتاريخ، وفلسفة، وكيمياء، وطب، وروحانيات.

قيل مرة في مجلس العزيز بالله بأن أحدهم ذكر كتاب «العين» للخليل بن أحمد فأمر خزّان كتبه، فأخرجوا من الخزائن نيّفاً وثلاثين نسخة منها نسخة بخط الخليل نفسه، وحمل إليه رجل نسخة من كتاب الطبري اشتراها بمئة دينار. فأمر خازنه فأخرج له من الخزانة ما ينيف عن العشرين نسخة منها نسخة بخط ابن جرير نفسه وهكذا كانت خزائن الكتب في القصر الفاطمي، ولعلنا نستطيع أن ندرك من هذه اللمحة القصيرة مدى عناية الخلفاء الفاطميين باقتناء الكتب في كل فن، وحرصهم على أن تجمع خزائنهم الطرائف والنفائس في كل علم وفن، وذلك تشجيعاً للعلم وللعلماء، ولا غروّ في ذلك فمذهبهم الديني يدعو إلى العلم والعمل، وإلى الاستزادة من جميع العلوم

والآداب، وذلك حتى يتسنى لدعاتهم مناقشة خصومهم ومكاسرتهم بالأدلة العلمية، وأن يتخذوا من سعة آفاقهم. ومداركهم. وثقافتهم مجالاً لكي يبزوا غيرهم.. ولكن أين ذهبت تلك الذخائر الثمينة، وأين ضاع ذلك التراث الذي خلفه الفاطميون.

فالتاريخ الذي لا يرحم دوَّن على صفحاته ما يلي:

إن صلاح الدين الأيوبي.. عندما انتهى إليه أمر الديار المصرية بعد سقوط آخر خليفة فاطمي أصدر أوامره إلى الجند وإلى عامة الناس بأن يتصرفوا كما يشاؤون بالمكتبات الفاطمية.

وهكذا فإن الأيدي الأثيمة، امتدت إلى هذه الخزائن، وأخذت تعبث بتلك النفائس، فحمل قسم كبير منها، وألقي في نهر النيل حتى قيل إن مياهه اصطبغت باللون الأسود، كما أن مجموعات منها حملت إلى مكان قرب الأهرام حيث أحرقت، وهذا المكان يطلق عليه حتى اليوم اسم «تل الكتب». وفعل الصليبيون فعل التتر عندما أقدموا على العبث بمكتبة طرابلس الشام الفاطمية التي أسسها القاضي علي بن عمَّار.. وقد ثبت أنهم نقلوا أكثر كتبها إلى أوروبا.

ويجب أن لا ننسى الأتراك فقد فعلوا كما فعل التتر والصليبيون. وإذا كان هؤلاء غرباء عن الاسلام. فإن صلاح الدين الأيوبي هو من المسلمين... وبعد هذا فلا ندري ماذا نقول؟... إننا نترك الحكم للتاريخ وللمؤرخين ـ المنصفين. إنها جناية كبرى على الفكر والأدب.. فكثير من العلماء والفلاسفة والمفكرين والشعراء طمست أسماؤهم، وضاع نتاج أفكارهم.

.. وحبذا لو أن الأمر اقتصر على هذا وسلم لنا بعض من كتب الشعر، والأدب واللغة والحكمة، والطب، والكيمياء، والفلسفة.. ولكن ما كل ما يعلم يقال.

لقد عرفت مصر الفاطمية، جملة من المؤرخين كتبوا تاريخ الفاطميين، وعبروا عن الوقائع والأحداث التي وقعت في ذلـك العصر.. ومنهم:

«أحمد بن عبد الله بن أحمد الفرغـاني»... ولد في مصر سنـة ٣٢٧ هـ. وكان والده مؤرخاً وصديقاً لابن جرير الطبري. ومن كتب هذا المؤرخ: سيرة كافور الإخشيدي، وسيرة العزيز بالله الفاطمي.

توفي في القاهرة المعزية سنة ٣٩٨ هـ. ولكن كتبه ومؤلفاته فقدت كما فقد التراث الفاطمي.

وشهد العصر الفاطمي أيضاً المؤرخ الكبير «الحسن بن إبراهيم الليثي» المعروف «بابن زولاق» وقد أخذ عن هذا المؤرخ كل من جاء بعده من المؤرخين. أمَّا مكانته الاجتماعية فكانت على درجة عالية لأنه اعتبر من أعيان مصر. ومن كتبه: سيرة محمد بن طغج الإخشيدي وكتاب أخبار سيبويه المصري، وسيرة القائد جوهر الصقلي، وسيرة المعز لدين الله، وسيرة العزيز بالله، وكتاب التاريخ الكبير على السنين، وكتاب خطط مصر... وهذه الكتب ضاعت، وأتلفت عند حدوث المحنة الكبرى، ولم يبقى منها إلَّا شذرات متفرقة في الكتب.

وممَّا تجدر الإشارة إليه أن المؤرخين الذين جاءوا بعد ابن زولاق، وتحدثوا عن مصر أخذوا الكثير عنه كابن خلكان، والنويري، والعسقلاني، والسيوطي، وابن دقماق، وأبو المحاسن، ابن تغري بردي - وياقوت وغيرهم. وهؤلاء كانوا يطلقون عليه إسم «مؤرخ مصر» وقد تميزت كتبه التاريخية بصدق الأخبار، والرواية الصحيحة.

ومن مؤرخي ذلك العصر الأمير «المختار عز الملك محمد بن أبي القاسم عبيد الله بن أحمد» المعروف بالمسبحي.. الحراني الأصل، والمولود في مصر سنة ٣٦٦ هـ.

من المعروف عنه أنه اتصل بخدمة الإمام الحاكم بأمر الله، وهناك من يقول إن أول اتصال له كان بالخليفة الخامس العزيز بالله، وفي عهد الحاكم بأمر الله عُين أميراً على «البهنسا والقيس» من أعمال صعيد مصر، ثم ولي بعد ذلك ديوان الترتيب. وينقل عنه: أنه كان له مع الإمام الحاكم بأمر الله مجالس ومذكرات أودعها كتابه «التاريخ الكبير» وفيه أخبار مصر، ومن حكمها من الولاة والأمراء والخلفاء وما فيها من العجائب، والأبنية، واختلاف أصناف الأطعمة، وفيه وصف نيلها، وأشعار الشعراء وأخبار المغنيين، ومجالس القضاء، والحكام، والأدباء، والمتغزلين وغيرهم، وهو في ثلاثة عشر ألف صفحة.

ولم يكن المسبحي يهتم بالتاريخ السياسي فحسب.. بل أراد أن يجعل من كتابه موسوعة عامة عن مصر من الناحية السياسية، والاجتماعية، والأدبية، والاقتصادية.

ولم يكن المسبحي مؤرخاً وحسب، بل كان أديباً ذواقة في ميدان الأدب، وله مؤلفات في هذا المجال منها:

كتاب «**التلويح والتصريح**»في معاني الشعر، وله كتاب «**الشجن والسكن**» في أخبار أهل الهوى، وما يلقاه أربابه.. وله كتاب «**جونة الماشطة**» ويتضمن الأخبار والأشعار، والنوادر التي لم يتكرر مرورها على الأسماع، وله كتاب، «**الراح والارتياح**» في وصف الشراب وآلاته والندامى، واختيار أوقاته، وذكر الزهور، والرياض، والثمار، والأشجار. وله كتاب «**الفرق والشرق**». وله كتاب «**الطعام والأوام**» في صفة ألوان الطعام، وما يقدم على الخوان... إلى غير ذلك من الكتب التي أتلفت، ولم يبق إلاَّ اسمها. وممَّا تذكره كتب التاريخ: أن المسبحي كان شاعراً رقيق العاطفة، دقيق الحس.. من شعره في رثاء أم ولده:

ألاَ في سبيل الله قلبٌ تقطعا وفادحةٌ لم تبقِ للعين مدمعا
أَصَبْراً وقد حلَّ الثرى من أودّه فللّه همٌّ ما أشدُّ وأوجعا
فياليتني للموت قُدِّمْتُ قبلها وإلاَّ فليت الموت أذهبنا معا

ومن المؤرخين النابهين في ذلك العصر... محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي.. خدم في القضاء... وأوفد سنة ٤٤٧ هـ رسولاً من قبل الفاطميين إلى القسطنطينية للاجتماع بالأمبراطورة، «تيودورا»، وإصلاح ما فسد، ولكنه لم يوفق.. له مؤلفات عديدة في التاريخ.. أهمها:

تواريخ الخلفاء، وخطط مصر.. وغيرهما.. ولكن هذه الكتب أتلفت، ولم يبق منها سوى الاسم ومن المؤرخين المصريين أيضاً «ابن البطائحي» الذي أتلفت كتبه أيضاً.. وهنا لا أجد أبلغ من قول الشاعر «عُمارة اليمني» وهو يرثي الدولة الفاطمية، ويبكي ذلك العصر الزاهر الذي لم ترَ مصر البتة مثله يقول عمارة:

أبكي على ما تراءت من مكارمكم حال الزمان عليها وهي لم تحلِ
دار الضيافة كانت أنس وافدكم واليوم أوحش من رسم ومن كللِ

وفطرة الصوم إذ أضحت مكارمكم تشكو من الدهر صيفاً غير محتمل
وكسوة الناس في الفصلين قد درست ورثَّ منها جديد عندهم وبلي
وموسم كان في يوم الخليج لكم يأتي تجملكم فيه على الجمل
وأول العام والعيدين كم لكم فيهن من وبل جود ليس بالوشل
والأرض تهتز في يوم الغدير كما يهتز ما بين قصريكم من الاسل
والخيل تعرض في وشيٍ وفي شيةٍ مثل العرائس في حليٍ وفي حلل

الطب: ظهر في ذلك العصر عدد من الأطباء الأعلام. فالطب كان يعتبر علماً قائماً بذاته، أو بلغة أصح هو فرع من الفلسفة وكان الفاطميون قد قربوا الأطباء، وأغدقوا عليهم الهبات والعطايا، وخصصوا لهم المرتبات الشهرية، وكان من مشاهيرهم «**منصور بن مقشّر**» النصراني الذي وصف بتفوقه في مهنته، وعلو كعبه في وصف العقاقير للخليفة الإمام العزيز بالله وقد منحه ثقته، وجعله طبيبه الخاص. ومن مشاهير الأطباء أيضاً «**موسى بن اليعازار**» الذي كان طبيب الإمام المعز لدين الله، ومن المعروف عنه أنه كان عالماً بتركيب الأدوية، وطبائع المفرادت. وله كتاب «**شراب الأصول**».

وفي عهد الخليفة الإمام العزيز بالله، وفد على مصر الطبيب «**محمد ابن أحمد بن سعيد التميمي**» وهو من بيت المقدس، وكان مشهوراً بمعرفة خواص العقاقير، وتركيب الأدوية، وقد التقى بأطباء مصر وحاضرهم، وناظرهم، واختلط بهم، وخاصة بأولئك المغاربة الذين جاءوا في صحبة الخليفة الإمام المعز لدين الله.

وقد صنف هذا الطبيب كتاباً كبيراً في عدة مجلدات بناءً على اقتراح الوزير يعقوب بن كلِّس سماه: «**مادة البقاء، بإصلاح فساد الهواء، والتحرر من الأوباء**» ولكن هذا الكتاب فقد مع ملايين الكتب الفاطمية بأمر من صلاح الدين الأيوبي.

ومن أشهر أطباء مصر في ذلك العصر **سلامه بن رحمون**، وكان يهودياً مصرياً، و «**أبو الحسن علي بن رضوان**» وهو مصري أيضاً. ومن الجلي الواضح أن هذا الطبيب قد تفوق على غيره من الأطباء المعاصرين له ممَّا جعل الخليفة الإمام العزيز بالله يوليه عطفه، وتقديره. هذا فضلاً عن أن الحاكم بأمر الله قد استخدمه. وجعله رئيساً للأطباء. ولهذا الطبيب مؤلفات قيمة، ومباحث دقيقة في

الطب، والمعروف أنه كتب عن جالينوس، وشرح وترجم بعض كتبه، ولكن لم يبق من تلك الكتب إلّا الأسماء فقط، وقد ذكر أن البيروني زار مصر بغية الاجتماع والاختلاط به للمناظرة، والمناقشة في المسائل الطبية. وممن نبغ في الطب في ذلك العصر. طبيب يهودي اسمه «**أبراهم بن الزفان**» و «**أبو كثير بن الحسن بن إسحق**». وهناك آخر مشهور اسمه: «**أبو جعفر يوسف بن حسداني**» ولهذا الطبيب كتاب شرح فيه مؤلف القبراط المسمَّى «**الإيمان**».

الحياة الاجتماعية

مما لا ريب فيه... أن الحياة الاجتماعية في عهد الفاطميين تستحق العناية والدراسة، وقد يرى الباحث المتعمق أن هذه الحياة قد تطورت في عهد الخليفة المعز لدين الله، وخاصة بعد قدومه إلى مصر. فهذا الخليفة الكبير وضع أسس الحياة الاجتماعيـة، وأدخل في نطاقها المواسم، والأعياد، والاحتفـالات الدينيَّـة، والقوميَّـة، وما صحبها من مظاهر النعيم والثروة.

ونحن لا نبالغ إذا قلنا إن خزائن الدولة في عهده قد امتـلأت بالأموال، ويرجع ذلك إلى تنظيم الاقتصاد، وإلى تطبيق الأنظمة المالية الدقيقة المتطورة التي سنها هذا الخليفة العلامة وقصد بها تنمية موارد الدولة، وقد عرف أنه رتَّب أمور الدعوة الدينيَّة أيضاً وخاصةً ـ مواردها المالية التي تأتي من الزكـاة وتبرع الأتبـاع والمستجيبين والأنصار.. وهذه الأموال كانت تدفع إلى صندوق الإمام المعز لدين الله الخاص، ولكنه كثيراً ما كان يضيفها إلى واردات الدولة العامة ويأمر بإنفاقها في الأمور والوجوه التي يعود نفعها على الدولة الفاطمية، وتضخمت هذه الموازنة في عهده ـ وفاضت بالأموال حتى أصبحت الدولة الفاطمية من أغنى دول العالم، وقد تجلَّى ذلك في الأموال التي كان ينفقها الإمام المعز لدين الله على الحفلات العامة والمواسم والأعياد.

قرر الإمام المعز لدين الله سنة ٣٥١ هـ. ختان أبنائه وهو بالمغرب، فأشرك الرعية في هذه الفرحة، وحتَّم عليهم تقديم أبنائهم الصغار ليختتنوا، ويأخذوا لقاء ذلك من الدولة تعويضاً معلوماً، فتدفقت الأموال على الأطفال من مدينة المنصورية في المغرب إلى الولايات الأخرى، وخوَّل الإمام المعز لدين الله الولاة دفع الهبات، والنفقات،

والهدايا للصغار، فكان يعطي الطفل كسوة حسنة، ومبلغاً من المال يتراوح بين مائة وخمسين، ومائتي درهم وروي: أنــه اختتن في المنصورية وحدها ربع مليون من الصبيان.

ومما يدل على ضخامة هذه النفقات في هذا الختان.. أن المعز لدين الله أرسل إلى صقلية وحدها خمسين حملاً من المال، كل حمل مقداره عشرة آلاف دينار. هذا غير الكساء، وقد تمَّ ذلك في برقة، وطرابلس وتونس، والجزائر، ومراكش.

ويحدثنا النعمان في كتابه «المجالس والمسايرات» عـن ذلك فيقول:

«لمَّا أراد المعز لدين الله أن يطهّر أولاده: عبد الله، ونزار [أي العزيز بالله] وعقيل.. تقدم إلى خاصته، وأوليائه، وسائر جنده، وعبيده، وجميع رجاله، وكـل من في الحضرة من سـائر التجـار، والصنَّاع، وعـامة الـرعية بالمنصورية، والقيروان، وجميع أهل مدن أفريقيا الشمالية وكورها من حاضر وباد، وأمر بالكتب إلى العمَّال من لدن برقة وأعمالها إلى سجلماسة وحدودها، وما بين ذلك وما حوته مملكته.إلـى جزيرة صقلية ومن بها من طبقات الناس من بدوٍ، وحضر، أن يتقدموا في طهور أبنائهم يوم الثلاثاء، أول يوم من شهر ربيع الأول سنة ٣٥١ هـ. إلى انقضاء شهر، وأمر أن يحمل إلى كل بلدٍ من هذه البلدان من الحضرة أموال وخلع تفرَّق على كل من طهَّر من أبناء المسلمين من خاص وعام، فكان الذي رأيناه قد حمل إلى صقلية من المال خمسين حملاً سوى الخلع، ومثل ذلك ونحوه إلى كل عامل ليفرقه على أهل ولايته.

وتقدَّم في طهور ولده، وجلس بنفسه لطهور سائر أهل الحضرة، وما يليها من البوادي، وأمر بضرب سرادقات بساحة قصر البحر حـول الماء، وبإدخال الصبيان مع من أراد الدخول من آبائهم، وأمهاتهم، وعبيدهم، وخدمهم، ومن أرادوا أن يطهروه من عبيدهم، واعتزم أن يصل الطهور أيام هذا الشهر كله.

وكان يجلس من وقت الغداة فلا يزال جالساً، وهم يطهرون، ويمرون بين يديه فـيحيون ويوصلون لا يخيب من ذلك منهم شريف،ولا مشـروف، ولا حر، ولا عبد، ولا قريب، ولا بعيد، ولا حاضر، ولا باد.. والختَّانون في السرادقات على الكراسي، وبين أيديهم المنابر لجلوس الصبيان، والقوم يمسكونهم في حجورهم، ويذرون الذروات المسكة للدم على اختانهم، ويقفون بالبخور وماء الورد على رؤوسهم، ويرشون على وجوههم، لما يعتـريهم من الروع، وكـانت هناك فـرق تعـزف، وتلعب، يلهـونـهم، ويصـحبونهم إلى منازلهم بعد انتهاء عملية الاختتان.

وأكثر الناس الخوض والحديث في ذلك، وتعاظموه، وأجمعوا في ابتداء الأمر أن ذلك لا يتم، وأن الأموال لا تنهض به، وذكروا لكثرة ما رأوه من الخلائق أن ذلك لو وصل حولاً لما انقطع الناس، ولا أتى على آخرهم فيه..

وكتب النعمان يقول: «ممن تعاظم ذلك، وتداخله الاشفاق»

كل هذا يدل على ضخامة الأموال، ووفرتها في خزائن الدولة، ويدل أيضاً على كرم الإمام المعز لدين الله، وجوده، ورغبته في إسعاد شعبه وترفيهه، وقد حقّ له أن يفخر على معاصريه من الملوك. والخلفاء، والأمراء الذين كانوا ينفقون الأموال في اللهو والمجون.

ويضيف النعمان:

«كانت أيام هذا الشهر أيام أعياد ومسرات، وأفراح، وهبات في كل وجه وجهته من مملكة أمير المؤمنين من بدو وحضر، وقد عمهم فضله، وغمرهم كرمه، وارتفق به اغنياؤهم، وانتعش له فقراؤهم، ودخلت المسرة على كل بيت منهم، وقد كان أثراً جميلاً لم يسبقه إليه أحد من قبل، ولا ظن أن احداً يتسع له مثله»

وهكذا انتشر الثناء عليه، والدعاء له على ألسن العامة، والخاصة، المخالفين والمؤيدين، لما ظهر من فضله على الفقراء والمساكين، إذ كان أحدهم يأتي بالثلاثة، والأربعة، أو ربما أكثر من ولد فيأخذ لكل واحد منهم صلته وحقه.

وهذا إن دلَّ على شيء، فإنما يدل على حب الإمام المعز لدين الله لرعيته، وحدبه عليها، ومتانة ماليته، ورسوخ اقتصاد دولته، والتفاف القلوب حوله. وليس هذا بالغريب على هذا الخليفة الكبير الذي خبره الشعب، وعرفه مهتماً برعاياه، وأنصاره. فكثيراً ما كان يقدم إلى الكثير منهم، والمستحقين الأموال الوفيرة، ويشفق على فقرائهم، ويساعد المرضى، والمحتاجين، ويدخل السرور والطمأنينة على قلوبهم. وكثيراً ما كان يبني الدور للفقراء منهم، ويدلل في كل المناسبات عن انتسابه للرسول الكريم. وعن ورعه، وتقواه، وإيمانه بوطنه، وبأمته.

أمَّا ثروة بلاده، واقتصادها، فكانت في درجة عالية من الوفر. يدلنا على ذلك الإعانة العاجلة التي أرسلها من المغرب إلى مصر عندما عصفت بها المحنة.. وكان القائد، «جوهر الصقلي» فيها.. فأرسل إليها الحبوب، والغلال، والأموال، وظلّ يمدها حتى استقامت أمورها، وخفّت محنتها.

ومن جهة أخرى.. فإن ما كان ينفقه على حملاته وفتوحاته يعطي الدليل على الثراء، والأموال الكثيرة المتدفقة على خزانة الدولة، وعلى التنظيم المالي الذي ابتكره الإمام المعز لدين الله.

ومن الجدير بالذكر.. أنه استطاع توجيه الحرب كما يريد دون عجز. فذهبت جيوشه تغزو بلاد المغرب فتصل إلى شواطىء الأطلسي.. ثم تتابع الضربات، وتهدد الأمويين في عقر دارهم، كما تقف بالمرصاد للبيزنطيين، فتهزمهم في صقلية شر هزيمة، وتستولي على بعض مدن إيطاليا الجنوبية، حتى أن أسطولها استطاع أكثر من مرة أن يصل إلى سردينيا.

ويجب أن لا ننسى أن الحملة التي أرسلها إلى مصر بقيادة جوهر الصقلي قد كلّفت الدولة الفاطمية أربعةً وعشرين مليوناً من الدنانير، وهو مبلغ كبير بالنسبة لذلك العهد... مضافاً إلى ذلك الأموال، والإمدادات التي كانت ترسل تباعاً إلى مصر.

ومن مظاهر الثراء، والرفاه... الهدية التي أرسلها القائد جوهر الصقلي من مصر إلى الإمام المعز لدين الله سنة ٣٥٩ هـ. فقد بلغ عددها تسعاً وتسعين بختيَّة، وإحدى وعشرين قبة عليها الديباج المنسوج بالذهب، ولها مناطق من ذهب مكلَّلة بالجواهر، ومائة وعشرين ناقة عليها الأجلة من الديباج، والأعنة من الفضة، وخمسمائة وخمسة وستين جملاً، وثمان وأربعين دابة منها بغلة واحدة، وسبعة وأربعين فرساً بأجلة حرير منقوش، وسروج كلها ما بين ذهب وفضة، وكذلك اللجم وليست هذه الهدية وحدها هي التي قدمها القائد جوهر الصقلي إلى المعز لدين الله... فهناك الهدية التي قدمها إليه عندما وصل إلى مصر، وقد ذكرناها سابقاً.

ومن مظاهر الثراء أيضاً:

ما أحضره الإمام المعز لدين الله من بلاد المغرب، فقد ذكرت المصادر التاريخية أنه جعل أموال الدولة على ألف بعير، كما أنه سبك الدنانير الذهبية على شكل طواحين، وجعل على كل جمل قطعتين، كما جعل في وسط كل قطعة ثقباً تجمع به القطعة الأخرى. فاستعظم ذلك الجند والرعية. وصاروا يقفون في الطرق لمشاهدة هذه المناظر العجيبة التي

لم يألفوها من قبل. وهذه الثروة الضخمة مصدرها الزكاة، أي أنها أموال الدعوة حملت لتنفق عليها.

وأعتقد أنه... لو قدر للإمام المعز لدين الله البقاء في مصر طويلاً لاستطاع أن يستغل موقعها الجغرافي في التجارة، وخصب أرضها في الزراعة أحسن استغلال، ولكانت خزائنه قد فاضت بالأموال. وبالرغم من الأعوام القليلة التي قضاها في مصر، فإنه تركها في حالة جيدة.

ومما يدل أيضاً على وفرة ثروة مصر في عهد الإمام المعز لدين الله... تلك الكسوة التي أعدها للكعبة الشريفة، والتي فاقت كل كسوة أرسلها العباسيون أو الأمويون.. وذكر أنها كانت مضرب الأمثال، ومثار الإعجاب.. ولم يستطع صانعو المجوهرات في تلك الأيام أن يقدروا ثمنها لكبرها، ودقة صنعتها، وقد وصفها «ابن ميسر» في تاريخ مصر بقوله:

«سعتها اثنا عشر شبراً وأرضها ديباج أحمر، ودورها اثنا عشر هلالاً ذهباً. في كل هلال أترجة ذهب مشتبك، وفي جوف كل أترجة خمسون درة كبار كبيض الحمام، وفيها الياقوت الأحمر، والأصفر، والأزرق، وقد كتب على دورها آيات الحج بزمرد أخضر، وحشو الكتابة در كبار لم يرَ مثله، وحشو الشمسية المسك والمسحوق، وقد رآها الناس في القصر، وفي خارج القصر لعلو موضعها، كما أن نصبها قام به عدة فراشين لثقل وزنها».

وهذه الكسوة صنعت في مصر وأرسلت سنة ٣٦٢ هـ. أي في نفس العام الذي وصل فيه الإمام المعز لدين الله إلى مصر.

ومن مظاهر الثراء في عهد الإمام المعز لدين الله.. تلك النهضة التي كانت ظاهرة في القصور الفاطمية الفخمة في المغرب، وإنشاء البساتين، والحدائق، والقنوات، والبحيرات. وهكذا في القاهرة «المعزّية».

ومن الواضح.. أن قصور الفاطميين كانت في القاهرة آية في الابداع، فقد كان لها مداخل كثيرة تفضي إلى أروقة متواضعة، وإلى أبهاء وأفنية هي آية في الروعة والإبداع، وحتى أن قصر البحر الذي تحدثنا عنه في المغرب كان مثلاً أعلى للقصور في العصور الوسطى.. فكان جزؤه الأوسط أشبه بجزيرة تقع في وسط بحيرة، وقد بلغ جزؤه

الخارجي الذي يحيط بالبركة من الاتساع بحيث يخيل إلى الناظر أنه مدينة قائمة بذاتها، ولم يكن القصر الشرقي الكبير في القاهرة بأقل روعة من قصر البحر في «المنصورية».

وكان المعز لدين الله يجلس على سرير الخلافة بالإيوان الكبير، وكان هذا المجلس مضرب المثل في الأناقة، وكانت تعلق فيه ستور الديباج شتاءً، والدبيقي صيفاً، وفرش الشتاء بسط الحرير عوضاً عن الصوف، وهو مطابق لستور الديباج، وفرش الصيف مطابقاً لستور الدبيقي ما بين طبري وطبرستاني مذهَّب، ومعدوم المثال.

ورأى الإمام المعز لدين الله سنة ٣٥٣ هـ. أن يرسم مصوراً للعالم، يوضح فيه موقع بلاد الحجاز فيه، فعمل له ثوب حرير منسوجاً من الذهب. وقد وصفه المقريزي بقوله:

> «هو مقطع من الحرير الأزرق التستري القوقوبي... غريب الصنعة، منسوج بالذهب، وسائر ألوان الحرير، وفي المصور صورة أقاليم الأرض، وجبالها، وبحارها، ومدنها، وأنهارها، ومسالكها... وفيه صورة مكة والمدينة، واسم كل مدينة، وجبل، وبلد، ونهر، وبحر، وطريق بالذهب أو بالفضة».

وليس أدل على تلك الثروة الطائلة من أن إحدى بنات الإمام المعز لدين الله تركت ثروة لا تقل عن مليون ونصف دينار، كما تركت ابنته الثانية أموالاً كثيرة، وحلياً فاخرة، ولا شك أن الأمراء الفاطميين كانوا يشاركون الخلفاء في عظمتهم، وميلهم إلى الظهور، ولا يقلون في ذلك عن الخلفاء أنفسهم.

ويروى: أن تغريد» زوجة الإمام المعز لدين الله أنفقت من مالها الخاص على تشييد مسجد كبير في «القرافة»، كما أقامت قصراً في المحلة المذكورة إلى جانب المسجد، وقد أحاطته ببستان جميل، وأنشأت فيه حماماً، وبئراً.

الحفلات والأعياد

كان الفاطميون يقيمون الحفلات بمناسبة الأعياد، ويطبعونها بطابعهم الخاص. فكانت أعيادهم، أو حفلاتهم في كل يوم جمعة، وصلاة العيدين، وتوزيع الحملات الحربية، ويوم عاشوراء، ومولد الإمام علي بن أبي طالب، وفاطمة الزهراء، ومولد الحسن، والحسين،

وعيد الغدير، وليلة أول رجب، ونصف رجب، وأول شعبان، ونصفه، وغرة رمضان.

أمَّا الأعياد الأخرى، كعيد جبر الخليج، وعيد النيروز.. فكانوا يحتفلون بها كذلك حتى أنهم شاركوا الأقباط بيوم الغطَّاس، وخميس الجسد، وعيد الميلاد.. وغيره.

وكان الإمام المعز لدين الله يغتنم فرصة هذه الأعياد، فيعطل الأعمال في مصالح الدولة فيقيم في قصره الأسمطة، ويدعو إليها قاضي القضاة، وكبار القواد، والوزراء، والموظفين، وكان بالاضافة إلى ذلك ينفق عليها الأموال الطائلة حتى تظهر بمظاهر النعيم.

الآثار الفاطمية في المغرب

وجَّه الخلفاء الفاطميون عنايتهم الخاصة، واهتموا اهتماماً زائداً بالبناء والعمران، وقد ذكرنا أن «عبد الله المهدي» أسس مدينة «المهدية» وجعلها حاضرة لدولته الفاطمية، كما أنشأ مدينة أخرى سمَّاها «المحمدية».

وقرَّر الإمام القائم بأمر الله إنشاء مدينة أخرى تحمل اسمه وتسمَّى «القائمية» ولكن الثورات الداخلية والحروب حالت دون ذلك.

أمَّا الخليفة الثالث الإمام المنصور بالله.. فقد ذكرنا أنه أسَّس مدينة «المنصورية» التي هي تونس الآن.. فنقل إليها الدولة، والمكاتب، والدواوين. بعد أن جعل فيها المباني والقصور، وبعد وفاة المنصور بالله جاء الإمام المعز لدين الله، فبنى قصره المعروف «بقصر البحر» وقد اختار موضعه بنفسه، وقاس أبعاده، ووضع تصميمه بنفسه، ولم يكن إطلاق اسم قصر البحر على هذا البناء إلَّا لأنه يطل على البحر.

وكان المعز لدين الله قد أقامه في أرض فسيحة. وأنشأ في وسطه بركة أو بحيرة كبيرة متسعة السطح، وأقام قصراً آخر في وسط البحيرة، وبهذا يكون «قصر البحر» هذا مؤلفاً من قصرين.

ويذكر التاريخ أن الإمام المعز لدين الله قال قبل ذلك:

أريد أن ابتني قصراً، واحتفر في وسطه بحيرة كبرى، ويكون وسط الماء قصر آخر.

وذكر أن المعز لدين الله أقام الجسور لإيصال القصرين إلى

بعضهما.. وهذا القصر يشبه قصور قدماء المصريين «فامنحاتب» الثالث أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة بنى قصراً في «طيبة» وأنشأ في وسطه بحيرة كان يتنزه فيها هو وزوجته.

وفي العاصمة «المنصورية» أنشأ الإمام المعز لدين الله البساتين الغنَّاء، ومن هذه البساتين «البستان» الذي أنشأه بوادي «القصَّارين» على مقربة من المنصورية، وكان قبل ذلك قَفْراً ينقل منه الناس الأتربة لصنع الطوب، وعمل السماد، فغرس المعز لدين الله أرضه وصوّرها وأجرى عليها الماء حتى أينعت فيها أصناف الأشجار، والرياحين، والورود، والنوار، وصارت من أجمل البساتين.

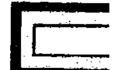
وكذلك حفر المعز لدين الله قناة كانت آية في الدقة، والروعة... وكانت تتدفق المياه إليها من الينابيع الواقعة خارج مدينة المنصورية. ومن مكان يعرف «بعين أيوب» وتبعد عنها أكثر من ثلاثةٍ وسبعين ألف ذراع، ويتخلل الطريق الذي تنساب فيه بعض المرتفعات، والمنخفضات، والصخور، ثم تنساب في الأرض، حتى تصل إلى قلب حاضرة الفاطميين.

وكان الخليفة الثاني «القائم بأمر الله» قد استغلَّ مياه «عين أيوب» في إيصال المياه إلى القيروان، ولكن ثورة أبي يزيد الخارجي حالت دون إتمام هذا المشروع، ولمَّا ولي الإمام المنصور بالله الخلافة فكرَّ في إنجازه، ولكنه عدل عن ذلك، بعد أن رأى أنه يكلف خزانة الدولة أموالاً طائلة.

ولمَّا ولي المعز لدين الله الخلافة أمر بأن تجري مياه هذه القناة إلى «المنصورية». كما نقل إليها عمودين حجريين كانا في مدينة «سوسة» وهما من بقايا آثار القرطاجانيين أو الروم، وكانا من الضخامة بحيث أن النظر إليهما يعد عبرة... ولم يكن أحد من الملوك سواء في الجاهلية أو الإسلام يتمكن من تحريكهما... ولكن المعز لدين الله تمكن من نقلهما بواسطة عبيده ومماليكه.

من هنا... نرى أن المعز لدين الله، لم يتوان أبداً وهو في المغرب عن النهوض بالفن حتى أن حاضرته كانت غاية في الروعة والجمال، كما كانت قصوره مضرب الأمثال في الفخامة والعظمة وفي مصر استمرَّ في أعماله العمرانية.. كما ستفصِّل ذلك فيما بعد.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



فهرس الاعلام

فهرس الاماكن

فهرس القبائل والعائلات والفرق الاسماعيلية

المصادر

المصادر العربية

ابن سينا في موانع اخوان الصفاء ـ عارف تامر.
اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ـ المقريزي.
اثبات التبوات ـ السجستاني ـ عارف تامر.
أخبار مصر ـ المسبحي.
أخبار ملوك بنو عبيد وسيرتهم ـ ابن حمّاء القاضي.
أخبار ملوك بنو عبيد وسيرتهم ـ فوندر.
أروى بنت اليمن ـ عارف تامر
أساس التأويل ـ النعمان بن حيُّون ـ تحقيق عارف تامر.
استتار الأمن ـ مجلة كلية الآداب ـ جامعة القاهرة.
أعيان الشيعة ـ محسن الأمين العاملي.
افتتاح الدعوة «النعمان بن حيُّون» تحقيق وداد القاضي.
الإمام المستنصر بالله الفاطمي ـ عبد المنعم ماجد.
البيان المغرب في أخبار المغرب ـ ابن عذارى.
تاج العقائد (علي بن الوليد) تحقيق عارف تامر.
تاريخ أخبار القرامطة ـ ثابت بن سنان وابن العديم.
تاريخ الاسلام السياسي والديني ـ حسن ابراهيم حسن.
تاريخ الإسماعيلية السياسي حتى سقوط بغداد ـ طه أحمد شرف.
تاريخ جوهر الصقلي ـ علي ابراهيم حسن.
تاريخ الرسل والملوك ـ الطبري.
تقويم البلدان ـ أبو الفداء.
تميم بن المعز لدين الله ـ عارف تامر.
ثورة القرامطة الاشتراكية ـ عارف تامر.
جوهر الصقلي «القائد» ـ عارف تامر.
الحاكم بأمر الله ـ عارف تامر.
الحاكم بأمر الله المفترى عليه ـ عبد المنعم ماجد.
الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ـ محمد عبد الله عنان.
حركات الشيعة المتطرفين ـ محمد جابر عبد العال.
حضارات الاسلام ـ جوستاف فون جرونبوم.
دراسات في العصور العباسية المتأخرة ـ عبد العزيز الدوري.
دعائم الاسلام (النعمان بن حيُّون) تحقيق آصف فيضي.
دولة النزارية ـ طه أحمد شرف.
راحة العقل والكرماني ـ محمد مصطفى حلمي ومحمد كامل حسين.

الرياض ـ (الكرماني) ـ تحقيق عارف تامر.
سيرة الاستاذ جوذر الكاتب ـ محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيرة.
سيرة جعفر الحاجب ـ (اليماني) مجلة كلية الآداب ـ جامعة القاهرة.
شرح ديوان ابن هانيء الأندلسي ـ عارف تامر.
صلة تاريخ الطبري ـ غريب بن سعد.
الصليحيون في اليمن ـ حسين همذاني.
عبقرية الفاطميين ـ محمد حسن الأعظمي.
عبيد الله المهدي ـ إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية ـ حسن ابراهيم حسن.
العزيز بالله ـ عارف تامر.
العصر العباسي الأول ـ شوقي ضيف.
العصر العباسي الأول ـ عبد العزيز الدوري.
عيون الأخبار ـ ادريس عماد الدين.
الغزالي بين الفلسفة والدين ـ عارف تامر.
الغلو والفِرق الغالية في الحضارة الاسلامية ـ عبد الله سلوم السامرائي.
الفاطميون في مصر ـ حسن ابراهيم حسن.
الفرق بين الفِرق ـ الإمام أبو منصور البغدادي.
فرق الشيعة ـ النوبختي.
فصول وأخبار (مخطوط ـ نور الدين أحمد).
في أدب مصر الفاطمية ـ محمد كامل حسين.
القرامطة ـ عارف تامر.
كتاب البلدان ـ اليعقوبي.
كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ـ الحمادي اليماني.
كنوز الفاطميين ـ زكي محمد حسن.
لمعة من أخبار المعز ـ مؤلف مجهول.
المجالس المستنصرية ـ الداعي ثقة الإمام.
المجالس والمسايرات ـ النعمان بن حيُّون.
المجلة الذهبية ـ علي محمد جبارة.
مروج الذهب ـ المسعودي.
معجم البلدان ـ ياقوت الحموي.
المعز لدين الله ـ حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف.
المعز لدين الله ـ عارف تامر.
الملل والنحل ـ الشهرستاني.
الموسوعة التاريخية للخلفاء الفاطميين ـ عارف تامر.
المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي ـ محمد كامل حسين.
الناصر لدين الله ـ سيمون حايك.

نزهة الأفكار ـ ادريس عماد الدين.
النظم السياسية ـ حسن ابراهيم حسن وعلي ابراهيم حسن.
النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ـ محمد جمال سرور.
نور مبين قبل الله المتين ـ علي محمد جبارة.
الهمة في آداب اتباع الأئمة ـ محمد كامل حسين.
وفيات الاعيان ـ ابن خلكان.

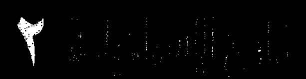
المصادر الأجنبية

A Short History of the Fatimid - Khalifate - London 1923.
A Guide to Ismaili Literature - W. Ivanow - London 1934.
A Chronological List of the imams and Dais of the Monstalian Ismaïlis. "Fyzee - Asaf" Royal asiatic Society - London 1934.
A Compendium of Ismaili es oteries Islamic Culture. H. Hamdani - 1937.
Cadi an-Numan (J,B,R,A,S) Asaf Fyzee - London 1934.
Cairo - Jerusalem and Damascus - Margoliotte - Oxford 1907.
Essai sur l'histoire de l'islamisme - Dozy. R.P.A. - Paris 1879.
Essai sur l'histoire des Ismaeleens de la perse Defrenery M.C. - Leyden.
Etudes sur la Conquete de l'Afrique par les Arabes - H. Fouruel - Paris 1881.
Esquisse d'une bibliographie Carmathe. L. Massignon - Cambridge 1922.
Enguëte au pays du Levant. M. Barres - Paris 1924.
Fragments relatifs a la doctrine des ismailis. S. Guard - Paris 1874.
Ferishta - Mohamed Kassim - (history of the rise of the Mughal) Power of India. 4 vol. translated by. John Briggs - London 1928, and - Cambridge - History of India 111 pages or Big. Si Tahr.
A forgotten branch of Ismailis' - W. Nanow - J.R.A.S. 1938.
Geschichte des Fatimids Caliph. Gottingen, 1881.
Histoire des Muslumans d'Espagne.
Histoire de L'ordre des Assassins - Hammer - Paris 1833.
Literary History of Persia - E. Browne. G. - London 1909.
Les siècles obsucres du Maghreb - Paris 1927.
Le Dogme et la loi de L'islam - Paris 1920.
La fin de L'empire des Carmathe du Bahrein. De Geoje M. - Leyden 1895.
Literary History of the arabes - Nicholson - Cambridge 1930.
Mémoires sur les Carmathes du Baherein et les Fatimides - D. Geoje M. - Leiden 1886.
Some unknown Isamaïli authors and their works. H. Hamdani 1933.
Mémoires historiques sur la Dynastie de Khalifs Fatimid's - Paris 1836.
The preaching of Islam. A. Thomas - London 1935.

المراجع

The rise of the Fatimids - Calcuta - W. Ivanow 1942.
The Karmathians - De Goeje - 1895.
The Ismailian Low of Muta - Assaf - Fyzee - London 1929.
The origins of Ismailism . B. Lewis - Cambridge 1940.
The story of Cairo - Lane poole - London 1912.
On the Geneology of Fatimid Caliphs. - H. Hamdani Cairo 1958.
The Quddahid Legend - A. Hamdani 1963.
The Shia of India .. J. N. Hollister.





من المغرب الى المشرق

يستعرض هذا الجزء من تاريخ الاسماعيلية، تاريخ الدولة الفاطمية التي امتدت امبراطوريتها من المحيط الأطلسي إلى شواطىء المتوسط والحجاز واليمن فضلا عن صقلية وكريت في عهد الحاكم المعزّ لدين الله وبذلك تكون هذه الامبراطورية قد تجاوزت بأرجائها الواسعة حدود الامبراطورية العباسية.

وفي هذا الجزء عرض مفصّل لحركة القرامطة التي كانت تشكل تهديدا مباشرا للسلطة الفاطمية ودور القائد الفاطمي جوهر الصقلي في إرساء قواعد الحكم الفاطمي في مصر وبناء مدينة القاهرة التي شهدت ازدهاراً اجتماعياً وثقافياً وعمرانيا مازالت آثاره ظاهرة إلى اليوم.

تصميم الغلاف
والخطوط محمد حمادة


1855130696